أوراق السنين [1]

أقنعة الغرب



د. مصطفى عبد الغنى

دار العالم العربي
DAR AL-AALAM AL-ARABI

أوراق السـنين [1]

أقنعة الغرب

بيانات الفهرسة أثناء النشر
(الإدارة المركزية لدار الكتب)

عبد الغنى ، مصطفى

أقنعة الغرب.

. ــ ط 1 . ــ القاهرة : دار العالم العربى ، 2008 .

262، 24 سم .ـ

1ـ الاستعمار الجديد

أ ـ العنوان 325.3

19 شارع امتداد رمسيس ـ القاهرة

تليفاكس: 22616130 ـ 24024612

e-mail :af_madkour@yahoo.com

المراجعة والتصحيح: خالـد أبو بكـر

تجهيزات فنية: الإسـراء ـ تليفون: 33143632

تصميم الغلاف: ماستر جرافيك ـ تليفون: 23925819

رقم الإيداع: 11346 / 2008

الترقيم الدولى: 978-977-6276-26-0

الطبعة الأولى: رجب 1429 هـ ـ يولية 2008 م .

أوراق السـنين [١]

أقنعـــة الغـــرب

د. مصطفى عبد الغنى

دار العالم العربي
DAR AL-AALAM AL-ARABI

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرست المحتويات

مقدمة

هذه الأقنعة..

.. لكن، لماذا الأقنعة؟

لأن الأقنعة - كما تقول لنا الدراما - هى أغطية مشكّلة مرسومة، تُثبَّت على وجه اللاعب لتخفى ملامحه الأساسية، وتعطى إحساسًا مغايرًا للوجه الحقيقى.

إنها تحاول أن تخفى الوجه، أو تسعى إلى ذلك.

وقد استخدم الغرب (= اللاعب الوحيد الآن) أقنعة كثيرة لها ألوان وأشكال ومساحيق ومخلفات وعلامات خادعة، وأزمنة ماضية، وتهاويم متباينة، وأساطير ضخمة.. فتحولت الوجوه إلى أقنعة بشعة - مع تكثيف هذا الحدث أو ذاك - وتحويله إلى "دراما" هزلية، ثم تحويله ثانية، عند إعادة عرضه، فى زمنٍ تالٍ، وشخصيات مغايرة، إلى ملهاة "ميلودرامية" لا يمكن رصد العلاقة بينهما.

أوَيمكن رصد هذه العلاقة مع فهم حركة التاريخ؟!

معنى هذا - كما سنرى فى القناع الأول - أن الحدث التاريخى لا يتكرر، لأن التاريخ لا يعيد نفسه (وهو أول ما تعلمناه فى دروس التاريخ).. فإذا تكرر، مع أنه لا يتكرر، فإنه يعود إلى هيئة أخرى، تتحول "المأساة" فيها إلى "ملهاة" سخيفة، ويتحول فيها الحاضر إلى مهزلة قبيحة يسمونها "مكر التاريخ" تتتابع فيها المشاهد: الغفلة، فالنكبة، فالعدوان الثلاثى، فالانفصال، فالنكسة، فكامب ديفيد، فالانفتاح الاقتصادى، فغزو لبنان، فالمذابح العربية العربية التى تأتى بسرعة إلى كارثة الخليج فأوسلو ومدريد.. حتى نصل إلى "أنابوليس".. إلى آخر هذه المهزلة التى نعيشها جميعًا!

أصبحنا أمام أقنعة نتعرف عليها.. وأقنعة أخرى نسعى إلى التعرف عليها.

ولنتوقف أمام مثال واحد..

إن اتفاقية يُطلق عليها "بالطة ليمان" أجرتها إنجلترا مع مصر عام 1838م للقضاء على اقتصادها وإجهاض تطورها الاقتصادى والصناعى فى القرن الماضى، هى هى اتفاقية يُطلق عليها الآن "الجات" خرجت من رحم اتفاقية أجرتها الولايات المتحدة الأمريكية مع عدد كبير من البلاد - منها مصر - ولما تنتهِ الحرب العالمية الثانية فى القرن الحالى.

وقبل هذا كله وبعده، رأينا أقنعة كثيرة تقترب منا، تطل علينا، تحاول أن تلعب معنا لعبة الموت: أن يموت الخصم - الذى هو نحن - بقناع.. أو - أحيانًا - بدون قناع..

عرفنا ارتداء أقنعة كثيرة فى هذا العصر: قناع التاريخ، قناع المؤامرة، قناع «مكيافيللى»، قناع الهزيمة، قناع الإرهاب، قناع المتفرنس، قناع المستشرق، قناع المبشِّر.. وتوالت الأقنعة: التنمية، الدينى، الخادع، العنصرى، الموضوعى.. إلخ.

تغيرت الأقنعة والوجه واحد!

تطورت الأقنعة - أو لم تتطور - والوجه واحد!

تَعَرَّتِ الأقنعة - أو بقيت - والوجه واحد!

غير أن الوجه لم ينسَ مرة واحدة الدور الذى يقوم به.

إن المتابع لحركة هذا المسرح الحديث يرى تطورًا كبيرًا..

إن الأقنعة التقليدية لم تعد تُستخدم فى الغالب، ليس لأنها غير واردة، ولكن لأن أقنعة غيرها أكثر تطورًا ظهرت بيننا، ومن بيننا فى بعض الأحيان.

كما أصبحنا أمام أصابع كثيرة - لا نعرف من أين تأتى - أخذت تصنع أقنعة أخرى وتزيد فى تثبيتها على هذا الوجه القابع فى شمال العالم أو جنوبه، ولا تريد أن تبارح مكانها إلا بهذه الأقنعة ومسمياتها الكثيرة.

إنه الغرب.. حيث تأتينا أقنعة كثيرة قبيحة تشبه أو لا تشبه شخصيات «بيرانديللو» وراءها (بالقياس على صاحب "ست شخصيات تبحث عن مؤلف")

وحيث لا يأتينا هنا قناع واحد نبيل يشبه شخصية «بيكيت» وراءه (بالقياس على صاحب نص "فى انتظار جودو").

الأقنعة الكثيرة تأتى فى ظلام هذا العالم التعس..

فى حين لا تأتى شخصية واحدة ينتظرها الجميع..

لا تأتى أبدًا!

وهو السبب الذى يدفعنا الآن لكتابة هذه الدراسة، وهذه الفصول التى كُتبت على مراحل فى السنوات الأخيرة من القرن العشرين، فحاولَتْ أن تعيد طرح "المأساة"، فإذا هى تخرج فى شكل "الملهاة" هزلية وسقيمة!

والاقتراب ببطء من (عالَم تَحَوُّل) - وهو عنوان الكتاب الذى صدر فى خريف عام 1989 لكلٍ من «جورج بوش» و«برنونت سكوكروفت» - يجب أن يدفعنا للاعتراف بأن أقنعة الغرب الكثيرة كانت تُصنع وتُثبت بإحكام قبل أزمة الخليج وبعدها، أو قبل عاصفة سبتمبر وبعدها، أو حتى لا تثبت فى حالة الضرورة.

لقد كنا هذه المرة أمام لعبة أشبه برقصة الأقنعة، مرت تحت سور برلين قبل أن يسقط، وخرجت من فوق نيران الخليج قبل أن تُطفأ، وعبَرت وسط تهاوى الكتلة الشرقية كلها فى سيرك إطفاء ظلام مسرح الحرب الباردة، وتجسدت فى الإمبريالية الأمريكية بعد عاصفة مانهاتن.. فأصبحنا منذ ذلك الوقت أمام هذا النظام العالمى الجديد الذى أعلن عنه «بوش» ولمَّا تنتهِ الأيام الأخيرة لملهاة الخليج، وأصبحنا نعيش الآن فى حالة أشبه بطقس غريب يطلَق عليه مصطلح (العولمة) وتفسيراتها الكثيرة ومخاطرها الأكثر.

ولا يجب أن نترك هذه الأقنعة دون أن نشير إلى أمر هام..

الأمر الأول: أنه سبق هذه الأقنعة كتاب نُشر بالفعل بعنوان (حقيقة الغرب)،(*) سعيتُ فيه إلى كشف التماهى بين الحملة الفرنسية فى نهاية القرن الثامن عشر، والحملة الأمريكية فى نهايات القرن العشرين وبدايات القرن الحادى والعشرين، وأهديتها فى حينها إلى «سليمان الحلبى» - شهيد الحملة الفرنسية - وأطفال بحر

(*) صدرت طبعته الأولى فى القاهرة عن "دار الحضارة" عام 1998، وطبعته الثانية عن "الهيئة المصرية العامة للكتاب" عام 2001.

البقر وملجأ العامرية وقانا.. و.."شهداء الحملة الأمريكية".. وقد تعمدت أن يكون الغلاف تمثيلاً لإعدام الشهيد «سليمان الحلبى» على الخازوق!..

وهى دلالة تكررت كثيرًا فى بدايات الألفية الثالثة حين تَصاعَد مد الإمبريالية الأمريكية بعد "سيناريو هوليوود" فى عاصفة "مانهاتن" إبان غزو العراق عام 2001.

....

هذا هو الأمر الأول: الوجوه العارية فى (حقيقة الغرب).

أما الأمر الآخر فهو رصد "الأقنعة" الهزلية للإمبريالية الأمريكية فى (أقنعة الغرب) ووراءها.

إن هذه الفصول (الأقنعة..) التى بين أيدينا الآن، نُشرت تباعًا فى صحيفة «الأهرام»، وحاولت، بعد كتابتها للمرة الأولى، إعادة كتابتها من جديد فى ضوء الواقع المعاصر، مع الاسترشاد بكل مصادر المعلومات التى توفرها وكالات الأنباء ووسائل "الميديا" الحديثة بكل إمكاناتها المنظورة أمامنا. غير أن الأهم من ذلك كله، كان إيمانى - كما قلت فى دراسة سابقة - بالتماس الأفكار الجماعية Aqelecism.. فهذه هى الدراسة التالية التى تعبّر عن الخطاب الذاتى فى منظومة الرصد التى حاولتُ فيها الاسترشاد بأفكار الغالبية العظمى من القراء والمعلقين والمحاورين لنا من شتى الفئات الثقافية.

بيد أن هذه الكتابات [أقنعة الغرب] وسابقتها [حقيقة الغرب] تمثل أحد ألوان الطيف التى تعكس فى المركز كثيرًا من "خطابات" الكاتب على مدى سنوات، بما يشير إلى أنها يمكن أن تنتمى - مع غيرها - إلى المساحات الشاسعة من المركز إلى آفاق الدائرة، والتى يمكن أن أستعير لها عنوانًا متماهيًا مع بعض الكتب التى صدرت لى، والتى نُشر أغلبها تباعًا تحت عنوان دال (أوراق السنين).. ففى حين تعكس الوعى الذاتى بما يحدث، تعكس الوعى الجَمْعِى فى منظور "شاهد العيان"، بما يشير إلى أن هذه الكتابات يمكن أن تشير فى السياق الأخير إلى لون من ألوان السيرة الفكرية التى خصصتُ لها الجزء الثانى من سيرتى المسماة (قبل الخروج)، والذى صدر فى صيف عام 2007م..

إنها بعض الأوراق التى سعيتُ إلى نشرها هنا، والتى سجلَتْ - بالإضافة إلى

الشهادة - هذه العلاقة الوثيقة بين الكاتب والمتلقي.. هذه العلاقة التى حرصتُ فيها على أن أكون محاورًا ومستمعًا ومستعيدًا الكثير من الحقائق والملابسات التى عشت، ولا أزال أعيش فيها، فى نهايات القرن العشرين وبدايات القرن الحادى والعشرين..

وعلى هذا النحو، يمكن أن تستمد هذه الكتابات أهميتها من المعاصَرة التى كنتُ أحد شهودها، والتاريخ الذى كنتُ أحد قرائه والواعين فيه بعيش التاريخ أو كتابته، أو التنبه فى المضارع إلى ما يسمى "مكر التاريخ"..

وهو ما سعيتُ إلى إعادة النظر فيه عبر فصول أو أقنعة تحمل كلها عنوان (أوراق السنين) بما فيه من دلالة وشهادة فى آن واحد.

وكثيرًا ما كنت أعيد النظر فى هذا الفصل أو ذاك بعد إعادة التماهى مع رد فعل قارئ بعينه، أو أفكار جديدة يكشفها لنا أحد المصادر، ثم أعود لكتابة النص برؤية جديدة.. فكثيرًا ما كنت أتماهى مع رد فعل القارئ - المثقف خاصة - فأعيد نشر رسالته (بالنص)، وهو ما حرصت عليه لفتح عين العدسة إلى آخرها، وفى الوقت نفسه لتعميق الرؤية لاستيعاب الحدث. وعلى ذلك، فإن السطر الأخير لهذا الفصل أو ذاك كان شديد الغَوْر شاسع المساحة..

أو جهدت - إلى حد بعيد - فى ذلك.

وغنى عن القول هنا أننى حاولت أن أستفيد من عدة مناهج وفرَتْها لنا المناهج المعاصرة، وفى ضوء ما استطعت الحصول عليه من معرفة "جمعية" ميدانية..

وكان هدفى من هذا كله محاولة الكشف عن الوجه القابع فى الشمال الأوروبى أو الأمريكى..

هذا الوجه القبيح..

وإن تعددت أقنعته وتغيرت وتمزقت فى أغلبها.

فأرجو أن أكون قد اقتربت منه، وكشفت عنه ..

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

د. مصطفى عبد الغنى

(أ)
أقنعة تاريخية

قناع التاريخ

من يرصد حركة النشر فى الغرب الآن، يلحظ عددًا غير قليل من الكتابات التى تصدر عن الدور التجارى والنشاط الدؤوب الذى تقوم به الولايات المتحدة الأمريكية فى هذا الصدد للهيمنة على العالم وتغليب المصالح الاقتصادية على الأهداف الأيديولوجية.

وربما كان «تومبسون Thompson»(*) - وهو أستاذ معروف فى جامعة تكساس - أحدث من اهتم بمفهوم "الدولة التجارية" من هذا المنطلق فى كتابه الذى رُصد من فترة بسيطة.. وهو الأمر الذى يلفت النظر عنه إذا حاولنا رصد هذا الاتجاه لدينا؛ فعلى العكس مما يصدر هناك من آن لآخر تأكيدًا لهذا النشاط الأمريكى (العولمة) من وجهة النظر الاقتصادية، لا نجد مثل هذا الاهتمام عندنا على نفس المستوى، وفى هذا الإطار خاصة، حين يتبلور الأمر فى الإطار التاريخى.

لهذا، فحين نعرف أن دراسة كالتى نوقشت أخيرًا فى الجامعة المصرية، وحصل بها صاحبها «خَلَف عبد العظيم الميرى» على درجة علمية،(**) اهتمت

(*) Thompson, Paul B., The ethic of aid trade, Cambridge University Press .

والكتاب الذى صدر فى نهاية عام 1997م يترجم فى عنوانه الرئيسى ما يريد «تومبسون» قوله، فالعنوان الكبير هو (آداب المساعدة والتجارة السياسية الغذائية الأمريكية).

(**) الرسالة بعنوان: (النشاط البحرى التجارى البريطانى فى مصر). وهو يحدد لها بداية اقتصادية هى القرن قبل الماضى فى معاهدة "بالطة ليمان" عام 1839م، وهى تشبه معاهدة "الجات" التى عُقدت فى منتصف التسعينيات من القرن العشرين. وبينما كانت الأولى إنجليزية، كانت الأخرى أمريكية بحكم الهيمنة والسيطرة العالمية.. وانتهت رسالة الباحث بالاحتلال البريطانى لمصر علامة على وصول النشاط الاقتصادى (التجارى/ البحرى.. إلخ) أقصاه. والرسالة حصل بها صاحبها على درجة الدكتوراه من جامعة عين شمس.

بهذا الجانب، فإن الأمر يتعدى رصد الظاهرة، إلى التوقف عندها، ثم الخروج منها بدلالات هامة.

لقد لفت الأمر نظر الباحث إلى درجة أن عنوانه يتحدد منذ البداية حول النشاط البحرى التجارى البريطانى فى مصر، وتتحدد الفترة الزمنية لها فى القرن قبل الماضى. إنها تبدأ من تاريخ الاتفاقية التى أُطلق عليها "اتفاقية بالطة ليمان"، (***) والتى كانت البداية الجوهرية لضرب الاقتصاد المصرى من خلال زحف الملاحة البخارية والمصالح الاقتصادية البريطانية لتصل إلى احتلال مصر الذى كان بمثابة الضربة العسكرية لحماية تلك الأنشطة والمصالح التى تغلغلت وسيطرت فى ذلك الوقت.. وهذا يعنى أن الباحث جَهَدَ أن يبدأ من الفترة التى تحددت فيها قناعات بريطانيا باحتلال مصر، مرورًا بكل المحاولات المعروفة فى القرن الماضى، حيث استكملت هذا من الاقتصاد إلى القوة المسلحة فالهيمنة تمامًا على مصر لحقبة طويلة.

ويظل الفارق المؤكد الآن بين الباحث العربى والباحث الغربى، أنه بينما اهتم الأول بتجربة بريطانيا العظمى فى تحويل مصر إلى قوة تابعة لها بعد أن كانت قوة إقليمية كبرى، اهتم الباحث الآخر - الأمريكى - بنفس التوجه فى إطار "الأمركة" التى تمارَس الآن على المنطقة العربية عبر تغلغل المصالح الاقتصادية والمعلوماتية وشبكات الاتصال.. إلخ..

فيكون الاثنان بهذا قد اشتركا فى التركيز على جوهر علاقات المصالح فى صراعات القُوَى من أجل هدف واحد، وهو الاستخدام "الاقتصادى" لتأكيد "السياسى"، والسعى إلى عقد اتفاقيات تجارية غير متكافئة.

ورغم تغير الزمن، استمرت الدلالة..

(***) هذه الاتفاقية تشبه إلى حد كبير اتفاقية "الجات" كما أشرنا فيما بعد. انظر على سبيل المثال:
- د. مصطفى عبد الغنى، *الجات والتبعية الثقافية*، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997.

تغيرت الأحداث وبقى الجوهر لم يُمَسّ..

غير أن السؤال الذى يفرض نفسه علينا هو:

هل يعيد التاريخ نفسه؟ وإذا كان يعيد نفسه، إذًا فكيف؟

هذا هو ما نحاول الإجابة عنه عبر هذه الدراسة.

(1)

ورغم أن الدرس الأول الذى يتعلمه تلميذ التاريخ أن التاريخ لا يعيد نفسه، فإننا أمام عدة مفردات تاريخية تجعلنا نزيد - إلى القول المعروف - أن الحادثة تكون أول مرة أشبه بالمأساة، وفى المرة الأخرى - حين تُكَرَّر - تصبح أشبه بالملهاة. ومن هنا، فإننا لا نريد أن نتوقف عند ملهاة تنسج خيوطها بدقة وبقوة حولنا.

وقد يكون من المهم هنا أن نشير إلى حقيقة بَدَهِيَّة، هى أن مصر التى كانت قد بدأت تهدد الملاحة البريطانية، بل تهدد أطماع العالم الغربى كله بقوتها الصاعدة فى عهد «محمد على»، فإن هذا العالم - بزعامة بريطانيا - قد سعى للنيْل منها.

وهنا لا ننفى نظرية المؤامرة، وإنما نؤكد هنا أننا يمكن أن نؤيد نظرية المؤامرة أكثر لو أننا كنا قد تصدينا للقوى البريطانية التى كانت تسعى للقضاء علينا، غير أن الملاحظة التى يجب التنبه إليها دائمًا، أننا بينما كنا منتبهين إلى هذه المؤامرة ونعمل للحماية منها قبل منتصف القرن الماضى بقليل، فإننا سمحنا - فيما بعد - للمؤامرة أن تقوم بعملها فى غيبة أصحاب المصلحة فى الاستقلال.. وهم نحن.

إنها نظرية المؤامرة مرة أخرى!

ولكن لنترك المؤامرة الآن كى نتمهل أكثر عند دلالة الأحداث التاريخية.. بل أن نعود إلى الحاضر من جديد.

(2)

نستطيع أن نحدد منذ فترة مبكرة سَعْى الغرب للنيْل منا، وفى الوقت نفسه عدم التنبه بما يكفى للتصدى له؛ ففى قمة هذا الصراع بين مصر وبريطانيا، لاحظ بعض الغربيين أن مصر كانت من أُولَيَات دول العالم التى أفادت من انتظام

الخطوط الملاحية للسفن البخارية المحيطة.. ورغم هذا، فإننا نلاحظ هنا أن ثمة حقيقة فى أن الإمبريالية البريطانية كانت تمتلك عام 1815م نحو 1168 باخرة حربية، ومن ثم فتبعًا لمفهوم السلام البريطانى (لاحظ تردد مفهوم السلام وربطه بالسلام الأمريكى فيما بعد) الذى ساد البحار بعد مؤتمر فيينا 1815، أصبح من مهام الأسطول الملكى حماية السفن التجارية وحرية التجارة أيضًا.. إلخ.

وفى النصف الأول من القرن الماضى، زاد هذا الخوف من مصر لدى بريطانيا العظمى، فإن مصر كانت قد استولت على السودان وسيطرت على موانئ السودان، ثم الجزيرة العربية حتى اليمن، فتطوُّر الرأسمالية المصرية (رأسمالية الدولة) كان يشكّل تهديدًا مباشرًا للنفوذ الأوروبى عامةً، والإنجليزى خاصة، فى هذه المنطقة ذات المحاور الملاحية الأكثر أهمية لمصالحها؛ لأن هذا التطور - كما لاحظ عديدٌ من المصادر التاريخية - كان قد تزامن مع حركة توسع خارجى كانت قادرة - مع استقرار القاعدة الصناعية - على تشكيل الإطار السياسى للتوسع التجارى. والتوسع الخارجى الهادف إلى تكوين إمبراطورية، بقدر ما حكمته عوامل سياسية متباينة، بقدر ما واجهته أهداف تجارية واضحة هى السيطرة على الأسواق الخارجية والسيطرة على طرق التجارة الدولية عبر الشرق، وهو ما كان يتناقض بشدة مع اتجاه بريطانيا نحو التوسع التجارى من جهة، وتصاعد أهمية طرق تجارة الشرق الدولية من جهة أخرى.

وفى النهاية كان التوسع السياسى "للباشا" يشكّل التوجه المضاد تمامًا للخطط الاستعمارية صوب المشرق العربى، ويعنى حرمان أوروبا من بعض محاولات التوسع. وعلى أساس من تلك التهديدات التى شكلتها التجربة المصرية تجاه الرأسمالية الأوروبية، وعلى وجه التحديد البريطانية، انبثقت التناقضات.. والتى شكلت تلك التوجهات.. ومن ثم، كان من السهل أن نرى كيف استطاعت اتفاقية "بالطة ليمان" (التى تذكّرنا الآن باتفاقية "الجات") أن تقوم بضرب هذه التجربة الإقليمية وإزاحتها من أمام حركة التجارة والملاحة الأوروبية، وفى مقدمتها البريطانية.

وكما بدا هذا التخوف من الغرب فى النشاط المصرى العسكرى والسياسى، بدا فى التخوف - أيضًا - من عديد من الأنشطة المصرية الأخرى، كأن يترتب على حفر القناة سعى فرنسا لامتلاك مصر منذ فترة مبكرة، وهو ما تمثل فى عدة مشروعات مصرية أخرى، كفكرة إنشاء السكك الحديدية فى فترتها الأولى التى اقترحها الإنجليز لخدمة مصالحهم البحرية، وإن كانت أفادت مصر.

بَيْدَ أن هذا يضع أيدينا أكثر على موقف الغرب إزاء التجربة المصرية فى القرن الماضى، وهو ما يدفع أكثر - لا شعوريًّا - إلى عقد المقارنة الآن والأحداث التاريخية تكاد تتشابه مع تغيير الظروف والملابسات.

لقد زاد التناقض أكثر بين مصر وبين بريطانيا العظمى..

وهو ما دفع القوى الغربية إلى عقد العزم على الخلاص من هذه القوى الصاعدة فى مصر.

(3)

تباينت المواقف أكثر حين ذاك بين مصر والغرب.

ولأن بريطانيا "العظمى" - التى كانت قد تُوِّجَتْ فى هذا الوقت كزعيمة للعالم - لم تكن تقبل إلا أن تكون ذات هيمنة، من ثم، فإن التسهيلات التى أبداها الباشا - فى نهاية حياته - لأنشطتها، سواء فى النقل البرى، أو للسفن فى الموانئ، أو فى تأمين التجار، أو تخفيف بعض قيود الاحتكارات، أو اتخاذ ذويها وكلاء فى التجارة، أو مُوَرِّدين له أو عملاء أو خبراء..

كل هذه الأمور لم تَعْدُ أن تكون نسبية لا تفى بما تتطلع إليه من ترك الساحة كاملة لها، ومن ثم العمل على ضرب قوته التى كانت تشكل خطرًا عليها. وبدت هذه العلاقة ذات طبيعة صراعية معقدة، الأمر الذى أنذر بحتمية الصدام والمواجهة.

ولم يكن أمام إنجلترا أن تلجأ للترهيب فقط، أو استخدام القوة فحسب، وإنما جاوزت هذا وذاك إلى تفريغ دور الدولة من محتواها التنافسى المضاد لسياسته الاقتصادية.

وباختصار، استطاعت بريطانيا "العظمى" فى ذلك الوقت الإفادة من تحالفاتها بإلغاء الاحتكار؛ أى "حرمان حاكم مصر فى الوقت ذاته من القدرة المالية التى يبنى بها جيشه وينفقها على تسليحه".

وبدأ السيناريو الذى استخدمته بريطانيا لضرب القوة العسكرية المصرية التى تحمى القوى السياسية والاقتصادية، وذلك من خلال زعزعة الاقتصاد وإضعاف البلاد لدرجة يقبل فيها الحاكم شروط الإمبريالية الصاعدة فى ذلك الوقت. ومن هنا نستطيع أن نفسر هذه الإجراءات الكثيرة التى اتخذها الغرب ـ ممثلاً فى بريطانيا ـ للنيْل من قوة مصر.

ويجب أن ننتبه لما يجرى اليوم والآن وهنا ونحن نتذكر، بسرعة، كيفية القيام بضرب مصر ومحاصرة قوتها لإجهاضها فى القرن الماضى.

لقد استخدمت بريطانيا أساليب كثيرة، منها محاصرة أملاك مصر من خلال توقيع الاتفاقات والمعاهدات المشتركة على حدود التماس الخارجية "المشتركة" بين النفوذين [الخليج] بما يكفل وجود سفنها الحربية وامتلاك قواعد عسكرية.. فقد كانت تمتلك قاعدة مالطة لأغراض استراتيجية وتجارية أيضًا، ثم احتلت عدن فيما بعد.. وتصعيد الموقف وتشويه صورة حاكم مصر، سواء أمام الدولة العثمانية، أو تقديمه بشكل سيئ للمجتمع الدولى.. والمواجهة فى الأملاك الخارجية لمصر أولاً قبل أن تصل إلى ضرب مصر "لقص" أجنحة البلاد.. والأمثلة كثيرة.

واتخذت المواجهة ضد مصر أشكالاً كثيرة، كانت فى جوهرها تسعى إلى هدف واحد، هو انتزاع مناطق كانت تابعة لمصر قهرًا (كالشام) وإخلاء الجزيرة العربية.. وهو ما يعنى أن بريطانيا سعت إلى إزاحة الوجود المصرى القوىّ من أمام مصالحها فى هذه المنطقة الحيوية من العالم، الأمر الذى يؤكد أن عديدًا من الأساليب التى اتخذتها بريطانيا ضد مصر (وهى كثيرة، وتذكّرنا بما حدث لمصر فى النصف الثانى من القرن العشرين) كلها كانت لضرب القوة المصرية، سواء خلال الجانب السياسى أو الجانب الاقتصادى، مما كان يترجم فى نهاية الأمر الواقع الجديد الذى أصبحت مصر فيه.

وقد كانت نتيجة هذا كله أن جاء الاحتلال إلى البلاد.

لقد سعت بريطانيا إلى هذا ولم تكن لتتردد فى استخدام أية ذريعة، كتهديد التجارة البريطانية أو الملاحة الغربية، أو حتى لحماية الخديوى.. فى حين أن الحقيقة المؤكدة، أن تزايد المد الاستعمارى لحماية الاقتصاد الغربى، والتطلعات الاستعمارية للسيطرة على هذه المنطقة التى تؤدى فيها مصر دورًا حيويًّا، كان وراء هذا الاحتلال.

إن المسألة - كما نلاحظ - لم تكن سوى **علاقات مصالح فى صراعات القوى، أو علاقات قوى فى صراعات المصالح**، على حد تعبير الباحث.

لقد أكدت الوثائق البريطانية أن التحركات البريطانية ضد مصر فى القرن الماضى كانت تسعى إلى محاصرة هذا الدور المصرى ومحاولة تحجيمه فى إطار الموقع الجغرافى المصرى.

ومن البَدَهِىّ هنا أن ما فعلته بريطانيا العظمى - كالذى يفعله الغرب الآن - مرتبط أشد الارتباط باستراتيجية خاصة تمزج بين الجوانب الاقتصادية والاستراتيجية، فيما تَأَكَّد، للقضاء على الدور الرائد لمصر.

(4)

وبعد..

فلا نحتاج إلى تأمل كبير لندرك - إذن - أن ما قامت به بريطانيا "العظمى" فى الماضى تقوم به الولايات المتحدة فى الحاضر.

إن سياسة "**النَّجْلَزَة**" هناك هى سياسة "**الأَمْرَكَة**" هنا..

لم يختلف شىء..

الغرب كما هو..

والشرق كما هو.

وهنا نستعيد السؤال الذى سبق أن طرحناه:

هل يعيد التاريخ نفسه؟

وهل يعيد التاريخ نفسه فى ضوء نظرية المؤامرة التى صنعناها لأنفسنا؟

الإجابة هى: نعم، بالطبع..

إنه يعيد نفسه..

وهى إجابة تظل ناقصة إذا لم نضف إليها الشقّ الآخر من السؤال: كيف؟

إنه سؤال لا يستطيع أن يجيب عنه أحد غيرنا الآن.

الآن قبل الغد..

الآن قبل أن تتحول المأساة إلى دراما هَزْلية محزنة..

وهو ما نصل معه إلى قناع آخر..

قناع المؤامرة..
وحديث المؤامرة

لسنا من أنصار المؤامرة، لكن تطل علينا المؤامرة من كل اتجاه، تنظر إلينا مرة بتطفل، ومرة بترقب، ومرة بوقاحة..

وهذه المرة الأخيرة نتعرف عليها فى أحداث كثيرة حولنا، من أهمها هذا الصراع الذى يحدث فى السودان بين الشمال والجنوب، والذى أحياه ذلك الدمار الذى لحق بمصنع الشفاء بالخرطوم من القوى الخارجية، وتغذيه المعارك التى تقوم بين الجبهة الشعبية (الجنوبية) من آن لآخر ضد الجيش السودانى. وعرفنا قبله وبعده محاولات أخرى كثيرة (هل نذكر ضرب ليبيا بالطائرات، وعملية لوكيربى، واغتيال «خليل الوزير» وإخوانه، ثم محاولة اغتيال «خالد مشعل» بالأردن، وآخرهم كانا الأخوين «عادل» و«عماد عوض الله» من حماس، ومذبحة قانا، ومذبحة صبرا وشاتيلا، ومذبحة الخليل، وضرب الطائرة الليبية بسيناء، ومذبحة بحر البقر، ومهزلة التفاوض المستمرة مع الفلسطينيين.. إلخ)..

غير أن مؤامرة مصنع الأدوية تعكس صورة هذه المؤامرة.

إن المؤامرة التى تعرّفنا عليها فى مصنع الشفاء بالخرطوم لا تزال مستمرة منذ ثلاثين عامًا، وتمثلت قمة المؤامرة فيها فى ما يحدث بمديرية بحر الغزال الآن بالسودان، حيث تدور رَحَى الحروب الأهلية بين حكومة السودان ومَن تطلق على نفسها اسم "الجبهة الشعبية لتحرير السودان".. فانظر وتأمَّل إلى جماعة خارجة عن الحكومة الرسمية - والتى تطلق على نفسها صفتى "الجبهة" و"التحرير" - ثم عد

إلى أصولها الثقافية لتعرف إلى أى مدى كانت نظرية المؤامرة تنسج بخيوطها مبكرةً فى الجنوب السودانى قبل قرن أو يزيد!

إن من يصنع المؤامرة فى جنوب السودان هو هو مَن سدد صواريخه إلى مصنع الشفاء فى العاصمة السودانية.. إنه الغرب، سواء الأوروبى أو الأمريكى.

المؤامرة واحدة، والفعل يختلف..

وقبل أن نتمهل عند ما يحدث فى جنوب السودان، نريد أن نلفت النظر إلى ملاحظة بدهية، وهى أن ما حدث فى الجنوب من صراع ضد الشمال بمؤامرة صنعها الإنجليز مبكرًا لزرع الاختلافات الثقافية والدينية والسياسية، هو هو ما يحدث - فى جذوره التى اشتعلت بفعل عامل المؤامرة - واشتبكت مع أقليات أخرى فى العالم العربى تَحَوَّل وجودها إلى قضايا وقنابل موقوتة الانفجار.

ويمكن أن نذكر أمثلة كثيرة لهذا فى الهوية الكردية والبربرية والأمازيغية، والتباين العرقى واللُّغوى والدينى، وما يعكسه هذا كله من تهديد لفكرة القومية العربية التى لا تتعارض مع وجود الأقليات ولا مع تجانسهم فى المحيط القومى، ثم فكرة الأقليات التى تحولت خلال المنابر الدولية (= الأمريكية) الآن إلى قضايا حقوق إنسان وحرية دينية.. إلخ تُستخدم لأهداف غربية بعيدة المدى صوب الشعوب الفقيرة، أو التى فى طريقها لاكتمال النمو أو إكمال التنمية..

غير أن التهديد الأكبر يظل متمثلاً فى الشعور واللاشعور من الخوف من الانفصال، وتستطيع أن تعود إلى كتب «جارودى» الأولى لتقرأ عن خطة أمريكية تدعو بصراحة شديدة إلى تجزئة مصر - على سبيل المثال - إلى أكثر من خمس مناطق..

وتستطيع أن تراجع الصحف الغربية الآن لتقرأ، وتعرف، بوجود مخطط أمريكى - لا ينفيه أصحابه - يستهدف أول ما يستهدف إلى تقسيم العراق إلى ثلاث دول، وتقسيم العديد من دول المغرب العربى، وإخراج البربر مرة فى دولة، وإشعال الأمازيغية مرة للإشارة إلى دولة فى الغيب.. وتقسيم سورية ولبنان والسودان إلى

"كانتونات" كثيرة.. ثم تقسيم مصر - وهو تقسيم مختلف هذه المرة يرتبط بالواقع الذى يخلقه الغرب باسم الأقليات فى مصر - إلى دولتين.

وربما يفسر هذا - فى جزء منه - ضرب السودان فى الفترة الأخيرة فى أهم دعاماته الاقتصادية (الدواء) للنيل من شرايين الاقتصاد السودانى التى تحتاج إلى كثير من الدماء فى هذه الفترة العصيبة التى تعيشها الآن.

وهو ما يعود بنا - ثانيةً - إلى ما يحدث فى السودان من صراع بين الجنوب والشمال، والجنوب والجنوب، والقبيلة والقومية، والثقافات الجنوبية والواقع العربى.. بين المشاعر الزنجية والمشاعر الوطنية المشروعة لكل بلد.. إلخ.

وما يحدث فى السودان الآن من صراع للثقافات فى جنوبه، نجد جذوره حية نابضة فى كثير من الوثائق العربية والإنجليزية، فى دار الوثائق بالقلعة بالقاهرة، أو وثائق الخارجية البريطانية، أو وثائق وزارات الداخلية والخارجية السودانية، ومواقف حكام المديريات السودانية فى الجنوب، فضلاً عن المسئولين الإنجليز ومفتشيهم إبان احتلال الإنجليز للسودان كله بعد احتلالهم مصر، فضلاً عن عشرات المراجع الهامة.. بين أيدينا منها الآن دراسة غير منشورة من تأليف «د. زكى البحيرى» الأستاذ بكلية التربية جامعة المنصورة.

ونستطيع أن نحدد هنا، أنه خلال الفترة الأخيرة من الحكم المصرى التركى عام 1884م، قامت الجمعيات التبشيرية الأوروبية بنشاط تبشيرى فى الجنوب تَوَقَّف خلال العهديْن اللذيْن امتدا من سنة 1884 وحتى 1898م. وبعد إعادة فتح السودان، استأنفت الإرساليات التبشيرية نشاطها، وقد شجعت الإدارة البريطانية ذلك، حتى إن «كتشنر» - أول حاكم عام للسودان - يذكر أنه «إذا لم تستطع القوى المسيحية أن تمركز نفسها فى قارة إفريقيا، فإن المسلمين العرب - على ما أعتقد - سوف يصلون إلى وسط القارة». وعلى هذا شهد الجنوب فى ذلك الوقت ردَّ فعل عنيفًا أمام هذه الإرساليات التى كادت أن تفشل فى تغيير الأهل وتعود من حيث أتت، لولا أن الحاكم الإنجليزى طالبهم بالتريث، ووعدهم بالقضاء على المقاومة

الإسلامية، فبدأت الحملات الإرهابية المنظمة التى تستخدم كل الأسلحة نحو المسلمين لتروعهم وتخرب بيوتهم ومساجدهم وتطردهم من قراهم ومدنهم لتتولى هى أحداث عملية تغايُر شاملة تَحُول بين أهل الجنوب وأهل الشمال، وتسعى إلى القضاء على أية أرضية يستطيعون من خلالها الالتقاء عبر ثقافة واحدة أو ثقافات متقاربة.

على أن التدقيق فى طبيعة هذه الإرساليات يمنحنا ملاحظة هامة..

(1)

إن طبيعة الإرساليات التى كانت ترسَل للتبشير فى الظاهر، ولإحداث الاختلاف الحضارى الذى سيورث الصراع الدامى فيما بعد، ترينا أن من أوائل الإرساليات التى وصلت إلى السودان فى بداية هذا القرن كانت الإرساليات الأمريكية.

وتؤكد لنا هنا العديدُ من المصادر، أن الإرسالية الإنجيلية الأمريكية بدأت عملها فى عام 1902م فى "تل دوليب" بأعالى النيل (لا ننسى أن هذه الإرساليات التى أرسل بها «العم سام» كانت تعمل فى جنوب مصر، خاصة فى سبعينات القرن قبل الماضى). وقامت الإرسالية المتحدة للسودان بإنشاء مدرسة داخلية للبنين فى مناطق كثيرة فى بدايات القرن، واستمر عمل الإرساليات الأجنبية بعد ذلك وإن اتخذت طابعًا إنجليزيًا، فقامت بإنشاء المدارس الغربية الخالصة (داخل الغابات) على المستوى الابتدائى، وكان تركيز مدارس التبشير - كما يقول «د. البحيرى» عن «محمد عمد بشير» - يقوم على تعليم الطلاب القراءة والكتابة، وخاصة قراءة الكتاب المقدس، وتعليم الدين المسيحى.. وبهذا انتقلت المدارس من التعليم باللغة العربية إلى التعليم باللغات المحلية أو اللغة الإنجليزية.

وعلى هذا النحو، بينما كان الشمال الإنجليزى والأمريكى ينقل قيمًا ثقافية جديدة إلى أذهان أهل الجنوب السودانى، كان يبعث فى الوقت نفسه كراهية شديدة بأهل شمال السودان من العرب حيث تجارة العبيد، وعلى هذا ارتبطت

الإنجليزية فى الأذهان بالتبشير التعليمى، على حين ارتبطت العربية فى أذهانهم بالجَلاَّبة العرب للعبيد والاتجار فيهم.

وقد يكون من المهم أن نذكر هنا أن هذه الفترة التى شهدت سيطرت الإرساليات الأمريكية على مناطق كثيرة من الجنوب ثقافيًا أو سعيها إلى ذلك، كانت هذه هى الفترة التى يسيطر فيها المستعمر الأمريكى بإرسالياته على بقية مناطق الشرق العربى، حتى إن بعض المصادر تشير إلى أنه فى بداية القرن العشرين، كان القائم بالأعمال السياسية الأمريكية فى مصر يجمع بين منصبه السياسى - كمسئول سياسى أمريكى - ومنصب رئيس الطائفة الإنجيلية فى مصر، وهو منصب دينى إنجيلى فى الوقت نفسه..

ولهذا الاستطراد أهميته، على اعتبار أن الكنيسة الإنجيلية كانت تسعى - فيما يبدو منذ فترة مبكرة - إلى الاستيلاء على عقيدة مساحات شاسعة من عقل الإنسان العربى فى المنطقة (وهو ما يحتاج إلى موضع آخر لرصد دور اليمين الأمريكى الآن فى شعب 60 ٪ من أبنائه من البروتستنت الذين يعودون للتوراة أكثر من الإنجيل، والذين أصبحوا قوة حليفة للصهيونية السياسية فى أمريكا فيما بعد).

ولم تكتف القوى الغربية بإحداث هذه الثنائية بين أهل الجنوب وأهل الشمال فى السودان، بل عملت ما من شأنه أن يُحدث الفُرقة بين أهل الجنوب أنفسهم. على أن التأثير السلبى الكبير تَحَدَّدَ أكثر فى هذا الفَتْق غير القابل للرَّتْق بين أهل الجنوب من المسيحيين، والذين أصبحوا من المسيحيين بفعل الجهود التبشيرية، ومعهم الوثنيون الذين رفضوا الخروج من وثنيتهم،، وبين أهل الشمال.

بَيْدَ أن التأثير الإنجليزى - بحكم استيلائه على البلاد - كان له التأثير الأول.

(2)

لقد سعى «اللورد كرومر» إلى بسط الإنجليزية وثقافتها وقوتها بين أهل الجنوب، فى الوقت نفسه الذى حال دون ترك أى تأثير عربى، أو إحداث أى تأثير

عربى بفعل بعض المعلمين المصريين أو التجار العرب فى الجنوب، وقد عمل على ذلك عبر نقل التجار العرب إلى الشمال، وإرسال بعض المعلمين المصريين وراءهم، بل إن أحد الممثلين الإنجليز الآخرين «أوين» اقترح على «السير وينجت» أن يستبدل قوات الجيش من الشماليين المسلمين، بفرقة من الجنوبيين ضباطها من الإنجليز؛ حتى يمكن التخلص من تأثير الشمال ممثلاً فى القوات التى تأتى منه، بل لم يكن يمانع من ربط جنوب السودان ببعض الأقطار الأخرى - كأوغندا - لإحداث هذا الاختلاف، ومن ثم الصراع الثقافى.

أحدث المحتل الغربى هذا التغيير الحضارى والثقافى بين العروبة والإسلام، والإنجليزية والمسيحية.. وقد ساعده على ذلك أن "تلك الجولة من الصراع كانت لصالح المستعمرين الإنجليز بفعل تفوقهم الحضارى والثقافى والتكنولوجى والاقتصادى"..

وهو التفوق الذى مارسته أمريكا أيضًا فى فترة من الفترات.

على أن الذى يهمنا هنا كان سَعْى المستعمر الغربى إلى استبعاد التأثير العربى فى اللغة أو الزى أو الثقافة بوجه عام، فأصبح الجنوبى أقرب إلى الإنجليزى أو الأوغندى منه إلى الشمالى العربى أو السودانى فى البلد الواحد، وأصبحنا فإذا أمامنا جنوب يتناقض مع الشمال مرة، ويتناقض مع نفسه مرة.. وهو ما يفسر لنا "السبب فى عدم اتفاق الجنوبيين أنفسهم على موقف واحد بخصوص علاقتهم بالشمال"!

وعلى هذا النحو، انتهى الجنوب إلى سياسة صراع ثقافى مع الشمال، ثم عانى من صراع عنصرى مع غيره من أهل الشمال السودانى أو أهل الشمال الغربى.

ورغم أنه فى أحد الانتخابات وافق حاكم بحر الغزال على ضرورة الارتباط بالشمال، فإن الجنرال «جورنج» - غربىَّ الثقافة والمَيْل - وقف ضد ذلك فيما بعد بعدائه الشديد لسياسة التفاهم بين أهل البلد الواحد، وتحالفه مع الغرب العنصرى.

(3)

الغريب فى الأمر كله، أن الجنوب الذى يسعى - عبر عناصر غربية - إلى التمرد على الشمال، لم يَعِ بعد، ولعله يعى الآن ولا يفعل شيئًا، أن العنصرية ليست بين أهل الجنوب وأهل الشمال فى السودان، وليست بين أهل الجنوب وأهل الجنوب، وإنما هى فى النظرة التى ينظر بها إلينا الشمال، والشمال الأمريكى بوجه خاص.

وغير بعيد عنا موقف الأسقف الأمريكى «جاك سبونج» - أسقف نيويورك بولاية نيوجرسى الأمريكية - حين وقف ليردّ على موقف أساقفة إفريقيا من قضية أخلاقية فى مؤتمر "لامبث" الذى يُعقد فى لندن بحضور زعماء الكناس الإنجليكانية. فى هذا المؤتمر، لاحظ الحاضرون أن الأسقف الأمريكى بدأ يهاجم بعنف أساقفة إفريقيا، ثم راح يصف علانيةً الأساقفة الأفارقة - هكذا "الأفارقة" دون تمييز أو فرز - بالجهل والتخلف!

وباقى ما حدث معروف. لقد احتج الأساقفة الأفارقة، وراحوا يتهمون الأمريكى بالعنصرية، وترددت أنباء بضرورة تقديم اعتذار إليهم. لكن كل شىء مضى، وظل موقف الأمريكى - الذى تَغَيَّرَ فيما بعد بآخر - ليتحدث بوقاحة أكثر عن ضرورة الحماية الدينية.. والبقية معروفة!

ألم نَقُلْ إنها مؤامرة باسم الحماية الدينية فى عصر العولمة؟!

لكن، لنَعُد إلى الجذور، جذور المؤامرة..

حديث المؤامرة.. ثانيةً

ما زلنا مع حديث المؤامرة..

وهو حديث كامن فى الوجدان العربى، أثاره مرة أخرى هذه الأيام ما يُنشر فى هذا الصدد. ولعل أهم ما صدر فى ذلك هو كتاب (ديوان الحياة المعاصرة) للمؤرخ الراحل الدكتور «يونان لبيب رزق»، الذى والَى مراجعاته فى "الأهرام" منذ سنوات، وبين أيدينا من ديوانه: القسم الثاني من الجزء الثانى، والذى يثير القضايا الاجتماعية التى عاشتها مصر فى السنوات الأخيرة من القرن الماضى.

والواقع أن ما أثاره صاحب (الديوان) اتخذ شكل الأخبار والكتابات الشيقة وصور التعليم حينَ ذاكَ، ولم يلبث أن كشف عن نفسه فيما بعد في الوجود الاقتصادى (= الاستعمارى). غير أنه بين الاتجاه التعليمى والاقتصادى، ظهر تأثير الأمريكانيات بشكل يدعو للتأمل فيما نجده من أخبار أمريكا ووجودها فى مصر فى نهاية القرن الماضى فيما تثيره الصحف والأمريكانيات. ظاهرة طفت على وجه الحياة فى مصر ذلكَ الوقت، وتمثلت لا فى النساء الأمريكانيات وما كُنَّ يأتين به فقط، وإنما ما كانت تعمد إليه أمريكا منذ هذا الوقت المبكر أن تبعث به (كرسالة) تمثل منهجًا خفيًا للتأثير فى الفكر العربى، وهى رسالة مزيج من الدهشة بالفعل الأمريكى والعجب لتقاليعه، ثم الإعجاب بكل ما يأتى به الوجه الأمريكى فى ذلك الوقت..

وهو أسلوب لم تغيره أمريكا فيما تدهشنا به حتى اليوم.

وسوف نرى صورًا من هذه الأمريكانيات قبل أن نصل إلى ما تخفيه وراءها من تحوّل، وهو تحوّل كان يبدأ بالدهشة، وينتهى بالاستعمار والميل إليه منذ فترة مبكرة.

ورغم أن مراجعة ما تقدمه لنا الصحف فى نهاية القرن الماضى تمنحنا مادة هائلة فى شتى الميادين، فإن التوقف عند إرهاصات المؤامرة الأمريكية هو ما يهمنا هنا فى المقام الأول.

(1)

نلاحظ هنا أن جملة ما نجده فى الصفحات الصحفية فى نهاية القرن الماضى، أن أخبار الأمريكيين تصفهم بأنهم شعب العجائب، وهى عجائب بدأت من العادات الاجتماعية - التى لم تَسْتَسِغْها العقلية المصرية المحافظة، ولا حتى عقول أصحاب صحيفة "الأهرام" المنفتحة نسبيًا - وانتهت بأسباب القوة والثراء الأمريكيين التى تَحَوَّل العجب فى متابعتها إلى الإعجاب..

وكانت صور العجب كثيرة، منها: أن الأمريكيات يتزوجن بالتلغراف؛ فقد كان

أغرب ما نُشر فى هذا الوقت ـ أكتوبر 1887 ـ أن يتعرف الرجل على المرأة بالسلك البرقى فى ولاية أخرى لينتهى الأمر بعد عام بالخطبة فالاقتران.

ويمضى فى هذا السياق رصد درجة الطلاق الكبيرة التى تجرى بين الأمريكيين، وأهمية الخبر أن الأمريكيات هُنَّ اللاتى كُنَّ يطلّقن أزواجهن فى عصر ما قبل "سى السيد".. عصر المجتمع الرجولى الذى كانت لا تَعْبُر فيه المرأة المصرية عتبة البيت إلا مرتين: مرة للانتقال من منزل الأب إلى دار الزوج، والأخرى وهى محمولة على الأعناق فى طريق المرقد الأخير! ويلاحظ صاحب (الديوان) هنا تعجُّب الرجال المصريين من عجيبة الأمريكيين هذه، فحمدوا الله أن زوجاتهم من المصريات لم يقرأن الخبر!

ويبدو العجب أكثر من تصرف الأمريكانيات حيال هذا الممثل الإنجليزى الذى ذهب إلى أمريكا ليمثل فيها، فبهر بجماله الفائق عيون نسائها، وورد عليه نحو 3000 طلب كلها فى شأن الزواج، و.. إلى آخر هذه القصص التى تنم عن غرابة ما تأتى به الأمريكانيات.

وإذا كانت هذه هى الصورة التى تطالعنا بها الصحف عن أمريكانيات نهاية القرن الماضى، فإن الصحف تنتقل (وهو انتقال لا يغيب مغزاه عن العقل الراصد) إلى الإعجاب من العجب إلى الإعجاب.

الإعجاب لا يترك الحديث عما تأتى به الأمريكانيات، وخاصة مكانتهن المرموقة، غير أن ذلك يصب مع غيره فى خانة الإعجاب بالأمريكيين بوجه عام: من تراثهم الفائق، وتقدمهم الكبير، وحرية الصحف عندهم.. وهو ما كان ينتهى بترجمة هذا الإعجاب إلى لغة أخرى هى لغة المصالح، فقد بدأت عملية تحقيق هذه المصالح بأخبار التقدم العلمى والصناعى، وانتهت باستيراد الآلات "المُصْطَنَعَة فى الفابريقات الأمريكية".. الأمر الذى رصدته الصحيفة. وهو ما كان يرصد ـ بدقة ـ الوجود الاقتصادى الذى كانت تقوم به الولايات المتحدة الأمريكية فى هذا الوقت، وهو مقدمة للهيمنة الاقتصادية.

ولا بد أن نعود إلى الوراء لنرى أن الهيمنة الأمريكية لم تتوقف عند الاقتصاد فحسب، وإنما سبقتها بوقت طويل محاولات التأثير الفكرى والاستعمارى عبر الإرساليات التى كانت دائبة العمل بها ـ كما رأينا فى المرة الماضية ـ وكانت تأخذ شكل التعليم.

ولنترك التأثير الاقتصادى إلى خارج (الديوان) لنعود إليه فيما بعد.

(2)

تزخر الكتب التى تَحَدَّدَ موضوعُها حول تاريخ التبشير وبدايات الوجود التبشيرى فى العالم، بالبدايات الدينية عبر الإرساليات الأمريكية التى لا تلبث أن تتحول أهدافها إلى ميول استعمارية.

وبعيدًا عن الإرساليات الأوروبية، فسوف نرى هنا أن الإرساليات الأمريكية بوجه خاص تبدأ كجماعات دينية، وكانت البذور الأولى لعمل الإرساليات الأمريكية فى مصر عامَ 1854م.. وكانت مرتبطة بالكنيسة، وليس بينها وبين الدولة صراع، وكانت أكثر تشددًا. ويسهب كتاب (تاريخ الكنيسة المصرية) لـ «رفيق حبيب» و«محمد عفيفى» فى عرض هذه الملاحظة الأخيرة، فيؤكد أن هذه الحركة كانت تميل بوضوح إلى الأصولية. ونظرًا لعدم وجود صراع مع الدولة، أو محاولة واعية للبعد عن السياسة، كانت الحركة الأمريكية هى الأسرع اتجاهًا نحو السياسة، والتمهل أكثر عند مصر.

وسوف نلاحظ أن المرسل الأمريكى كان أكثر انخراطًا فى علاقاته مع رجال السياسة والمال الأوروبيِّين، وهو ما أدى فى النهاية إلى انخراطه مع رجال السياسة والمال الأمريكيين، خاصةً، مع نهاية القرن التاسع عشر، ولا سيما حين وجد أن تبشير المسيحيين أسهل من تبشير المسلمين. لهذا تَرَكَّزَ عمله فى مصر العليا؛ ففى أسيوط عدد كبير من المسيحيين، ومن ثم بدأ التركيز فى عمل إرساليات أمريكية هناك، وبدأ الخطوات التالية نحو إنشاء الكنيسة والمؤسسات التابعة لها.

ولعل الطريف فى الأمر ـ وهو ما يلاحظه المؤرخون ـ أن الإرسالية استمرت تعمل

مع الجانبين، واستمر تأثيرها الدينى على فئة، وتأثيرها الغربى على فئة أخرى، وكان ذلك ناتجًا عن تنوع اتجاهات المرسَلين، ولكنه كان ناتجًا - أيضًا - عن ذكاء سياسى لا يَخْفَى على أحد.

لقد كان اتجه الإرساليات لا يخرج - مهما يُقال عن التبشير الدينى - عن الجانب السياسى بأية حال، ومن هنا وصل التأثير السياسى - الذى لبس مُسُوح الدين - إلى هذه الفئة التى تأثرت، وإن كانت تعيش فى مصر، بالرسالة الحضارية التى كانت تغطى بها الأهداف السياسية، فظهر عدد كبير من الأقباط المتغربين، مع تأثير بالبروتستانتية.

فإذا تأملنا قليلاً هذا الواقع، فسنجد بينه وبين الحوار الذى كان يجرى قريبًا هنا نَسَب كبير، حين ارتفعت بعض الأصوات لاتهام البروتستانت المصريين، وراحت هذه الأصوات من داخل الوطنيين المسيحيين تتهمهم بالنزوع نحو الإنجيلية الأمريكية (وإنْ كنا لا ننفى الأثر الوطنى على المستوى الفردى).

وعلى أية حال، لنترك هذا التأثير منذ منتصف القرن قبل الماضى لنمضى أكثر إلى الثمانينات منه.

(3)

فى هذه الفترة من نهاية القرن قبل الماضى، حين لوحظَتْ زيادة النشاط الاقتصادى إلى جانب الإرساليات، بدا الدور الأمريكى أكثر ما يكون بازغًا فيما سُمِّى عام 1886م "جبل الزيت"، وكان الدور الأمريكى - كما يلاحَظ - أهم ما يلفت النظر فى جملة الأخبار التى ساقتها صحيفة "الأهرام" خلال تلك الشهور. وقد وجدتُ عديدًا من المراجع التى تشير فى ذلك الوقت إلى دور الأمريكيين فى عمليات الكشف البترولى المبكرة فى مصر.

لقد أضيف إلى التعليم تأثير الاقتصاد!

ويَتَحَدَّد هذا التأثير الأخير حين أُعلن عن اكتشاف الزيت (البترول) بمصر، فتناولتُ الأخبار التى تشير إلى الدور الأمريكى الأكثر فعالية، والذى تَمَثَّل فى

جانب منه فى الاستعانة بخبير أمريكى فى مجال التنقيب، هو المستر «هربرت تويدل» الخبير فى حقول بترول بنسلفانيا. وقد تتبعت "الأهرام" قصة الاتفاق معه، ففى يونية - على سبيل المثال - نقرأ عن وصول مهندس "استحضرته الحكومة خصوصًا للبحث عن حقيقة نوع الزيت وأهمية منفعته"، كما نجد الخبر التالى مباشرةً يشير إلى تعاقد الحكومة مع الرجل. ويلاحَظ أننا نعرف فى هذا الخبر أن النظارة المصرية قد أنشأت وظيفة جديدة هى وظيفة "مستشار عموم أشغال زيت البترول"، وأنها خُصصت للمهندس الأمريكانى «هربرت تويدل»، وأن العقد يبدأ من أول يوليو عام 1886م.

ويلاحَظ أنه مع زيادة الحديث عن جبل الزيت، وتعدُّد طرق التعاقد مع الأمريكيين، وتخصيص رأس مال كبير لهذا، واستقبال أحد التجار الأمريكيين وما إلى ذلك.. كان الوجود الأمريكى فى مصر يتخذ المنحى الاقتصادى بعد أن اتخذ المنحى التعليمى، وكلاهما - الاقتصادى والأمريكى - كان يهدف فى نهاية الأمر إلى المنحى السياسى؛ أى السيطرة تمامًا على المناطق المصرية التى يسعى الاستعمار الأوروبى منذ فترة بعيدة لترسيخ أقدامه عليها.

ورغم أن مشروع جبل الزيت لم يتمخض عن شىء كبير فى هذا المجال، فإن السعى الأمريكى فى المنطقة لم يتوقف. وتحمل لنا وثائق نصف القرن التالى كيف استطاعت الولايات المتحدة الأمريكية أن تنتقل إلى أكثر من جبل زيت فى المنطقة العربية، وكيف استطاعت أن ترسخ أقدامها فى بلاد العرب من الخليج إلى الأراضى الحجازية (وقد خصص الثورى «عبد الرحمن منيف» لهذه القصة المبكية خماسيته "مدن الملح")، كما أنها لم تُغفل الوجود الثورى فى اليمن، والعربى فى فلسطين، والإسلامى فى مصر الأربعينات.

والوثائق الأمريكية فى هذه الفترة ترينا كيف كان الاهتمام الأمريكى فى المنطقة يوالى صعوده، خاصة عقب الحرب العالمية الثانية مباشرةً، وهو دور مؤكد لدينا (بين أيدينا دراسة "وثائقية" لم تُنشر بعد، عن الدور الأمريكى فى اغتيال «حسن البنا»)، بل إن الوثائق المصرية نفسها تؤكد حيوية هذا الدور، ففى مَحافظ عابدين

بدار الوثائق ـ على سبيل المثال ـ تقبع عدة مَحافظ لمجلس الوزراء في مصر تشير إلى العروض الأمريكية السخية لمصر من السلاح الأمريكي، ومَحاضر مجلس الوزراء المصريين التي تطالب بالموافقة على المشاريع الأمريكية المطروحة على الحكومة المصرية في ذلك الوقت (على سبيل المثال: المحفظة 1107 بين 46/ 1952).

وما زالت الإمبريالية توالي سيرها بالتأثير التعليمي والاقتصادي، وهي الطريق التي سارت فيها في علاقتها مع ثورة يوليو 1952م فيما بعد، مع فارق بدا أكثر ظهورًا، وهو العامل العسكري.. فأمريكا لم يتوقف دورها عند تأييد الوجود الإسرائيلي بدون حدود، وإنما أضيف إليه المدد العسكري المهول، والتأييد السياسي والدبلوماسي الواسع، وهو ما بدا أكثر وضوحًا في كارثة الخليج 90/ 1991م، وهي قصة لم تُكتب فصولها كاملة في العلاقة بين العرب في النصف الثاني من القرن العشرين والولايات المتحدة الأمريكية، حين يضاف إلى هذا كله ظهور النظام العالمي الجديد عقب سقوط سور برلين، وتداعي الاتحاد السوفييتي، وسعي الولايات المتحدة الأمريكية لعولمة العالم عبر آلياتها التي لا تتوقف عن استخدام القوة فيها بوسائلها الثلاث: التكنولوجيا، والإلكترونيات، والإعلام.

بَيْدَ أن هذا يحتاج إلى أكثر من مثال عن ممارسات الحملة الفرنسية الغربية.

(4)

لم تَخْلُ بعض الكتابات في هذا من الحديث بتفرُّد عن الوجه الحضاري للحملة، وهو ما نجده حين نجتاز هذه الآثار الدالة للحملة في سياقها التاريخي ونصل إلى نهايات هذا القرن.

إن لدينا وجهًا آخر للغرب لا نستطيع إنكاره، وفي الوقت نفسه لا نستطيع أن ندعه وحده ليمثل الغرب.

إن المفكر العربي في حيرته الأبدية لم يعدم الحديث عن وجه تَحَوُّري "تقدمي" إنساني تَمَثَّل في عصر التنوير والثورة الفرنسية، والإعلان الشهير لحقوق الإنسان والمواطن.

وهذا يسلّمنا إلى حيرة أخرى..

إننا في الوقت الذي لا نستطيع فيه الآن أن نغفل هذا الوجه الاستعماري البغيض على مدى قرنين، لا نتجاهل فيه أيضًا هذه القيم الفكرية واليسارية الاجتماعية والديمقراطية في الساحة الأوروبية والغربية بشكل عام، فضلاً عن التطورات الأكثر حداثة التي يعرفها المتابع للفكر الغربي الآن بعد موجات الحداثة وما بعد الحداثة، وما إلى ذلك من الحركات التي تستحوذ على علوم كثيرة، وتستبدل بالقديم الأحدث منه في أفكار حقيقية أو ومضات فكرية، وهو ما أثر على تفكيرنا خلال الحِقَب الماضية منذ بدايات العصر الحديث في الوطن العربي، حيث تبايَن حديثنا عن حضارة الغرب ثم ليبراليته وعلمانيته، ثم يساريته وشارحيه، ثم إلى ما انتهت إليه الرأسمالية في أوج تألقها "الإمبريالي" اليوم.

وبمراجعة كتابات مثقفينا، نلاحظ أننا لم نكن نرى الوجه الاستعماري فقط، وإنما نرى معه قيم عصرنا من التنوير أو النهضة، ونستخدم معه وعينا وأصوليتنا، دون أن نَغْفَل - في الغالب - عن أن ثمة يقينات مطلقة ما زالت تعمل بإيجاب في صف الغرب داخل الإطار المتحضر، في حين كنا نبحث عن التنوير. وهنا ننتبه إلى الوجه المظلم للحضارة الغربية في حملاتها العسكرية، وأحلامها الفرنسية خاصة، تلك التي حولَتْها إلى واقع دائم منذ مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر عام 1798م، مرورًا باستعمار الجزائر عام 1830م، واتفاقية لندن التي كانت فرنسا متحالفة فيها، أو اتفاقيات "الدويان" في سبعينات القرن الماضي، والتي كان لفرنسا دور فيها أيضًا، وصولاً إلى الاتفاق الودي عام 1904م الذي كانت فرنسا طرفه الآخر.. إلخ.

ويعزو البعض هذه الغفلة إلى أننا لم نكن دائمًا على وعي بالأهداف الغربية لكوننا لم نصل إلى درجة من التطور الفكري الذي عرفه الغرب نفسه في فترة التنوير الغربي (بين القرنيْن 16 و 18 الميلاديين) حيث يمكّننا الوعي الناضج من التمييز بين *الوجه الاستعماري والوجه الآخر (النقيض)*. بيد أنَّا في جميع الحالات لا نلقي اللوم على الغير، بل على الذات، فنحن المسئولون عن وجهة النظر التي

كَوَّنَّاها وتوقفنا عندها منذ مجيء الفرنسيين إلى بلادنا منذ قرنين من الزمان حتى الآن، فمثقفونا - بوضوح - لم يستطيعوا فى الغالب التمييز بين الوجهين، بل نستطيع الجزم - أكثر - أن الوجه المبهور المعجَب بدون حدود أو قيود، كان هو وجه المثقف السائد لدينا (انظر التفصيلات وافيةً فى كتابنا: **الجبرتى والغرب: دراسة حضارية مقارنة**، والصادر عن "الهيئة المصرية العامة للكتاب" بالقاهرة، 1996م).

وبعيدًا عن إيراد أمثلة كثيرة ربما تصل إلى مئات، سوف نشير إلى بعض المشاهد التى عرفها عالمنا العربى منذ بدايات العصر الحديث عندنا، وهى بدايات يمكن أن تبدأ - مجازًا - عند مجيء الحملة الفرنسية على مصر.

وهذه المشاهد لا تتوقف عند الجانب اللاتينى فقط، بل تُجَاوز مواقف فرنسيى الحملة الفرنسية ولمّا ينتهِ القرن الثامن عشر، إلى مواقف العنصر الأنجلوسكسونى ممثلاً فى الإنجليز مرة - بعد أن احتلوا بلادنا لقرن من الزمان - أو الأمريكان بعد أن سعوا منذ الحرب العالمية الثانية - وربما قبلها بكثير - إلى إرث الإمبراطوريات المنكمشة من قبلها.

وسوف يمثل المشهد الفرنسى أول هذه المشاهد وأخصبها.

فلنتمهل أكثر عند المشهد الفرنسى.

(5)

لا يكاد يُذكر تاريخ الغرب معنا إلا ويذكر الخازوق!

ورغم أن هذه الآلة كانت تُعرف عندنا فى الشرق خلال عصر المماليك، فإن استخدامها بعنف- ووحشية منقطعة النظير لم يُعرف إلا باستخدامها معنا فى بدايات العصر الحديث.

وسوف نتعرف هنا على الخازوق (الذى تتواضع المقصلة إلى جانبه) فى هذه الصفحة المجهولة التى أُجلس فيها عربىٌّ لساعات طويلة (وهو ما عرفه «سليمان الحلبى» بعد اغتيال «كليبر»).

وهو ما يستدعى منا مراجعة أوراق هذه الفترة، سواء تمثلت فى صحيفة "الكورييه ديجيبت" التى كان يصدرها «نابليون» إبان مجيئه إلى مصر، أو فى كتاب (عجائب الآثار) الذى انكب عليه المؤرخ «عبد الرحمن الجبرتى» المعاصر لهذه الفترة.

ومن المهم أن نذكر أن تفاصيل وضع «سليمان الحلبى» على الخازوق بكل بشاعتها، لم ترد فى الصحيفة الرسمية للحملة الفرنسية "كورييه ديجيبت" أو حتى فى مراسلات الحملة الرسمية، وإنما فى بعض التقارير السرية والمذكرات الرسمية التى كُشف عنها مؤخرًا.

ففى إحدى صفحات مذكرات الجنرال «بارون ديفرنوا» - أحد ضباط الحملة - نقرأ أنه بعد محاكمة «سليمان الحلبى» صوريًا، سرعان ما جاء الجَلاد أمامه ونظر لمشاركيه فى التدبير أو العلم بجريمته، ثم رفع سيفه، وفى لحظة هوى بسيفه الضخم على رقاب الشيوخ الثلاثة شركاء «الحلبى» (يضيف من أسمى نفسه بشاهد عيان)، ثم عُلقت رؤوسهم على أعواد بطول الخازوق المُعَدّ لـ «سليمان»، ثم أُحرقت جثثهم بالحطب أمامه.

وتضيف أوراق هذه الصورة:

«.. وجاء الجلاد مرة أخرى، وأمسك بيده اليمنى ملقطًا من الحديد، ووضعها - أى يد «سليمان» - فوق موقد مشتعل نارًا، فاحترقت حتى العظم، ولكنه لم يصرخ من الألم حتى احترقت يده تمامًا.. و.. بُطح أرضًا وشُقَّ شَرَجُهُ وأُدْخل فيه الخازوق، وربطوا ساقيْه وفخذيْه ويديْه وجسمه، وهنا صرخ صرخة واحدة. ورُفع الخازوق، وهو ثابت فوقه، حتى تساوت رأسه برؤوس الشيوخ.. و.. وكان تارة يشتم الفرنسيين، وطورًا يتجه بالدعاء إلى الله. ولم يلفظ أنفاسه الأخيرة إلا بعد خمس ساعات..»!

و.. يضيف الضابط الفرنسى:

«ذهبتُ بعد مضىّ أربعة أشهر إلى التل، حيث كان «سليمان» لا يزال فوق خازوقه».

وجاء أيضًا فى وثائق هذه الفترة (والشاهد الآن هو الجنرال «مينو» قائد الحملة الفرنسية):

«اخترق رأس الخازوق أمعاءه وكتفه اليسرى بقدر قدم تقريبًا، وتَيَبَّسَ جسمه ولم يتحلل، ولم تأكل الطير منه شيئًا كما أرادت المحكمة».

ويضيف الجنرال:

«لقد عاش الحلبى فوق الخازوق ولم يتأوه وسط هذه الآلام الشديدة التى يرتعد الإنسان منها لمجرد التفكير فيها».

ونتمهل أكثر عند بعض شهود العيان..

يؤكد علماء الحملة الفرنسية أن الخازوق أُلغى من البلاد قبل مجىء الغربيين..

ويؤكد علماء الحملة الفرنسية أن «سليمان» لم يتأوه مرة واحدة، ولم يَبْكِ أو يتألم..

كما يؤكد علماء الحملة الفرنسية أن القرن الثامن عشر فى فرنسا هو قرن الرومانسية..

ويؤكد الفرنسيون بعد أن عادوا إلى بلادهم، أن «سليمان الحلبى» لم يقع فى خطإ طلب الرحمة من أعدائه!

يؤكد الجميع أن آخر كلماته كانت موجهة إلى المسلمين باللوم: لماذا لم يقدّموا إليه العون؟ (هل نذكر صيحة «غسان كنفانى»: لماذا لم تدقوا الخزان؟)..

وأنه - يضيف «سليمان الحلبى» وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة:

«يخشى عليهم "الخازوق الغربى"».

** كان هذا قبل أن يأتى «اللورد كرومر» إلى مصر بوقت طويل.

(6)

هذه الآلة التى عُرفت فى المنطقة العربية خلال عصر المماليك، والتى تتواضع بجانبها المقصلة، كان الغرب أكثر بشاعة فى استخدامها، وأكثر حرصًا على أن تكون - فى الغالب - آلة العقاب الوحيدة فى الشرق.

وقد عرفنا مثالاً واضحًا لها فى "خَوْزَقَة" «سليمان الحلبى» بعد اغتياله لقائد الحملة الفرنسية فى مصر الجنرال «كليبر»، وتَركه بالساعات - حسب الأمر العسكرى الفرنسى - لتنهش جثته الطيور الجارحة.

كان هذا فى أول القرن التاسع عشر الميلادى، وهو ما تَكَرَّر فيما بعد مع فارق واحد: أن الخصم والقاضى كانا من الغرب، سواء أكانا من الفرنسيين أو الإنجليز.

كان الخازوق آلة العقاب الوحيدة لدى الغرب العنيف للشرقيين المحتلين، أو لدى الغرب "المتحضر" للشرقيين المتخلفين، بكل ما ورثه الغرب من صور الزِّراية والاحتقار للشرقيين منذ الحروب الصليبية. والمراجع العربية والغربية للحروب الصليبية ترينا إلى أى مدى كانت جحافل الصليبيين من الهمجية والعنف بحيث كان من المستحيل تصوُّر ما كان يحدث:

اجتياح المدن الإسلامية، وقتل كل من فيها، ونهب القصور والمساجد والكنائس، وإحراق الكتب، وتدمير اللوحات والمصنوعات الفنية، ونبش القبور بحثًا عن المجوهرات.. وحتى الخازوق نفسه استُخدم بشكل بشع.

لقد ظلت هذه الصورة تمثل أهم المشاهد الدامية فى العصر الحديث لما يفعله الغرب!..

كان الغرب الفرنسى أول الأمثلة فى العصر الحديث، ثم جاء الغزو الإنجليزى فى نهايات القرن قبل الماضى ليضيف إلى هذه المَشاهد مشاهدَ لا تقل بشاعةً عنها، وهى مشاهد وجدنا الكثير منها فى كتب التاريخ. وقد أُودِعَتْ آخِرَ الأمر فى أحدث كتاب صدر عن مؤسسة "الأهرام" تحت عنوان (ديوان الحياة المعاصرة)، والذى حرص فيه «د. يونان لبيب رزق» على نشر لوحاته أسبوعيًا عن "الأهرام" مباشرة، مستعيدًا من "الأهرام" أيضًا هذه المشاهد الدامية لهذا الغرب. وقد كانت صور الخازوق تتغير مع الزمن، لكن صور العنف باسم حضارة الرجل الأبيض لم تتغير قَطّ، واستعادة صفحات تاريخنا المصرى داخل (الديوان) فى الفترة ما بين عامىْ

1882 و1993 ترينا كيف استُبدل استعمار باستعمار، على حين لم يتغير الواقع إلا فى الأسلوب فقط.

ومن أهم صور هذا الكتاب، ما جاء تحت عنوان "دنشواى الصغيرة"، وفيها لا يهتم «د. يونان» بحادثة "دنشواى" المعروفة عام 1906م، وإنما بدنشواى أخرى أصغر منها، مثلت "بروفة" لدنشواى الكبيرة..

ودنشواى الصغيرة هنا تضع أيدينا على مشاهد كثيرة تؤكد عقلية الغرب، وكيف يرانا ويتعامل معنا..

وهى مشاهد لا تنصرف إلى التاريخ فقط، وإنما تعود إلينا الآن فى كثير من الأقطار وإن ارتدت أثوابًا أخرى، ليست إنجليزية بالزِّىّ أو العقل، وإنما هى أكثر منها تطورًا.. إنها صهيونية، يمكن أن نجدها فى أكثر من قُطْر عربى، تنطلق من فلسطين، وتنتشر عبر الجولان والضفة الغربية وجنوب لبنان وغزة، وكثيرًا ما تنقل جبهاتها إلى مناطق كثيرة بعيدة (تحت عيون الإمبريالية الأمريكية) حيث ضُرب المفاعل الذرى فى بغداد، أو حيث ضُربت جبهة التحرير بتونس.

بَيْدَ أن لهذا حديثا آخر سنلتقى به فيما بعد.

يتغير الاسم، لكن يظل المسمَّى واحدًا. والحادثة هنا - "دنشواى الصغيرة" - يكتبها لنا صاحب (الديوان) فى "أهرام" 29 من مارس 1887م فيما يلى:

«ذهب اثنان من ضباط الإنجليز نهارَ أمس ومعهما أحد العربان بصفته دليلاً إلى الجيزة جهةَ الأهرام، وبينما هما يصطادان فى وسط الزُّرُوع، تعرَّض لهما البعض من أهالى تلك الجهة وأرادوا أن يأخذوا منهما السلاح، فأطلق أحد الضابطيْن عليهم عيارًا ناريًّا، فقُتل واحدٌ منهم، ثم ازداد عدد الأهالى، فكَتَّفُوا الضابطيْن بعد أن جرحا منهم خمسة أنفار، ثم قادوهما إلى البلدة. ولما بَلَغَ البوليسَ أمرُهما أخذهما».

وما لبثت هذه الحادثة أن اتخذت أبعادًا أخرى حين تَعَلَّقَ الأمر بمحاولة اعتداء (= دفاع عن النفس) ضد الإنجليز، واتخذ الردع والعنف من الإنجليز أساليبَ

وحشية؛ فالقتيل الذى وُجدت فى جسده سبع عشرة "خردقة"، أُرسل إلى القصر العينى، وتم القبض على مشايخ البلدتين، فضلاً عن خمسة وأربعين نفرًا من الأهالى. ثم شُكِّلَتْ لجنة مَثَّلَ فيها إنجليزى بالقنصلية الإنجليزية، وتوالت الأحكام.. حُكم على كل مصرى بأن يُجلد كلٌّ منهم من 25 إلى 75 جَلْدَة أمام أهاليهم، فضلاً عن الحبس.. كما حُكم على مشايخ البلاد بالحبس والغرامات.

ويلاحظ «د. يونان» أن المحكمة شُكِّلَتْ سريعًا على شكل مريب، وتم تمثيل إنجليزى فيها.. كما يثير الانتباهَ اللجوءُ إلى عقوبة الجَلْد رغم كل الإدانات البريطانية لهذه العقوبة قبل ذلك.. ففى حين كان الإنجليز قبل هذه المحاكمة يصفون وسيلة الجَلْد بأنها "وسيلة الجَلْد البربرية المَقيتة"، فإنها لجأت إليها الآن بشكل أشد!

ويضيف الدكتور «يونان» هنا ما يذكّرنا بالأسلوب الذى لجأ إليه الأمريكان إبان حرب الخليج من الكَيْل بمكيالين (هل تذكر دور «تاتشر» الشمطاء فى حرب الخليج؟):

والأكثر من هذا لفتًا للنظر، أن هذا الحادثة لم يُكْتَفَ فيها بعقوبة الجَلْد، بل إن التنفيذ فيها كان بـ "القطة الإنجليزية".

القطة الإنجليزية السوداء!..

ماذا تكون هذه القطة؟

.. هى كرباج ذو تسعة أفرع، فى كلٍّ منها عقدة، والضرب بها على الظهر. والمعروف أن الجَلْد بالكرباج المحلى كان مقسمًا إلى "شُرُط" رحمةً بالمضروب، وليس بوحشية هذه القطة الإنجليزية السوداء!

....

ونخرج من (الديوان) إلى ما قبل عشرين عامًا بعد ذلك - عام 1906م - لنصل إلى دنشواى التى بدا فيها الغرب أكثر وأبعد مأساوية.

يقول لنا «ولفريد سكاون بلنت» مصوِّرًا أحد هذه المشاهد بعد محاكمة صورية، كيف حُكم بالإعدام شنقًا على فلاح ضعيف أعزل جاوز السبعين. يقول شاهد من أهلها:

«أمر المدير باستدعاء المحكوم عليه الأول، وهو رجل مُسِنٌّ ذو لحية بيضاء فى السبعين من عمره، ولكن تبدو عليه أمارات العافية. وحين خرج من الخيمة، راحت قدماه الحافيتان تغوصان فى الأرض الموحلة.. وبعد أن استمع إلى تلاوة نص الحكم بإعدامه، لم يضطرب، واتجه بخطى ثابتة نحو المشنقة، وصعد على درجاتها بكل اتزان..».

والتفاصيل زاخرة بدقائق الأسى والحزن التى تُبُودِلَتْ بين الفلاح الهَرِم وزوجته وأولاده، دون أن تهتز يد صاحب المشنقة وهو يمارس عمله بهدوء شديد!

....

إذًا، لم يكن قتل «سليمان الحلبى» بـ "الخازوق" من قِبَل الفرنسيين فيما سبق ذلك، يقل بشاعة عن قتل فلاح مصرى هَرِم من قِبَل الإنجليز، فكلاهما - الفرنسيون والإنجليز - كانوا يزعمون أنهم فى مصر من أجل الحرية وتحقيق العدالة، فيما كان الخازوق (أو المشنقة) هما البرهان على ما يَدَّعُون.

وكان الإرهاب هو السلاح الوحيد مع العزل من أهل البلاد..

فشُنق خمسة أفراد بالمشنقة الإنجليزية، وأُلقى بالأطفال والنساء فى السجون، بل وفَرض الإنجليز الأحكام العرفية ليمارسوا بها سياستهم.

ثم يضيف «بلنت» هذه العبارة الصريحة:

«لا نبالغ إذا قلنا إنه بموجب مرسوم 1895م، كان يمكن الحكم بالموت على أى مصرى، وإعدامه صَلْبًا أو على الخازوق لمجرد أنه امتعض من اعتداء جندى بريطانى على عِرض زوجته أو أنه حال دون ذلك».

هل تلاحظون معى هنا، أن الخازوق أيضًا كان من أدوات العقاب عند الإنجليز فى مصر؟

تُرَدِّد بعض المصادر التاريخية أن الخازوق لم يَعُدْ يستخدم فى نهاية حكم المماليك، ومع ذلك فقد أحياه الغرب حين جاء إلى البلاد مرة أخرى، بما يؤكد أنه لم يكن هناك فارق - أى فارق - بين المماليك المسلمين أو المماليك الفرنسيين أو الإنجليز (أو حتى الأمريكان فيما بعد)، فكلهم استخدم أبشع الأدوات - الخازوق - لعقاب أهلينا!..

وكلهم استخدم الإرهاب لمواجهة أهل الشرق حين طلبوا أبسط "حقوق الإنسان" التى يملئون الدنيا الآن تباكيًا عليها.

....

ثم، ألم يَكُن الإرهاب صناعة غربية قبل أن يتحدثوا عن إرهاب الأصوليين أو «حماس» أو «الجهاد».. إلخ..

وقبل أن يؤكده «نعوم تشومسكى» بعد ذلك بسنوات طويلة؟

....

لنتمهل أكثر عند وجه آخر من وجوه الإرهاب الغربى..

وسوف يتحدث فى الإرهاب الصهيونى..

لكن، بعد أن نواصل أحاديث المؤامرة.

المؤامرة.. أحاديث أخرى

هذا سؤال طرحه «شكيب أرسلان» فى عنوان كتاب صدر له فى بداية القرن الماضى، وها نحن قد تجاوزناه ولم نُجِبْ عنه بعد!

أصبحت الإجابة أصعب..

وأصبح الغير أكثر..

وأصبحت الخيبة خيبات!

كان "الغير" يعنى "الغرب".. فأصبح "الغير" يعنى "العرب" وتَبَدُّدَهم إلى ذرات.

إنها قضية الذات والآخر التى لم نستطع الإجابة عنها قَطّ.

لقد كان "الغير" فى علم الكلام العربى عندنا يعنى "المخالف.."، فإذا به الآن يتخذ صورًا أخرى.

ولنتمهل عند "الآخر/ الغرب"، قبل أن نعود إلى "الآخر/ الذات".

....

أما عن الآخر، فقد عرفناه فى الغرب..

الغير نعرفه الآن بسهولة شديدة..

وليس وجود العدو الإسرائيلى غير صورة من صور هذا الغرب الذى لا يزال يحشد مؤسساته السياسية وترساناته الحربية ومستشرقيه الجدد والقدامى للإجهاز علينا.

ونستطيع أن نفتح قوسًا لندوّن فيه آلافًا من صور العدوان والاستباحة والمجازر والاستهانة، وما شئتَ من صور "النوم العربى فى العسل" كما عرفناه فى لبنان، وكما سنعرفه كثيرًا فيما بعد.

و"الغير" نستطيع أن نلاحظه بسهولة أكثر فى الموقف التوراتى لإسرائيل منا.

فنحن - مسلمين أو عربًا أو مصريين أو سوريين أو عراقيين.. إلخ - لسنا غير أولئك "الأغيار".. وهو لفظ وجدناه فى كُتُب اليهود المقدسة وكتاباتهم الفكرية والأدبية.

إنهم يقسمون العالم إلى فئتين :اليهود.. والأغيار!

ويَزيد الأمر بشاعة حين يوضع أولئك الأغيار العرب فى مواجهة اليهود فى قالب غير إنسانى، بحيث لا يشكّل العرب لديهم أى تهديد نفسى للمغتصب، بل يحوَّل المغتصِب - مهما بلغ أمره - من صورة بشعة إلى ضحية، وهو ما نجد تفسيرًا واعيًا له فى كُتّاب الآخرين.. المعاصرين والقُدَامَى.. وما أكثرهم!

هذه بعض صور الآخر..

وهى صور تختلط بصورة الذات بحيث لا نستطيع التفريق فيها بين الذات والآخر..

أو بين الأنا والغير.

خذ مثلاً: لقد أصبحت صورة التسامح عندنا فى خبر كان، على حين حلت صور البغضاء محل الحوار، والعدوان محل الحديث.

خذ مثلاً آخر: أصبح الآخرُ اليومَ - عندنا - ليس هو الغرب أو إسرائيل، وإنما أصبح فى داخل الوطن نفسه؛ ففى كل مجتمع عربى توجد أقلية يُنْظَر إليها من الأغلبية على أنها الآخر، ويُنْظَر كذلك إلى الأغلبية من الأقلية على أنها الآخر!

سمعتُ بأذنى إحدى جماعات الأقلية فى العالم العربى وهى تتهيأ فى ندوة لها لتَصُفَّ الصفوف، وقد جلس أبناء هذه الأقلية فى حماس واستنفار بأحد نواديهم ليصغوا إلى المُحاضر الذى بدأ ندوته بعنوان: "ماذا يمكن أن يكون العنوان؟"..

العنوان يقول: "كيف تتعامل مع الآخر داخلَ وطنك؟".

والآخر واضح.. هل نحن فى حاجة لتخمين من هو الآخر هنا؟

إن المواطن أصبح ينظر إلى مواطنه الآخر، المختلف عنه دينيًّا (أو ثقافيًّا وحضريًّا) فى نفس وطنه، على أنه الآخر!

هل هناك صورة للآخر أبشع من هذه الصورة فى مجتمع نطالب فيه بالوحدة فى مواجهة عدو قوى متوحد؟!

ثم عد معى بسرعة لترى كيف ينظر الكردى إلى العراقى..

والعَلَوىّ إلى السورى..

والبربرى (نسبةً إلى بربر شمال إفريقيا) إلى الجزائرى..

والـ "بدون" إلى الكويتى..

والمارونى إلى اللبنانى..

والجنوبى إلى السودانى.. إلخ..

وأنا قَمِينٌ بذكر عدد أكبر من هذه "النظرات"، لولا الحرص على المشاعر العربية والوطنية.

ثم دعك من صورة المختلف دينيًا أو ثقافيًا أو حضاريًا فى البلد الوحد، وعد معى بسرعة لنرى:

كيف ينظر السعودى إلى العراقى..

والليبى إلى التونسى..

والقَطَرى إلى الكويتى..

والسودانى إلى المصرى..

والعراقى إلى المصرى..

والكويتى والبحرينى والسعودى.. إلخ؟

إن الآخَر الآن لم يَعُد الغرب كما تَصَوَّرَ الأمير «شكيب أرسلان»، بل أصبح الذات (وتَعَجَّبْ)!..

أصبح الأمر أصعب بكثير من أن نتجاهله، والأخطار تحيط من كل جانب.

هامش أخير:

بينما أُنهى هذه السطور، طَيَّرَتْ وكالات الأنباء خبرًا من لندن، وتحديدًا من ركن الخطابة فيه (حديقة الهايد بارك) يقول:

وقع اشتباك عنيف "دموى" بين أبناء العرب الموجودين هناك..

تبادل فيه الجميع الكلمات، فاللَّكَمات (فى أسلوب أكثر تحضرًا).

والسبب: اعتداء إسرائيل على لبنان!

مَن المخطئ..

ومن المُحِقّ؟

هل هو "حزب الله" الذى يدافع عن أرض محتلة..

أم اعتداءات إسرائيل التى تقوم بالمجازر وتتعلل "بحزب الله"؟

المهم فى هذا - تضيف وكالات الأنباء - أن الاشتباكات كانت بين عدد كبير من العرب وليست بين طرف لبنانى أو طرف سورى.

وحين حاولت الشرطة الإنجليزية التدخل وفض الاشتباك، فشلت!..

كان الاشتباك أكبر من أن يسيطر عليه الإنجليز أنفسهم فى بلادهم..

وقد أصيب عدد كبير منهم من ضباط اسكوتلنديارد!

الخبر يضيف أنه حين دُفع بـ "نجدة ضخمة" من الشرطة الإنجليزية وتم القبض على عدد كبير من المشتبكين، وُجهت إليهم تهمة الاعتداء على الشرطة الإنجليزية!

(لم يهتم أحد بجروح العرب، ولماذا يهتم أحد؟).

وينتهى الخبر، وتعود "الذاكرة" بسرعة إلى "سؤال" قديم:

لماذا تأخر المسلمون وتَقَدَّمَ غيرهم؟

وقبل ذلك وبعده:

الآخَر.. من هو الآخَر؟

المؤامرة.. والميثولوجيا

لسنوات طويلة ظللنا نتهم الغرب بأنه ضد الإسلام، وأخذنا نعزو أسباب ما يحدث لنا إلى غيرنا، وراحت أطنان هائلة من الكتب وصفحات شاسعة من الصحف والمجلات تؤكد ذلك. ومنذ أُعلن عن قيام إسرائيل عام 1948 عبر هزائم كثيرة لحقت بنا، رحنا نردد مثل هذا الرأى (على اعتبار أن أحد مكونات الغرب: العقل المسيحى - اليهودى). الجميع - هناك فى الغرب - يكرهوننا، ويضطهدوننا ويستعمروننا، ويمنعون عنا حتى الماء (آخرها صراع السوق الشرق أوسطية التى من مبادئها غير المعلنة: سيطرة إسرائيل على الماء ضمن ما تريد أن تسيطر عليه).

قلنا هذا كله، وبَرْهَنَّا عليه كثيرًا، لكن لم نَقُلْ شيئًا واحدًا. وربما كان الأهم من ذلك كله هو: أين كنا نحن؟ وكيف استمرأنا نظرية "المؤامرة" - خطأً أو صوابًا - لنداري عن عقلنا عمق المأساة التى نعيشها بأيدينا؟.. وهل كان من مصلحتنا (نحن النخبة) أن نجعل حقًا من الغرب (وإسرائيل جزء منه) ذريعة لاستمرارها؟

حاولنا أن نجيب عن هذا كله ونحن نتذكر هذه القصة من ميثولوجيا السابقين.

تقول القصة إن كاهن إحدى القرى كان دائم التنقل بين القرى ليُلقى الدرس أو العِظَة المفروضة أسبوعيًّا عبر وادٍ سحيق. وفى أحد الأيام، وبينما كان يتهيأ لهبوط السفح الأول ليبدأ بتسلق السفح المقابل، سمع أنينًا مؤلمًا ينبعث من خلف صخرة كبيرة، وحين تَقَدَّمَ مستطلعًا، رأى رجلاً طويل القامة ضخم الجثة قويَّ البِنْيَة، ينزف بشدة ويكاد يشرف على الهلاك. وما كاد يراه الرجل حتى استنجد به واستحلفه بدينه لينقذ حياته، وأمام الإلحاح - وهو رجل دين يؤمن بالتضحية فى سبيل الإنسان - حمل الجريح وسار به وقد علا أنينه من ثِقَل الرجل، وما كاد يقترب للخروج من الجبل حتى جلس ليستريح، وأنزل الرجل الجريح وأقعده إلى جانبه ليلتقط أنفاسه ويستعيد قواه ليتابع، غير أنه هنا وجد نفسه يلتفت إلى الرجل الضخم الفخم ليسأله عن اسمه، وإلى أين هو ذاهب، وتَمَهَّلَ قبل أن يعتدل الجريح ليقول فى ابتسامة عريضة:

- أنا الشيطان!

اندهش رجل الدين واستمر الحوار:

- أنا لا أمزح!

- وأنا أيضًا لا أمزح!

فاشتد عجب رجل الدين وقال غاضبًا:

- هل تجشمتُ العناء طوال هذا الطريق وأنت على ظهرى لأسمع منك هذا الهراء؟!

- وهل تعتقد أننى أسخر منك؟.. إننى أيها الرجل الطيب الشيطان الرجيم نفسه.. هذه هى الحقيقة.

وهنا غضب رجل الدين، وقام كالملسوع ليحمل صخرة ضخمة كى يهوى بها على رأس محدّثه الذى اكتشف خداعه له، فمن واجباته القضاء على خصمه الذى قضى العمر ليحذّر منه..

غير أن رجل الدين لاحظ أن محدّثه لم يَرْتَعْ، ولم يَخَفْ، وإنما قال له فى هدوء:

- لن تجرؤ على قتلى أيها الرجل.

- ولماذا؟

- لأنك - ببساطة - ستفقد وجودك أو وظيفتك.

سقطت الصخرة من يد رجل الدين المرتاع ليسمع:

- لأنك تحذّر الناس منى ليلاً ونهارًا أيها الرجل.. وأنت تتاجر بى، وباسمى، وتحذر أبناء شعبك من الوقوع فى أحابيل الشيطان. إنك إذا قتلتنى أيها الرجل الطيب لن تستطيع أن تقول لمواطنيك إنك قتلتنى، وإلا سيختفى من هذا العالم دورك، لأنه سيختفى دورى!

هنا نترك الشيطان ليُلقى موعظته على رجل الدين، ونعود إلى التعرف على رجل الدين فى عالمنا الإسلامى المعاصر (الحاكم/ المثقف/ القاضى/ الواعظ.. إلخ)، ونعيد طرح السؤال: هل كان من مصلحتنا جميعًا أن نضخم من الغرب (الشيطان) دون أن نفعل شيئًا حقيقيًا للتصدى له؟

عن نظرية "المؤامرة"

حضرتُ متأخرًا، ولكن لم يَفُتْنى الحوار الحاد الذى دار عقب ندوة عن نظرية "المؤامرة" وعَكَس أغلب أفكارها، فشهدتُ جانبًا مهمًّا من تفكير المثقفين حول هذه "الظاهرة - المؤامرة" التى تجعلنا نلقى بهزائمنا على الغير وحَسْب دون أن نترك سببًا واحدًا على عاتقنا، فلا تَبْقَى فى كل مرة نُهزم فيها مساحة لنقد الذات أو المراجعة والبحث عن الأداء المتخلف الذى نمارسه دائمًا.

والغريب أن إغراء نظرية المؤامرة يزيد أكثر فى عصر "الميديا" الغربية فى عالم لا يلتفت إلا لصاحب الوعى بما يجرى حوله قبل أن يسقط فى "ريف العالم" (= الجنوب) وعوالمه المتخلفة.

ولقد لفت نظرى بقوة، أن بعض المناقشين اختلفوا - واختلفوا كثيرًا - قبل أن يتفقوا مرة واحدة فى نهاية المحاضرة.

وقد بدا أن نقاط الخلاف أبعد وأعمق مما تصورت (لا أعرف لماذا؟).

أما نقاط الخلاف فقد توزعت بين الحاضرين، وأغلب حيثياتها ضربات فى الهواء لا تصل إلى هدف معين، ولا تصل إلى نقطة نستطيع فى كل مرة أن نبدأ

عندها الدرس من جديد، وهو ما يفسر هذا الجدل العقيم فى وقت لم تكن فيه المؤامرة غير هذه المؤامرة الكبرى التى صنعناها نحن لأنفسنا قبل أن يصنعها لنا غيرنا (هو سَعَى بالطبع ليزيّن لنا هذا، لكننا اهتبلنا الفرصة وتحدّثنا عن المؤامرة/ مؤامراتهم). وقد صور «د. يونان» جانبًا من هذه المؤامرة التى نقيمها نحن ضدنا حين راح يضرب المثل بحادثة - أو بشكل أدق: بهزيمة - من تاريخنا الحديث، فقال إن هزيمة التل الكبير تمت فى دقائق، أو هى لم تَكَدْ تبدأ فى الأصل حتى وجدنا أنفسنا مهزومين. ورحت أراجع معه وَصْف «عبد الرحمن الرافعى» وتفسيره هذه الهزيمة فى كتابه عن (الثورة العرابية)، حيث راجت فى تحليله كلمات من مثل "مهزلة" و"مأساة" و"خيانة" و"جُبْن" و"صفحة مخزية".. إلخ، وراح يَعْجَب من أن «يقطع الجيش الإنجليزى المسافة بين القَصّاصِين والتل الكبير - وهى تبلغ خمسة عشر كيلومترًا - دون أن تصادفهم طلائع المصريين». وحين جاء الجيش الإنجليزى إلى الثكنات المصرية - على حد قول «الرافعى» - كان المصريون فى كَفْر الدَّوّار (سُميت فى التاريخ بمعركة كفر الدوار) حين هَمَّ الإنجليز بالهجوم «نائمين بعد أن بُهروا فى سماع ذِكْر أرباب الطرق»، وهو ما دفع الجنرال الإنجليزى إلى أن يحيط بهذا المعسكر النائم ويستولى على استحكاماته وأسلحته.. إلخ.

وعلى هذا رحنا نتحدث عما حدث لـ «عرابى» على أنه مؤامرة كانت تستهدف الجيش المصرى فى نومه العميق بعد الذِّكْر الطويل، وعدم «إعداده للإنجليز ما يستحقون من قوة كما يحثنا القرآن الكريم».

فهل هذه مؤامرة من الغير علينا، أم أنها - قبل هذا - مؤامراتنا نحن ضد ذاتنا؟

ألا يمكن أن نعيد هذا السؤال ونحن نتحدث عن ضياع فلسطين (بشهادات العرب أنفسهم)، وقبلها تحدثنا كثيرًا عن ضياع الأندلس، وبعدها تحدثنا كثيرًا عن ضياع الجولان وسيناء (قبل أن تتحرر بالشكل الذى آلَتْ به إلينا)، ثم ضياع جنوب لبنان، وبعدها ضياع العراق التى توشك أن تنقرض بعد أن عادت إلى العصر الحجرى. وما زلنا نتحدث عن مدريد وأوسلو والحكم الذاتى والمقاطعات الاقتصادية (دَعْكَ من الحديث المرور عن مليلة وسبتة، ولواء الإسكندرونة.. إلخ).

ألا يمكن أن نعيد هذا السؤال ونحن نتحدث بإبهام ومرارة عما يحدث الآن فى

الجزائر؟ هل يجيبنا (بعيدًا عن حديث المؤامرة الخارجية) بتفسير ما يحدث الآن فى الجزائر؟ وما هى طبيعة المؤامرة التى تُحَاك لأهلينا هناك دون تفسير عقلى مفهوم.

ثم لندع العالم العربى إلى قوس العالم الإسلامى البعيد. من يقول لنا ما هو تشخيص ما يحدث الآن فى أفغانستان؟ ومَن هم هؤلاء المغاوير الذين يتحاربون؟ ولماذا؟

حين عدتُ من حديث المؤامرة، لفتت نظرى برقية تخرج من آلة "التيكرز" وتنقلها وكالات الأنباء، وتقول بالحرف: «تناول أتباع الأفغان المِقَصَّات وراحوا يقصون شَعر كل مَن يرونه فى شوارع كابُل بشعر طويل؛ على اعتبار أن الشيطان يُعَشِّش فى الشَّعر الطويل فيوسوس لصاحبه بالشر»!

وينتهى الخبر العالمى (نلاحظ أنه يُتَدَاوَل عالميًّا) ولم ينتهِ البحث عن المؤامرة!

"كشف المستور"..

هل هى مصادفة؟

أهى مصادفة أن يَزيد الحديث عن نظرية "المؤامرة"، وتُقام الندوات لها كثيرًا هذه الأيام، فى وقت يمر فيه 60 عامًا على نكبة فلسطين (عقب التقسيم)، و 110 أعوام علي مؤتمر «هرتزل»، و 90 عامًا على وعد «بلفور»، و 30 عامًا على "كامب ديفيد"؟

وهل هى مصادفة أن نظل نردد هذا التعبير - المؤامرة - لنبرر به ما نقترفه فى حق أنفسنا بأنفسنا؟

سألت نفسى هذه الأسئلة وأنا أراجع عشرات الكتب - أو مئات منها - التى كُتبت عن نكبة فلسطين والاستعمار العبرى/ الغربى لنا فى وقت رجحت فيه كفة أخطائنا..

وقد راعنى حقًّا أنه وإن تعددت الأسئلة، فإن الجواب فى الغالب يكون واحدًا، وهو أن المؤامرة صنعناها نحن لأنفسنا وللآخرين، لنوهم الذات والآخر أننا نحن

الضحية، وأننا نحن الذين يقف العالم كله ضدنا دون أن نقترف فى حق أنفسنا أى خطأ (هل يصدق أحدٌ الآن هذا الزعم؟).

حملتُ كتابًا ـ بشكل عشوائى ـ من المكتبة العربية، وأخذت أقرأ ـ أيضًا ـ بشكل عشوائى.

الكتاب يحمل عنوانًا دالاً (فلسطين)، وعنوانه الثانى أكثر دلالة (كشف المستور فيما آلت إليه الأمور).. وعلى الفور فتحتُ الكتاب وأخذتُ أقرأ، وأستأذن القارئ الكريم فى نقل بعض فقرات من كتاب ضخم، انكبّت فيه صاحبته سنوات لتكشف المستور فيما آلت إليه أمورنا عبر عديد من الكُتّاب العرب والغربيين سواء بسواء، لنقرأ فى حديث لـ «إسحاق هيرتزوج» ـ الرئيس السابق لإسرائيل:

«.. أما الجيوش العربية فكانت جيوشًا تقليدية، تحكمها الصرامة والبيروقراطية، ولعل عبارة "ماكو أوامر" التى ذاع صيتها، ما هى فى الحقيقة إلا انعكاس لسيادة الروح البيروقراطية فى أداء القوات العربية.. و.. ويعود ذلك إلى عدم قدرة القادة الميدانيين على التكيف السريع..».

ونصل بعد ذلك مباشرة إلى فقرة أخطر فى الحديث عن حرب 1948، ولا يزال الحديث لـ «هيرتزوج»:

«الأهم من ذلك، التشاحن الداخلى للعرب، فهو مصدر البلاء للقوات العربية، فبينما يحارب العربى الإسرائيليين، ينظر بالضرورة خلف ظهره إلى حلفائه، فى جو من عدم الثقة»!

وحلفاء العرب هم العرب بالطبع!

والتحليل العربى يضع أيدينا على أمور أفدح، نقرأ:

«اتخذ الملك **فاروق** قرار الاشتراك فى حرب 1948 قبل أيام قليلة من انتهاء الانتداب البريطانى على فلسطين بناءً على نصيحة **رياض الصلح**، الذى أقنعه أن خطوة كهذه كفيلة بدعم موقف الملك، وبصرف نظر الرأى العام عن المشاكل

الداخلية التى باتت أكثر تعقيدًا، إضافة إلى أن اشتراك جلالته فى الحرب قد يمكّنه من إحباط الطموح المحتمل للملك عبد الله - الوثيق الصلة بالإنجليز - فى الاستفادة من الموقف، والهيمنة على فلسطين».

والملاحظ أننا طيلة قراءة هذا الكتاب، نتوقف أمام كل صفحة تقريبًا لنقرأ هذه العبارة بالحرف أو بالتعبير: «كان للتشاحن العربى/ العربى أثر بالغ فى..»، ليفسر كل النكسات التى حاقت بنا، دون التقليل من الغرب المتيقظ، المنتظر أخطاءنا للإفادة منها، ومن خيباتنا المتلاحقة ليحوّلها إلى مكاسب على الأرض.

ورغم أن موضوع الكتاب هو فلسطين، فإن الموضوع يظل "النموذج" الذى تَكَرَّرَ كثيرًا فى تاريخنا بعد ذلك، منذ نكبة 1948، وحرب 1956، وانفصال 1961، وحرب اليمن 1962، وتداعيات أكتوبر 1973، وخيبات الخليج 1991.. وصولاً إلى هزائم الخمسينات والستينات، ومرورًا بخيبة "أزمة الخليج الكبرى" 1991، وصولاً إلى مهاترات أوسلو والحديقة الخلفية للبيت الأبيض ومدريد، ومؤتمرات الاقتصاد التى تُعقد من المغرب إلى القاهرة إلى الدوحة.. إلخ، ليتحول الصراع دائمًا إلى الجانب المنتصر، وليثبت حقيقة أن المؤامرة علينا من الداخل قبل أن نتحدث عن الخارج!

ولقد لفت نظرى وعى بعض مثقفينا بالأمر فى الفترة الأخيرة، حين كتب «د. أحمد شوقى» داعيًا إلى ما أسماه "مجلس أمن للمستقبل"، داعيًا إلى استيعاب "قواعد اللعبة" أو المباريات فى هذا الزمان الكوكبى بصورة تبعد عن "نظرية المؤامرة"، دون أن يسمح بأن تَحل محلها نظرية "الغفلة".. غير أن هذا الوعى ما زال يشوبه من الآخرين كثير من خداع الذات وابتداع نظرية المؤامرة.

إنها مؤامرة الذات، القصور، العجز، عدم الوضوح، الجشع، التحالفات المشبوهة، المصالح الضيقة، وضيق الأفق.. إلخ إلخ.

إنها المؤامرة ما زالت تتابع حلقاتها، وما زلنا نَجْتَرُّ الكلام القديم الجديد..

وما زلنا نعرف الأقنعة!

القناع الإنجليزى

حين يقول الأستاذ «كان ظنى أن.. »، فهو يعنى «كان يقينى أن»!..

وهذا اليقين الذى يتراجع فى مُخَيِّلَة الأستاذ ليصبح يقينًا، هو ما قصده حين تحدّث عن الظن فوجده يعنى أن الالتفات إلى الوراء ليس تلكؤًا مع الماضى، وإنما هو ضرورة لسلامة السير، بمثل ما يفعل سائق سيارة يريد لنفسه الأمان. ورغم أن الأستاذ يسهب حول الضرورة التى تدفع السائق للنظر إلى الوراء، فإنه يصل بسرعة إلى أنه بدون العَوْد إلى الماضى، يمكن أن يكون السفر إلى المستقبل ضربًا من المغامرة أو التقصير المتعمد. ومن هنا، فهو يحرص أن يؤكد لنا من البداية أنه بدون التنبه إلى ما كان، يمكن أن تتحول قيادة السيارة من سفر إلى خطر.

لماذا نقول هذا كله وقد انتهينا توًّا من قراءة كتاب الأستاذ «محمد حسنين هيكل» (العروش والجيوش)؟.. لأنه يحرص أن يؤكد لنا "كيف" - أو "كذلك" - (انفجر الصراع فى فلسطين).. وهذا هو العنوان الثانى للكتاب. ولأنه يحرص على أن يؤكد لنا بَدَهِيّات نسيناها جميعًا فى زحمة بدهيات أخرى فُرِضت علينا فى وقت واحد: الاحتفال بمرور قرنين على غزو الحملة الفرنسية، وتأمُّل نصف قرن على الهزيمة أو النكسة كما سميناها، ثم رياح "واى ريفر"، ثم الضجة المفتعلة حول لجنة "لانسكوم" قبل أن يبدأ قطف السبعين ساعة، والمشارِك الأول فيها الإنجليز!.. إلخ.

ولماذا الإنجليز وحدهم؟

والعَوْد إلى كتاب الأستاذ - إذًا - يذكّرنا ببدهيات نعرفها أو لا نعرفها. على أن

الخطورة في الحالتين أننا لا نحوّل البدهيات إلى واقع. ومن هنا، فإنه سعى إلى (يوميات الحرب) - وهي أوراق نادرة بعد خمسين سنة على الحرب - ليحاول العودة خلالها إلى الماضي.

عَوْد حميد إذًا، بأوراق وثائقية وأستاذ وشاهد، ووجود اشتراك إنجليزي سافر لم يفهمه الكثيرون.

قضايا كثيرة نتمهل فيها عند قضية واحدة، ونرجئ غيرها إلى ما بعد، هي قضية الموقف الإنجليزي في الحرب، أو - بشكل أدق - موقف القوات الإنجليزية في هذا الوقت منا. ورغم أن هذا الموقف لا يبدو جديدًا، فقد تعرّفنا عليه في كثير من الوثائق التي ظهرت، أو الكتابات الكثيرة التي تناولت القضية

هنا نفتح قوسًا كبيرًا لنسجل فيه هذه الملاحظة/ السؤال:

«أهي مصادفة أن أكثر الكتب التي نُشرت في الفترة الأخيرة كانت تتركز على أرض فلسطين وحلقات الصراع بيننا وبين الغرب، وخاصة الدور الإنجليزي الشرير؟» [ومن هذه الأعمال: **(حكومة عموم فلسطين)** لـ «محمد خالد الأزعر»، وكتاب **(القدس: مدينة واحدة وعقائد ثلاث)** من ترجمة كلٍّ من «د. محمد عناني» و«فاطمة نصر»، والصادر عن دار "سطور"، ثم الدراسة المهمة الموثّقة في هذا الصدد للدكتورة «هند أمين البديري»، والتي قدم لها «د. عبد الخالق لاشين»، وهو ما سنعود إليه فيما بعد].

ولنتمهل عنده الآن عبر (يوميات الحرب) التي يضعها الأستاذ «هيكل» بين أيدينا، مما يثير فينا الحس التاريخي، ويضع نقاط اليقين على حروف كثيرة، ثم إنه في نهاية الأمر للذكرى التي "قد" تنفع!

فلنتمهل عند اليوميات، وهذا القناع البارد للسيد الإنجليزي..

أو نكتفي منه ببعض ما يقدم لنا من هذا الموقف.

(1)

إن الموقف الإنجليزى المريب حينَ ذاكَ لا يُختزل فى أن القوات البريطانية كان موقفها غريبًا، وإنما يفسر حتى بعد إنهاء الانتداب فى 14 من مايو عام 1948م.

إن القوات الإنجليزية كان لديها "جدول أولويات" له توقيتات لافتة للنظر، ذلك أن الجزء المقرر لليهود بمقتضى قرار التقسيم بدأ تسليمه لقوات "الهاجاناه" مبكرًا، ومبكرًا جدًا فى بعض الأحيان، حتى إن القوات البريطانية قامت بتسليم مناطق "الجليل" ابتداء من شهر مارس وأوائل إبريل.

وأما فيما يتعلق بالجزء المخصص للعرب بمقتضى قرار التقسيم، فإن القوات البريطانية تبدو مصممة على التمسك بالأمر والنهى فيه حتى الدقيقة الأخيرة من سريان عهد الانتداب. وصحيح أن بعض قوات المقاومة العربية راحت تعمل فى بعض المواقع، لكن القوات البريطانية راحت تشرف على الساحة من عَلٍ ولا تسمح للقوات العربية أن تشن من مواقعها أية هجمات تتعدى الخطوط المقررة، ولا حتى لدرء أخطار قادمة.

والمزعج أكثر من ذلك، أن أوامر صدرت إلى قيادات المعسكرات البريطانية ببيع "مهمات لا لزوم لها عند الانسحاب بعد إنهاء الانتداب"، وكانت هذه المهمات تباع كلها للجانب اليهودى. كما أن حدود "ما لا يَلْزَم له" جرى توسيعها، فإذا هى تشمل أسلحة وذخائر وجرارات وعربات نقل ومهمات متعددة الأغراض.

هنا نلتقى - إمعانًا فى الدور الإنجليزى المريب - دورًا مشبوهًا للإنجليز فى علاقاتهم - على أرفع مستوى - بالجيش المصرى؛ فقد استطاعت القوات الإنجليزية الدخول مع المصريين فى صفقة "خادعة"، بيد أن تفاصيل الصفقة نرجئها قليلاً قبل أن نستكمل الدور الظاهر لها فى الأرض الفلسطينية ونبيّن النيات المراوِغة لها.

(2)

إننا نلتقى بالدبلوماسية الإنجليزية وتحركات العناصر البريطانية بخطوات محسوبة، لكنها فى الوقت نفسه كان يمكن أن تثير الريبة فى حينها.

كان الجانب الإنجليزى يُظهر ـ علنًا ـ ضيقه بعمليات "الهاجاناه" وتجاوزاتها، وكان يُبدى فى الظاهر أيضًا نوعًا من التضامن مع القوات العربية وعروضها، وكان يُظهر ـ فى الكم المعلن فقط ـ تأييده لبعض المواقف العربية.. غير أن واقع "الاستراتيجية" الإنجليزية وراء هذا كله كانت تُخفى الوجه الحقيقى.. كان الوجه الظاهر يُخفى القناع الذى تتعامل به عقول الإنجليز مع العروش العربية وجيوشها!

ولأننا لسنا فى معرض الحديث عن العروض، فسوف نعود إلى القناع الإنجليزى لنرى كيف يمكن أن نرصد عددًا من التصرفات التى تَنِم عما يخفيه هذا القناع من لؤم ما زال قادرًا حتى اليوم على أن يَخْفَى على الكثيرين.. وما زال لدينا من يَعْجَب ويضرب كفًا بكف حين يعلم أن الدولة الوحيدة التى رضيت أن تكون مع القوات الأمريكية فى قصف العراق هى دولة الإنجليز!

إن الموقف الإنجليزى المعاصر لا ينتمى إلى أحلام الإنجليز وأطماعهم فى المشاركة مع أصحاب النظام الجديد فقط، وإنما ينتمى إلى هذه الجذور المخادعة التى أدت دورًا أقل ما يقال فيه إنه كان ضد القُوَى العربية على طول الخط فى أهم معاركهم على الإطلاق فى القرن العشرين.

لنعد إلى القناع ونرى ما وراءه، فقد كان يمكن ـ رغم كل شىء ـ تمييز عدد من الأسباب تفسر هذا الموقف الإنجليزى.

(3)

إننا أمام يوميات الحرب التى تكشف الكثير لمن يريد أن يعرف أكثر ممن يكون ـ كالأستاذ «هيكل» ـ شاهدًا فى الميدان، إننا أمام يومية تشير إلى إغارة الطائرات المصرية أثناء الحرب على مواقع إنجليزية، وعلى سماء تل أبيب، فى الساعة كذا من العمليات الحربية، فى رسالة من رئاسة عسكرية ومدنية مسئولة، ثم إذا بنا أمام تعليق الأستاذ لينتقل بنا من عام 1948 إلى عام 1998، فيكتب ـ دون إثقال الصورة بالتفاصيل أمام القارئ ـ أن هذه الحادثة وما تلاها وما أحاط بها من ظروف أخرى سبق شرحها، ترجّح ما توحى به شواهد كثيرة من أن الحكومة

البريطانية لم تكن تمانع فى دخول الجيوش العربية ذلكَ الوقت للمشاركة فى القتال على أرض فلسطين، بل لعلها كانت - بوسائل هادئة - تحرّض عليه لأسباب لديها تتعلق بخططها الاستراتيجية فى المنطقة عمومًا أكثر مما تتعلق بحق العرب فى فلسطين وواجب إخوانهم على الساحة الأخرى من الحدود فى نجدتهم حمايةً لهم من العدوان، وحمايةً للوطن من الضياع.

ولا ينسى "الأستاذ" أن يشير إلى هذا النص الذى تركه الجنرال «جلوب» قائد الفيلق العربى الأردنى، والذى يقول فى نهايته ما يثير عشرات الدلالات:

«كنا ممنوعين من دخول أى مناطق مخصصة للدولة اليهودية بمقتضى قرار التقسيم، وبالتالى فإن خططنا جميعًا كانت بالتوافق مع أوامر الأمم المتحدة، وبموافقة من الحكومة الإنجليزية».

ونقفز بسرعة من صفحات كثيرة، وأوامر عسكرية أكثر، لنتوقف عند شىء أسماه الأستاذ بـ "المذهل"، وفَصَّلَهُ بأن البترول المصرى من مصر، والبترول العراقى من العراق، كان يصل إلى فلسطين المحتلة وإلى القوات الإسرائيلية فى فترة الحرب وبعدها!.. ونتخفف قليلاً من هذا الذهول حين نعرف أن شركات البترول التى كانت تزوّد اليهود بالبترول العربى كانت شركات بريطانية.. وإنْ كانت تسيطر على البترول العربى!

إنه القناع البريطانى الشرير من جديد!

وتنتهى (يوميات الحرب) كما قدمها لنا الأستاذ كمادة خام، ثم حين اجتهد وقدمها لنا من خلال التحليل عبر اليوميات والأرشيف الإسرائيلى ومخطوطات وزارة "الإمبريالية" الأمريكية وشهادات مسجَّلة لعسكريين ومدنيين شهدوا الحرب وشاركوا فيها.

نقول: تنتهى اليوميات ولا ينتهى التعرّف أكثر على قناع السياسة البريطانية المعادية لنا. فلنتعرف أكثر على هذه "الصفقة" الكاذبة مع مصر.. كيف؟ ولماذا؟

فما زال القناع كثيفًا.

الجهل بالتاريخ.. والصفقة المصرية الخاسرة

ونعود ثانيةً إلى هذا الكتاب. وقبل أن نستطرد أكثر، ثمة نقاط يجب الإشارة إليها عفوًا، إحداها ما أَسَرَّهُ البعض إلينا بشيء من الدهشة، أننا أوْلينا الدور الإنجليزى فى كتاب (العروش والجيوش) لـ «محمد حسنين هيكل» أهمية كبيرة، فى حين أن هذا الدور كشف لنا عن نفسه من قبل، ومن كثير من الوثائق.. ويمكن أن يكون هذا صحيحًا - نرد - لو أننا امتلكنا الوعى بما حدث فى ضوء التاريخ أولاً، وفى ضوء العلاقات الدولية الجديدة ثانيًا.. ثم لم نغفل طبيعة المرحلة التى تمر بها بلادنا العربية بعد نصف قرن أو ينيف من النكبة ثالثا. ثم إن الجيل الجديد فى بلادنا لا يُذكر - ولا يكاد - فى أخطر فترات تاريخنا قاطبةً بعد ذلك.

ويمكن أن يكون هذا صحيحًا، لولا أن ما جاء هنا يؤكد هذا: نسياننا (نحن الكبار من الخاصة) أو جهلنا (نحن الصغار من الطلبة) بأهم أحداث تاريخنا الوطنى!.. وقد تُرْجِمَ هذا فى عديد من ردود الأفعال علينا، إما على شكل فاكسات، أو خطابات، أو حوارات مستمرة. وسوف أكتفى منها بفاكس واحد يعلّق على ما كتبناه هنا طيلة الأسبوعيْن الماضييْن قبل أن نَعِدَ بمثال آخر يؤكد افتقاد الوعى بتاريخنا والجهل به..

وَعْد محاولة السعى لمعرفته - بما فيه الكفاية خطورةً - هذا اليوم.

(1)

من فاكس طويل أرسلَتْ به مربية فاضلة قضت أكثر من نصف قرن فى الجامعات المصرية، ننقل هذه الفقرة. تقول أستاذة الحضارة الفرنسية:

«كثيرًا ما دهشتُ من جهل طلبتى بأهم أحداث تاريخنا القومى، بل وجهلهم بكل ما دار فى العالم من أحداث جسام، وتأثير هذه الأحداث على تاريخنا ومسيرتنا القومية الواضح لأى جاهل يفك الخط.. بل ودهشتُ أكثر لما أسمعه أكثر - أيضًا - من أخطاء تاريخية فادحة لبعض أساتذة التاريخ الذين يفتون فى التاريخ فى أحاديثهم عبر نافذة التلفاز المضلّلة على جميع الوجوه.

وكانت صدمتى أفدح عندما أتيحت لى المناقشة مع بعض الأساتذة "المتخصصين" - على حد تعبيرهم - بسبب استيائهم من آرائى.. وهذا من حقهم.. ثم اكتشفت أنهم لم يقرءوا لى سطرًا واحدًا مما كتبتُهُ فى هذا الصدد!.. فهمتُ آنَ ذاكَ أن السبب هو انبهارهم حتى يومنا هذا بـ «نابليون»، ولم أَعْجَبْ بعد ذلك - وهم ممن يؤلفون الكتب المدرسية للأسف الشديد - لجهل طلبتى وقد تَبَدَّى لى جهل هؤلاء الأساتذة، من سياق المناقشة، بأبسط الوقائع التاريخية المعترف بها، أيًّا كان رأيهم فى الحملة الفرنسية على مصر. وكانت الفجيعة بالنسبة لى، تجاهلهم التام للإمبراطورية العثمانية وتأثير تيارات الإصلاح فيها قبل وصول الحملة، مما يشرح الكثير من قرارات «محمد على» بعد ذلك فى تحويل مصر إلى دولة مركزية حديثة»

وتضيف هنا:

«تخرجتُ من المدارس الفرنسية من الشعبة العلمية. وعلى الرغم من ذلك، كانت مادتىْ التاريخ والجغرافيا من أهم المواد؛ فالطبيب والمهندس - إلى آخر أصحاب هذه المهن العلمية - لا يحق لهم أن يجهلوا تاريخ بلدهم، ولذا فلا شك فى انتماء الفرنسى لبلده انتماءً يصل إلى حد الشوفونية. ولكن، أليس هذا أحسن من حال طلبة لا يعرفون شيئًا عن ماضيهم، فلا يشعرون برباط وثيق مع مجموعة مواطنين يشاركونهم هذا الماضى بأمجاده ومآسيه؟!.. ولو أنكَ تابعتَ التلفاز الفرنسى، لعجبتَ لعدد البرامج المُكَرَّسَة للتاريخ، حتى قُرِّرَ مؤخرًا تخصيص قناة بذاتها للتاريخ!

ألا يحق لنا أن نهتم فعلاً بهم وهم على هذا الحرص لتعليم المواطنين التاريخ، سواء أكان محليًّا أو عالميًّا؟ أنت على حق عندما تكتب أن الكتب المدرسية كأنها نُشرت فى فرنسا وليس فى مصر، إذ كَتَبَها هؤلاء الكُتَّاب والمؤرِّخون المُتَيَّمُون بأسطورة «نابليون»!.. وتحت إشرافى رسالة ماجستير تبحث عن تأثير المؤرخين الفرنسيين على المؤرخين المصريين فى النصف الأول من هذا القرن، وقد توصلت الباحثة إلى نفس هذه النتيجة.

أيكون مَن نتحدث عنهم تلاميذَ هؤلاء المؤرخين؟

ربما.. ولكن ذلك معناه الوحيد - ونحن فى نهاية القرن - أنهم لم يقرءوا شيئًا آخر منذ ستين عامًا!.. شىء مفجع لمستقبل العقل المصرى و...».

(د.ليلى عنان)

تنتهى السطور، ونواصل صورة هذا الجهل، وندلل عليه بحادثة حيوية أخرى من تاريخنا، كانت ـ ضمن أشياء أخرى ـ من علامات جهلنا بالتاريخ ("**ذاكرتنا**" كما رددنا كثيرًا)، وتكون هذه الصورة المفجعة من كتاب (العروش والجيوش) أيضًا كمثال..

(2)

فقد كان من أسباب دخولنا حرب 1948 وتحوّل موقف الملك، أن القرائن كانت توحى بأن الإنجليز على استعداد لقبول فكرة دخول الجيش المصرى إلى فلسطين. والأكثر من ذلك: كان هناك إيحاء أكثر دلالة على استعداد بريطانيا لما هو أكثر، وهو مساعدة الجيش المصرى بالسلاح. تعالوا نقرأ هذه الفقرة:

«إن طرفًا بريطانيًا مسئولاً، وفى الغالب أنه كان من العسكريين البريطانيين، عقد صفقة من نوع غريب مع الملك «فاروق» مباشرةً، وقد عهد بالمسئولية عن الناحية المصرية فيها إلى ضابط فى الحرس الملكى يُحتمل أن يكون القائمقام «حسين سرى عامر»، وكان مؤدَّى الصفقة أنْ "يُسمح" لمصر بأنْ "تأخذ ما تحتاج إليه من الأسلحة والذخائر من مخازن ومعسكرات الجيش البريطانى فى قاعدة قناة السويس". ولمَّا كان من الصعب أن يكون "السماح" باتفاق سياسى محدد، فإن "الأخذ" جرى ترتيبه بنوع من "التوافق الأمنى"».

أى أن طرفًا مصريًا يمد يده ويأخذ، وفى مقابل ذلك فإن طرفًا بريطانيًا يُغمض عينه ويسكت. وبمعنى أخر أكثر صراحة، فإن الترتيبات كانت "سرقة" من نوع ما.. و"سرقة بالرضا"!

ويفسر هذا الموقف أن الملك لَعَلَّهُ قَبِلَ صفقة "سرقة الأسلحة والذخائر سماحًا *بالرضا*" كإجراء طوارئ مؤقت، وحتى تتخذ الحكومة البريطانية قرارًا وعدَتْ به فى موضوع توريد أسلحة إلى مصر، خاصةً أن دورًا كان مطلوبًا من الفيلق العربى الأردنى لم يكن قد حُسم بعد.

وعبورًا فوق أحداث ومُلابسات كثيرة فى الجانب البريطانى، فإن ازدواجية الموقف الإنجليزى تشير إلى الحيرة فى تفهُّم هذا الموقف، خاصة أن المراسلات الإنجليزية الرسمية كان يبدو منها أن وزارة الحربية فى لندن لم تكن لتعرف بهذه السرقة أوْ الصفقة الخاسرة.

جهة إنجليزية تشير إلى هذه الصفقة وتؤكد عليها، وجهة أخرى تُبْدِى جهلها بما يحدث، والحصيلة أن الجانب المصرى كان قد استراح إلى الموقف الأول حتى يصل - بعد المفاوضات مع الإنجليز - إلى الحصول على الأسلحة الإنجليزية بشكل شرعى.

ومع اختلاط المواقف، يعود صاحب الكتاب ليفسر هذا اللَّبْس الذى جعل مصر والأمة العربية تدفع ثمن الحرب بالسلب.

يقول الأستاذ «هيكل» هنا:

«والشاهد أنه لابد أن يكون فى خلفية هذا الموقف ما هو أكثر من الضيق من عمليات "الهاجاناه"، ولابد أن يكون وراءه ما هو أكثر من الرغبة فى ضم الجزء المخصص للفلسطينيين فى وطنهم إلى مملكة الملك «عبد الله». وفى الواقع فإنه يمكن تمييز عدد من الأسباب:

1 - إن خطة إنشاء دولة يهودية فى فلسطين هدف بريطانى - وغربى - أصيل، والضيق من تجاوزات عناصر عسكرية صهيونية مسألة تثير الذعر، لكنها ليست كافية لتغيير الخطط. وعندما أوشك البريطانيون على الخروج من فلسطين معلنين انتهاء انتدابهم عليها، فقد كانوا مع الأمريكيين غير بعيدين عن الموقف الصهيونى فى فلسطين، وهو كحد أقصى: كل فلسطين لليهود.. وكحد أدنى: لا دولة فلسطينية بين النهر والبحر، وإنما ضم الضفة الغربية إلى إمارة شرق الأردن، وهو ما كان بالفعل قيد التنفيذ.

2 - إن التفكير الاستراتيجى البريطانى بعد الحرب كان مشغولاً بمنطق أنه إذا كان الانسحاب البريطانى ضروريًا من بعض المناطق، فالأفضل أن تترك

الإمبراطورية وراءها نزاعات محلية وإقليمية تستلزم جهد الأطراف، وربما تجعلها أشد حاجة إلى الإمبراطورية الأم، وذلك ما حدث فى شبه القارة الهندية من قبل.

ولعل الإمبراطورية البريطانية وجدت لسياستها ـ بعد انسحاب قواتها ـ فرصة نموذجية وكاملة فى الشرق الأوسط؛ فهى أمام نزاع له جذور وأسباب حقيقية وعميقة، والانتقال بالنزاع إلى درجة الصراع ـ وقد كان ذلك مؤكدًا فى كل الأحوال ـ لا يحتاج منها إلى أكثر من لمسات غير مرئية، وربما غير محسوسة، وبعدها يكون لها من طبائع الأشياء وحقائقها أكثر مما تتمنى.

3 ـ يضاف إلى ذلك أيضًا، أن بريطانيا كانت الدولة التى تعرف عن حقائق القوة لدى أطراف النزاع ـ القابل للتحول فورًا إلى صراع ـ أكثر مما يعرف غيرها.

ولعلها كانت تعرف عن أحوال الجيوش العربية أكثر مما يعرف قادة هذه الجيوش!

كذلك فقد كانت تعرف بالضبط ما لدى القوات الصهيونية، وخصوصًا أن موظفيها العموميين فى فترة الانتداب هم الذين سَمَحوا وصَرَّحُوا، كما أن عددًا من كبار ضباطها ـ وفيهم رجال من أمثال الكولونيل «أوردى وينجت» ـ دَرَّبُوا وسَلَّحُوا.

والغالب أنها كانت تقدّر أن الجيوش العربية قادرة على "سَفْح" بعض الدم اليهودى فى فلسطين، ولكن القوات الصهيونية قادرة على "سَلْخ" وطن بأكمله فيها!

ومعنى ذلك أن دولاً عربية ـ وبالتحديد مصر ـ سوف تشعر بعد التجربة بالتهديد مباشرًا عليها، وسوف تكتشف بالتجربة أنها لا تستطيع الدفاع عن نفسها، وبالتالى تتواضع فى طلب جلاء القوات البريطانية عن قناة السويس.

وهنا يفتح الأستاذ «هيكل» قوسًا ليكتب: (وشيء من ذلك كله حدث، وتحقق فيما بعد).. ويستكمل ملامح القناع الإنجليزى أكثر مع توالى الأحداث.

على أن أهم ما يمكن الوصول إليه فيما بعد، أن الإنجليز فى وقت بعينه قاموا بوقف المحاولات المصرية للحصول على الأسلحة البريطانية بأية وسيلة، فى وقت

كانت إنجلترا ترى فيه أن الوضع ملائم تمامًا لما تريد؛ فقد أصبح الجيش المصرى بعد منع الأسلحة عنه فى موضع سيئ، وهو موقف حاولت إنجلترا اهتباله تمامًا.. وهو ما يذكّرنا قبلها بدورها من قبل "سايكس بيكو" وبعدها فى هذه النكبة، ثم دورها المتعاظم فى حرب 1967 بعد الإفراج عن وثائق حرب الأيام الستة، وصولاً لطائرات "التورنيدو" المشارِكة فى قصف "ثعلب الصحراء" أخيرًا، وهو دور يجب التنبه إليه جيدًا لا الجهل به، وهو ما يعود بنا إلى تأكيد الجهل بالتاريخ (تاريخنا).. وهو جهل لم "يَكُنْ" ماضيًا فقط، وإنما حاضرٌ - الآن - أيضًا.

قناع الموضوعية

الآن نستطيع القول إن «د. ليلى عنان» أكملت الإجابة عن سؤالها الذى شُغلت به طويلاً. كان قد صدر الجزء الأول من كتاب لها حول (الحملة الفرنسية: تنوير أم تزوير)، مُرْجِئَةً الجزء الثانى - فيما يبدو - لأسباب فنية ليس لها يد فيها، وإنما هى اعتبارات خاصة بدار النشر!.. ثم لم يلبث أن صدر الجزء الثانى من هذا المجلد الضخم تحت عنوان آخر اضطرَّتْ إليه فيما يبدو: (الحملة الفرنسية..) وقد أضافت إليه عنوانًا آخر (.. فى محكمة التاريخ)(*).

الجزءان يحملان اسمًا واحدا (الحملة الفرنسية)، وفى الوقت نفسه يحملان عنوانيْن مختلفيْن لضرورة النشر وليس لطبيعة المادة التى بين أيدينا. والواقع أن الجزأيْن هما مجلد واحد ضخم، يلفت الانتباه ويثير الاحترام الشديد لهذه الباحثة الجادة التى حاولت أن تعيد دراسة الحملة الفرنسية فى مصر وسط ضباب كثيف وخداع عقل ونظر أكثرَ كثافة مما صنع أسطورة كان قَمِينًا لها أن تعيش أكثر من الحقيقة، فللأساطير - كما يقول الفرنسيون أنفسهم - حياة طويلة. ومن ثم، فقد استطاعت أن تبحر رحلتها وسط ضبابٍ كثيفٍ أسهم فى تكثيفه الغربُ نفسُهُ وقد ارتدى كثيرًا قناع الموضوعية الذى يرتديه كلما هَمَّ أن يتعامل مع قضايانا فى العالم الثالث (لا نعرف الآن أىَّ عالم أصبح و«ستورى ألين» - سكرتير هيئة نوبل - يصرّح فى خريف عام 1989 أنه لا يعرف شيئًا عن هذا العالم!)، وارتضى - الغرب - أن ترتدى الحقائق حوله قناع الأسطورة التى تحولت، فى كثير من المناطق التاريخية، إلى واقع لا سبيل إلى الاقتراب منه أو الشك فيه.

(*) انظر كتابنا (حقيقة الغرب) سابق الذكر.

ورغم طوفان المصادر والمراجع والرحلات والاعترافات.. إلخ، التى لا يستطيع مَن يتحدث عن الحملة أن يفلت منها، فينال منها بعض الرضوض، إنْ لم يكن الجروح - مما يؤثر فى الحكم الموضوعى - فإن الباحثة استطاعت أن تصل إلى موضوعها عبر مَراجع الآخر، مَراجع الخصم.. ذهبت إلى هذا القناع الغربى الذى يزعم الموضوعية العلمية واغترفت منه بشكل مباشر.. كانت مرجعياتها العلمية فى أغلبها هى المراجع الفرنسية نفسها، أى أن الرؤية المعروضة "تعرض داخل الثقافة الفرنسية نفسها، أى رؤية أصحاب الحملة أنفسهم". وعلى هذا النحو، اخترقت كثيرًا من الحُجُب والأساطير إلى رؤيتهم مباشرة، فمن يستطيع - على حد قولها - أن يرفض رؤيتهم أو يشكك فيها؟.. بَيْدَ أن المفاجأة التى لم تكن فى حسبان الباحثة بهذا القدر، أن هذا المنهج - المرجعية الغربية - هى هى التى تضع تحت قلمها سلاحًا قويًّا يشق طريقًا جديدًا يهدى إلى نتائج يصعب النَّيْل من موضوعيتها. إن الكتابات الفرنسية هى نفسها صانعة الأسطورة، وهى نفسها المدافعة عن أصحابها، وعلى هذا كان اللجوء إلى قناع الآخر هو أسهل الطرق للوصول إلى الوجه الحقيقى. والغريب فى الأمر أن الباحثة نفسها هى ابنة هذه الثقافة!

إن الباحثة - وهى تلميذة المدارس الفرنسية - بدأت حياتها العلمية هناك، وهى مؤمنة بما يقولونه من أن التنوير كان هدف الحملة ونتيجتها المؤكدة. غير أننا يجب أن نسرع هنا إلى ما يطرحه هذا القناع من سؤال "مُؤَرِّق"، وما يطرحه السؤال من تزييف وتحريف..

(1)

السؤال يمثل أهم ما يمكن أن يواجهنا فى نهايات هذا القرن الذى علت فيه الدعوة للاتفاق الثنائى و "الآفاق المشتركة". إنه سؤال الأسئلة كما يقولون.

السؤال هنا يمكن - إذا أُحسن طرحه - أن يجيب عن موقف الحملة الفرنسية أو تأثيرها المزعوم فينا، وهو يعكس - حين يُطْرَح - حيرتنا جميعًا أمام ما يُقال من تأثير الحملة الفرنسية فى تاريخ مصر، ليس إبان وجود الحملة هنا فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن العشرين الميلادى، وإنما يتصل المد - عندهم - إلى أنَّ

التأثير فاق هذا كله إلى عصر «محمد على» و«كتشنر» حتى اليوم، بل إننا لا نفتقد من أصحاب الفرانكفونية الآن مَن يتحدث عن تأثير الحملة فينا بعد زهاء قرنيْن من الزمان.

ولكن.. ما هو السؤال؟

السؤال هو: هل صحيح ما يقوله الفرنسيون من أن تلك الحملة الاستعمارية حولت مصر من حال إلى حال، وأن مشروعها كان حضاريًّا ساهمت فيه القوات التى آمنت بمبادئ 1789، خاصةً مبدأ الحرية، فكان مشروعها وكأنه هَبَّةٌ للشعب المصرى؟ هل حقًّا فتحت الحملة لمصر أبواب الحضارة والعلم والتحديث، فى عصر لم يكن لها فيها مَخرج آخر غير هذه الأبواب..إلخ؟

من هنا انطلقت الباحثة تحاول أن تجيب عن السؤال.

حاولت أن تجيب عن السؤال فى مساحة شاسعة من المصادر والمراجع، وعبر جزأيْها اللذيْن اقتربا من عشرة فصول انتقلت من خلالها إلى مرجعيات متباينة وعديدة.. بل إنها لم تكتفِ بالمراجع الفرنسية فقط، وإنما توقفت عند عديد من المراجع العربية والمترجَمة، وإن كانت قليلة ومعاصرة، أو قريبة من الحدث.

وهو ما نتعرف عليه أكثر خلال الإشارة إلى فصولها التى تؤكد هذا وتشير إليه فى الوقت الذى تعرض فيه لعديد من القضايا:

- الحملة فى تاريخ الثورة.
- «نابليون بونابرت».. الجنرال والإمبراطور.
- أسس أسطورة الحملة و«نابليون».
- الأسطورة عند الأدباء.
- الأسطورة عند المؤرخين.

ثم..

- شاهد من أهلها المعاصرين.

- ما بعد الحملة.

- المؤرخون الجدد..

حتى وصلت إلى آخر فصولها وأهمها على الإطلاق، وهو:

- الموضوعية العلمية فى الغرب.

إننا فى الوقت الذى توقفنا فيه طويلاً عند «شاتوبريان» و«فيفان دينون» و«فرانسوا برنواييه» و«جوستاف فلوبير» و«روبير مانتران» و«جوزيف مواريى» و«كليبر»، حتى المؤرخون الجدد فى فرنسا كـ «فرانسوا فورييه» و«جويل بريجون».. إلخ، نتوقف أيضًا عند الشيخ «الجبرتى». ويظل على المصادر الفرنسية أن تظل شاهدة دائمًا من بين أهلها. وكى لا نسقط فى أسْر التكرار، فسوف نصل بسرعة إلى أهم فصول مجلدها، وهو الفصل الأخير الذى وُضع له عنوان (الموضوعية العلمية فى الغرب)..

وهى موضوعية - كما تؤكد لنا "كل" فصول الكتاب - لا تمثل غير قناع رقيق يكشف وراءه عن وجه قبيح لم تستطع أن تخفيه الأسطورة أو التخفى وراء عصر الثورة أو أمجاد الإمبراطورية أو تهاويم العديد من الكُتّاب الغربيين الفرنسيين وصولاً إلى التبرير السخيف.. وهو ما يصل بنا إلى أهم فصول الكتاب.

(2)

نستطيع أن نرى قناع هذه الموضوعية المزعومة بشكل أوضح فى كل فصول الكتاب، غير أن هذا الخط يتحول إلى خط رأسى حين نتمهل أكثر عند هذا العنوان فى النهاية.

إننا أمام عدد كبير من المؤرخين والكاتبين الذين لا يعرفون هذه "الموضوعية"، ولا يحاولون حتى أن يرتدوا قناعها؛ لأن الأسطورة - فضلاً عن أنها تعيش أكثر من غيرها - فهى لا تستطيع أن تنزع إطار المعاصرة أو العنصرية، فكلتاهما داء لم تستطع الحكومات العربية وأكثرها رقيًا أن تتخلص منه.

وهنا تظهر المفارقة: أننا أمام عدد كبير من المفكرين، أكثرهم من المعاصرين، يسعون إلى كتابة التاريخ الفرنسى النابليونى - أو "الإمبراطورى" - دون الالتزام بهذه الموضوعية. وقد شهدت فرنسا فى بدايات القرن الحالى - الحادى والعشرين - صدور ما يقرب من عشرة كتب تَحَدَّدَ موضوعُها حول الحملة الفرنسية على مصر والويلات التى تركتها فى روع الأهالى والخراب الذى خلفته. ومع ذلك، فإن أيًّا من هذه الكتب استطاع أن يَخْلُص - حتى - باسم الموضوعية من بعض هذه الأوهام.. أوهام التاريخ، أو "أوهام المسرح" بتعبير «بيكون».

إن كل ما صدر - باستثناء كتاب «أندريه ريمون» - عن المصريين والفرنسيين أثناء الحملة، لم يستطع أن يَخْلُص من وهم الموضوعية أو قناعها المزيف.

وتُدَلِّل «د. ليلى عنان» على هذا بالمؤرخ «جان تولار»، وهو أهم المؤرخين الذين تحدثوا عن الحملة على إسبانيا.. لكنه، طيلة الكتاب، لم يستطع أن يَخْلُص من وهم الأسطورة الذى خيم عليه، ولم يستطع أن يرى - بالمقارنة - أن الشعب المصرى، كنظيره الإسبانى، استطاع المقاومة رغم هذا.. وكأن التاريخ يعيد نفسه - على حد قول «د. ليلى»!

وحين يُهْزَم الإسبان، يعزو «تولار» الهزيمة إلى الظروف الطبيعية، وصعوبات التموين فى بلد فقير لم يكن يستطيع حتى أن يغذى شعبًا متطرفًا أَلْهَبَتْهُ الدعاية الدينية المعادية للأجانب، ضد الفِرَق المنعزلة أو القوافل. كلام - وهنا تعود الباحثة إلى التعليق - يذكّرنا بالاتهامات المستمرة التى كانت تعزو مقاومة المصريين إلى تطرفهم الدينى ضد "الكَفَرَة" فقط. كما يذكّرنا الحديث عن سوء الأحوال الاقتصادية بما حدث فى مصر بالضبط. وتلاحظ الباحثة أن «نابليون» نفسه يذكر فى "سانت هيلانة" أنه لولا هزيمته أمام عكا، لكانت الحال غير الحال.. إلا أنه لم يَقُلْ يومها "هزيمته فى مصر"، وبالتالى فإن أحدًا لم يذكر أن أولى هزائمه كانت فى مصر.

وتلاحظ الباحثة كذلك هنا، أنه على الرغم من أن «تولار» نفسه قد سمى المقاومة ضد «نابليون» وأعنفها فى نصرة المقاومة الروسية «الحرب القومية، وهى

التى تختلط فيها الوطنية بالتطرف الدينى، وتُلْقِى بشعب كامل ضد المعتدى»، إلا أن «تولار» مع ذلك لم يدرج المقاومة المصرية بين مقاومات الشعوب المحتلة، مع أنه أثناء حديثه عن الحملة فى إسبانيا مثلاً، يستعمل تعبيرات تُطلَق تمامًا على ما حدث للحملة فى مصر، فهو يقول مثلاً: «التدخل [فى إسبانيا] وليد مبادرة من «نابليون» نفسه، حتى إنْ كان «تاليران» و«مورا» قد شجعاه بصورة ما. كان هناك هذا الخطأ الأول: كتابات الرحالة وتقارير الدبلوماسيين الذين جعلوه يظن أنه سيكون المنقذ الذى جاء ليحيى إسبانيا المتهالكة.. فمن ذا الذى يجهل أن «تاليران» هو الذى تَقَدَّمَ مع «بونابرت» بمشروع غزو مصر، مؤكدًا أن الشعب المصرى سيستقبل «نابليون» بالأحضان، وأن مصر ستستعيد أمجادها السابقة على أيدى الفرنسيين؟.. إلى غير ذلك».

وعلى هذا نجد أمثلة كثيرة ترتدى هذا القناع يوردها «دو فريس» و«ريمون آرون». على أننا نصل بسرعة إلى العبارة التى تتكرر هنا أكثر من مرة، وهى عبارة الفيلسوف «حنا آرندت» التى يقول فيها، وبما لا يخلو من دلالة، إن «ما يسمى بالموضوعية ـ ذلك الغرام الغريب بالأمانة الثقافية المطلقة وبأى ثمن ـ غير معروف خارج الحضارة الغربية» [جاء هذا فى كتابه (أزمة الثقافة) الذى نُشر عام 1972، ص 235]. ثم نصل من هذا كله إلى فكرة الموضوعية (موضوعية العلم أو موضوعية التاريخ)، فتحاول الباحثة هنا تفصيلها بالعَوْد إلى جذرها الأول. وهنا تتداعى إلينا أشكال كثيرة لافتقاد الموضوعية، مما يكمل دائرة هذا القناع الخادع.

ويمتد هذا القناع أكثر، وتتثبت أطرافه. وهو ما نتمهل عنده هنا أيضًا.

(3)

إن قناع الموضوعية العلمية يمتد إلى مساحات بعيدة.

إن الموضوعية لا يُعتمد عليها ـ عمدًا ـ ولا يُؤْخَذ بها، فى حين يصدّعون رؤوسنا فى الغرب ليلَ نهارَ بهذه الموضوعية المزعومة. فهل هى الموضوعية التى يَعْنُونَها فى الغرب حقًا؟

وتضرب «د. ليلى» أمثلة نحاول تلخيصها هنا على قدر الإمكان.. فمصر جغرافيًا مثلاً تقع فى إفريقيا، ولكن البعض ينظر إليها على أنها جزء من أوروبا، لأنهم أرادوا لها ثقافة هى الثقافة الأوروبية.. فالشيء يُخْلَف إذا تدخل الفكر فى النظر إلى أموره. وإذا كانت الأمور تاريخية، فمن الطبيعى أن يختلف فكر المؤرخ عن فكر زميليْه فى الدراسة، ويجوز لمؤرخيْن أن يحكما على الأشياء من منظوريْن مختلفيْن. وإلى جانب اختلاف الفكر، نجد عنصرًا آخر هو المصلحة التى تنال من هذه الموضوعية العلمية، كما رأينا فى أحكام الآخرين على الحملة الفرنسية وأثرها فى مصر. ورغم أننا نستطيع أن نَلْغُو أكثر فى المصطلحات والتعريفات التى تُبعد بيننا وبين هذه الموضوعية، فإن «د. ليلى عنان» تلاحظ مقولة المؤرخ «فيليب» فتنقلها على خطورتها، يقول: «إن التاريخ العلمى ضعيفٌ إذا ما قورن بالتاريخ الأسطورى، فالأساطير لها فعالية قوية لأنها تخاطب الخيال..»!

ها نحن نعود إلى تأثير الأسطورة فى الموضوعية، فمَن يملك القدرة هناك على تفنيد أساطير «نابليون» ودعاوى مريديه، وخلفائه ومخدوعيه؟.. وهنا نستطيع أن نذكر عددًا كبيرًا من المؤرخين الذين يجعلون من خيالاتهم حقائق تاريخية، أو الذين يجعلون من رغباتهم حقائق تاريخية.

ولا نستطيع هنا أن نذكر كيف يُفَنَّن فى وضع قناع الموضوعية على هذه الأساطير التى تبدأ فى الغالب من الكتب المدرسية نفسها، فمعرفتنا بالتاريخ «تبدأ من المدرسة، ومؤلفو الكتب المدرسية هم طبعًا المتخصصون الذين سرعان ما تُنْسَى أسماؤهم، ولكن دروسهم تُغْرَس فى ذاكرة الأطفال إلى الأبد».

نستطيع أن نذكر «مارك فيرور» مثالاً لمَن درس هذا، إذ يشير إلى ظاهرة خطيرة، وهى أن التاريخ الأوروبى لا يهتم بالبلدان إلا إذا دخلت فى نطاق الاهتمام الأوروبى، «فكان الغرب يَعتبر أن الشعوب التى لم تمتزج بالحضارة الغربية لا تاريخ لها، ولا يُدْخِلُها فى سرده إلا عند اكتشاف الأوروبيين لها»!

وهو ما يَلفت نظرنا هنا إلى نظرة التاريخ الفرنسى - خاصةً - لنا، فتاريخ هذا العالَم لا يعد تاريخًا إلا عندما يلتقى بتاريخنا، وهناك - إلى جانب هذا كله - تأثير

شرعية السلطات والتساؤلات على العقول، فالدول المُسَيَّرَة (عند «فيرو») كالدول والكنائس والأحزاب السياسية.. والمصالح هى التى تمتلك أو تسيطر بطريقة ما.

إن «حنا آرندت» لا يرى "الموضوعية الغربية" قَطُّ إلا فى الغرب، أما «فرانسوا فوريه» فهو أصدق منه حين يؤكد «أن كتابة التاريخ لم تكن بريئة يومًا ما»!

نستطيع أن نضيف إلى هذا طريقة تدريس التاريخ وطريقة تربية المواطن الغربى على أن "أجداده الغال" هم الذين يحكمون العالم كله.. كما تؤدى السينما والتلفزيون دورًا خطيرًا؛ فهذا الرجل الأبيض الشمالى "الغربى" لا يوجد مَن يقدر سواه على حل المشكلات والانتصار على أعدائه!

إننا اليوم نمتلك أسلحة أكثر من الأساطير النابليونية.. إنها الأساطير التى تُصنع الآن بطرق حديثة وآلات ذكية وآليات اقتصادية خطيرة.

إن ما يحدث اليوم لا يُقاس بما كان يحدث، والأمر الخطير فيه أنه يُستخدم - أيضًا - من أجْل لَيّ رقبة الحقيقة وتزييفها، وهو الأخطر اليوم.

على أن ذلك يظل يطوى استطرادًا أخيرًا..

(4)

فكما يلاحَظ أن صورة الأمريكى الطيب - أو "البطل" - أصبحت الآن فى حكم الأساطير المزيفة، رغم كل ما يفعله عصر "العولمة" من إرساء أساليب أخرى أخطر، كذلك فإن الحروب الصليبية الآن أصبحت من الأساطير المزيفة، وأصبحت تقدَّم لها "الاعتذارات" فى العواصم الكبرى، ويؤكَّد على انحرافها فى عديد من الكتابات، وهو ما حدث حين جاء جيل جديد فى فرنسا (المؤرخون الجدد) لينزع قناع الموضوعية العلمية المزيفة من وجه الغرب، وهو وجه قبيح كذلك.

ولا يجب أن نترك هذا كله دون أن نذكر فقرة هامة توردها «د. ليلى عنان» فى نهاية هذا العمل حين تقول:

«أصبح الحديث عن «نابليون» يعترف - دون أدنى شك - بأن الأسطورة كانت

كاذبة. والدليل مثلاً، اكتشاف أن سجن الباستيل عندما اقتُحم فى الرابع عشر من يوليو سنة 1789م لم يكن به سوى خمسة سجناء.. فى حين كان عدد السجناء الذين خلفهم «نابليون» عندما انهار حكمه فى عام 1814 خمسة وعشرين ألفًا!»..

أصبح هذا الكلام من المُسَلَّمَات، حتى جاء فى جريدة "لوموند" فى 9 من مايو عام 1997م خبرٌ يُعلن عن مزاد طُرحت فيه خطابات للإمبراطور الشهير فى باريس. يقول الخبر: إن ما بها يكشف جوانب مَخْفِيَّة عن شخصية «نابليون».. أو "كانت الأسطورة قد أخفتها بعناية فائقة".

وكان الأحرى أن يُقال إن أسطورة «نابليون» وحملته على مصر قد كُشفت تمامًا، حتى لو كان قد نجح فى تأكيدها الكثيرون باسم الموضوعية العلمية.

(ب)

أقنعة لا أخلاقية

قناع «مكيافيللى»

(فى حوار مع أركان أكبر مرتكب لمجازر مسلمى البوسنة بعد «كاراديتش».. سألته صحفية تعمل فى جريدة "الايفننج ستاندارد":

ـ ماذا عن اعتبارك "مجرم حرب" من قِبَل الأمريكيين؟

فقال وهو يطلق "شَخْرَة" عالية:

ـ هل تستطيع الدولة التى قصفت ناجازاكى وهيروشيما أن تدعونى "مجرم حرب"؟!).

إنه قناع جديد..

ولنبدأ القصة من أولها:

يوم صدور كتاب الأستاذ «محمد حسنين هيكل» (المقالات اليابانية) وما تَضَمَّنَهُ أحد أهم فصوله عن العلاقات بين السياسة والأخلاق، كان الرئيس «مبارك» يشير أمام وكالات الأنباء إلى قضية أخلاقية حول مسئولية الاعتداء على مسئول المكتب السياسى لمنظمة حماس بالعاصمة الأردنية، فوصف الحادث بأنه "عمل غير أخلاقى". وكان السؤال الذى يعرفه الجميع: من هو صاحب هذا العمل غير الأخلاقى، ومَن وراء الضغوط التى تمارَس علينا فى الفترة الأخيرة؟

وقد يكون من المفيد قبل أن نعود إلى كتاب الأستاذ، أن نشير إلى أنه عشية محاولة اغتيال «خالد مشعل» بمواد كيماوية من عناصر الموساد، التزم الإعلام الأمريكى بالصمت، وراحت تعليقات الصحف العربية تلاحظ أن القانون الدولى غاب فى إجازة طويلة، وراحت منظمات حقوق الإنسان العالمية والغربية تنام فى

سُبات عميق، وراحت الولايات المتحدة الأمريكية فى صمت دال، فلم تنطق بكلمة واحدة عندما استُخدمت مواد كيماوية محرمة دوليًا فى محاولة اغتيال ممثل حماس فى عاصمة عربية حليفة وقّعت معاهدة سلام مع إسرائيل، وأيدت المناورات التركية الإسرائيلية فى البحر المتوسط بافتتاح مكتب للمخابرات الإسرائيلية ومكتب التحقيقات الفيدرالى الأمريكى (إف. بى. آى) فيها للتجسس على دول عربية وحركات إسلامية!

فما هى علاقة اغتيال عَمّان بـ «أرسطو» و«مكيافيللى»؟!

وما هى علاقة الأستاذ بما يجرى الآن فى العالم حولنا؟

إنها - وهى الإجابة الوحيدة كما سنرى - العلاقة بين السياسة والأخلاق، وبشكل أكثر وضوحًا: هى الحقيقة المؤكدة - بوجه خاص - فى علاقات الولايات المتحدة الأمريكية بالعالم العربى.

وقبل الإسهاب فى هذه الحقيقة - وقد أصبحت بدهية - يجدر بنا العَوْد إلى كتاب الأستاذ من جديد..

والعودة ترتبط بموضوعنا ولا تبتعد عنه.

(1)

وقبل أن نصل إلى هذه العلاقة بين الأخلاق والسياسة، وقد أصبحت سيئة السمعة فى بلاد "العم سام"، لابد من الإشارة - بسرعة - إلى هذا الكتاب.

من مقدمة الكتاب نفهم أن الأستاذ آثر أن يغيّر مجال كتاباته من أوروبا إلى شرق آسيا، وذلك حين تَلَقّى اتصالاً من جريدة "يوميورى شيمبسون" ووكالة "لوس أنجيليس تيمس" تعرضان عليه أن يشارك بالكتابة فى الصحف اليابانية، ومن ثم تتغير - مع هذه المشاركة - محاولة التعبير عن أفكار كانت ترتبط بالضرورة باللغة التى تُكتب بها.. ومن هنا فقد كتب مقالاتٍ كثيرة، خرج منها أخيرًا بهذه المقالات التى اختار منها ما يعيد ترجمته ونشره بالعربية.

والمقالات تُطَوِّف بنا إلى آفاق بعيدة، حاول فيها أن يحادث العالم الذى يكتب له

أو أن يصل إليه، غير أنه فى نهاية الأمر خضع للقاعدة التى تقول إن الأسلوب هو الرجل، والأسلوب هنا هو التكوين البشرى الذى يجعل من التعبير أداة فاعلة تعبّر عن المعنى ولا تنفصل عنه. ومن هنا، لم نجد اختلافًا كبيرًا بين ما يكتبه «هيكل» باليابانى، وما يكتبه بالأمريكى، وما يكتبه بالعربى، وإنْ زعم لنا فى هذا الكتاب أو غيره أن ثمة اختلافًا كبيرًا بين كل فكرة وفكرة حسب الطبوغرافيا التى تحكم النشر أو التى تَدفع إليه.

إنه يتوقف بنا عند القضايا الأثيرة لديه، حيث يستحوذ المجال العربى على الكادر الخلفى له، وحيث يمضى فى الكادر الأمامى ليتحدث عن قضايا عربية عديدة، كالفرص الضائعة فى الجزائر الدامية، وموسكو الحائرة، واليابان الهاربة من دورها، متوقفًا عند أكثر القضايا التى تثير فيه - وفينا - شجونًا شتى، ونقصد بها قضية القبائل.. هذه القبائل التى نجدها فى مناطق كثيرة فى عالمنا العربى اليوم، منذ أزمان بعيدة، والتى تؤدى دورًا كبيرًا فى مناطق كثيرة منه نيابةً عن الآخرين!.. فإذا تركنا القبائل العربية - وهو موضع ذو شجون (يحتاج العودة إليه مرة ومرات) - لعدنا إلى القضية التى تمثل محورًا رئيسيًّا فى كتابات الأستاذ، وإن تَخَفَّتْ فى أثواب كثيرة، وأقصد بها العلاقة بين السياسة والأخلاق.

(2)

إنها القضية التى تمهل الأستاذ عندها فى مقالة بعنوان (عن «أرسطو» و«مكيافيللى».. و«كارلوس»)، حيث حاول أن يوضح منذ البداية أنه قديمًا حاول «أرسطو» أن يقيم جسرًا بين الأخلاق والسياسة، أما حديثا فحاول «مكيافيللى» أن يزيل هذا الجسر بين الأخلاق والسياسة. ومع أن عديدًا من الأنظمة رأت أن مسألة التوفيق - أو التلفيق - لم تعد ضرورية، فإنه تبرز أمامنا حقيقة هامة، يقولها الأستاذ وهو يضع نصب عينيه هذه القوى الغربية التى تحاول خداعنا واستعمارنا بشكل واضح وسافر، وقد عبّر عن هذا بوضوح أكثر حين قال بالحرف: «تستطيع السياسة الآن أن تستغنى عن الأخلاق بالكامل»!

وبعد أن يسهب لتأكيد هذا فى مَثَلَيْن، تَمَثل أحدهما فى قضية القبض على «كارلوس»، والآخر فى خداع شاه إيران، يفرغ أكثر إلى أمثلة عديدة تكون أكثر تعبيرًا عن حل هذا التشابك الخادع بين السياسة والأخلاق، وتحديدًا لدى "العم سام". .

إن الأستاذ يقدم إضافات هامة هنا لسقوط قناع الأخلاق أو إزاحته عن عمد، واللعب على وتر السياسة بسفور ووقاحة لم يعد لهما أى نظير فى العالم المعاصر. إن إحدى هذه الإضافات تتمثل فى مأساة آلاف الكوبيين الذين ركبوا البحر قاصدين الولايات المتحدة الأمريكية، مستجيبين إلى الإلحاح الأمريكى بالخروج من "جحيم كاسترو".. ومع ذلك، خذلتهم البحرية الأمريكية وخيبت أملهم فى التوجه إلى فردوس وُعِدُوا به، فوجدوا أنفسهم أقرب إلى قاعدة أمريكية منها إلى أى مكان آخر!.. وليس مهمًا «أن يَخِيب أمل هؤلاء الكوبيين الباحثين عن الفردوس، وليس يُهم أن يغرقوا، ولا إعادتهم بالقوة إلى الشواطئ التى هربوا منها، كما أنه لا يهمهم أن يكتشفوا أن جريمتهم الكبرى هى تصديق وعد سياسى لم تكن له فى البداية أو فى النهاية علاقة بالأخلاق»!

إن ما يحكم المنطق الأمريكى هنا، بوضوح شديد، هى الغاية المكيافيللية.. وأمامنا عشرات، وربما مئات الأمثلة، لهذه الغاية التى تحكم الولايات المتحدة الآن، سواء أكانت هذه الغاية تعود إلى خطط الـ "سى. آى. إيه"، أو الكونجرس بمجلسيْه، أو الرئيس، أو - حتى - رجال الأعمال من صانعى السلاح والمتاجرين به والمستفيدين منه فى هذا اللوبى الخطير الذى تتحالف عنده أطراف شتى.. تحركه، أو تتعامل معه، القُوَى الصهيونية فى الغرب الأمريكى.

لم يعد يهم الولايات المتحدة الأمريكية هذه السنوات الطويلة التى روجت فيها قضية "اليوتوبيا" الأمريكية إلى العالم، وهذه الجنة الموعودة، بالأحلام والملاذ الأخير. ليس مهمًا أن تنتهى دعاوى "العم سام" التى رَوَّجَ منذ أوائل القرن العشرين إلى أن سياسته قد بُنيت على الأخلاق والتعاون بين البشر وعصبة الأمم،

أو تنتهى دعاوى "العم سام" - منذ عقديْن من الزمان - بأن الولايات المتحدة قد بنت سياستها الخارجية على أساس العوامل الأخلاقية: بالعداء للإرهاب، ومساندة حقوق الإنسان. ليس مهمًا هذا أو ذاك، إنما المهم هو أن تتحقق سياستها القائمة على السيطرة على الحضارات الأخرى، أو على الأقطار الأخرى خارج النظام الأمريكى الجديد، أو الهيمنة على حاضر العالم ببدعة أننا نعيش (نهاية التاريخ) الذى أصبح أمريكيًا خالصًا!

ونستطيع أن نذكر أمثلة وإضافات كثيرة داخل هذه المقالات وخارجها، غير أننا سنكتفى بإضافتين اثنتين اهتم الأستاذ بالإشارة إليهما، قبل أن نصل إلى ما يثيره كل هذا من دلالة العلاقة بين السياسة والأخلاق.

(3)

الإشارة الهامة هنا واضحة جلية..

إن البلد الذى أعطى لنفسه حق سلطة صنع السلام فى الشرق الأوسط، هو فى الوقت نفسه أكبر بائع سلاح للأنظمة الحاكمة فيه، وفى حدود 50 بليون دولار سنويًا، أو ربما أكثر.. هذا مع العلم بأن المنطقة ليست مهددة بعدوان من خارجها، كما أن أحدًا فى المنطقة لا يملك هذه اللحظة إمكانية لتهديد جيرانه، وبالتالى فإن صفقات الأسلحة كلها إما أن تكون إهدارًا لموارد، أو تكون تخويفًا لمواطنين فى الداخل. وهو عدوان مزدوج على حقوق الإنسان.. اقتصادى مرة، واجتماعى فى مرة ثانية.

نسمع هذا الكلام ونحن نضع فى اعتبارنا ما حدث من تفاصيل مؤلمة فى حرب الخليج الثانية فى العالم العربى، وما جرى أثناء استمرارها من تغيير لكثير من القَناعات والقيم التى كنا ننافح من أجلها كثيرًا، سواء فى الحديث عن الأرض التى احتُلت عقب حرب 1967م ومناداة الصهاينة بالكف عن الحديث عن الأرض للإسهاب فى الحديث عن الأمن (الإسرائيلى بالطبع)، أو غياب "القضية" الفلسطينية تحت ظلالات مدريد وأوسلو فى الأشجار الخلفية لحديقة البيت

الأبيض، أو ترديد ـ كما نسمع ونَعْجَب أخيرًا ـ قضايا وهمية كثيرة عن الأقليات المغبونة، وحقوق الإنسان، وقضايا داخلية بحتة كقضية الختان.. وما إلى ذلك.

وهو ما يؤكد أن «مكيافيللى» غَيَّرَ جنسيته منذ زمن بعيد، فأصبح أمريكيًّا خالصًا، ثم إن حديث وزير التجارة الأمريكى «براون» ـ فى إضافة أخرى ـ وقد كان فى بكين فى أوائل شهر أغسطس من عام 1994م يسعى للحصول على عقود تجارية تضع قدم الولايات المتحدة فى هذا البلد الذى ينمو بسرعة فائقة. وقد سُئل «براون» عما إذا كانت مهمته تتعارض مع سياسة الولايات المتحدة منذ حادث "تيان إن منه"، وما ثار بعده من اتهام ومقاطعة وتشهير بالصين بناءً على دعوى حقوق الإنسان، فكان رده: «إننى فى الصين لأوقّع اتفاقيات، وليس لأردّد قصائد شعر»!

ولا ينسى الأستاذ «هيكل» أن يذكّرنا فى إشارة أكثر وعيًا بأن «أرسطو» رجل له ماضيه الفلسفى، أما «مكيافيللى» فرجل له مستقبله السياسى.

وتتوالى مقالات الأستاذ، ولا تخرج عن التنبيه إلى حركة «مكيافيللى» وقد أصبح أمريكيًّا، أو أصبح أمريكيًّا يسعى لتوطيد مستقبله السياسى فى المنطقة.

ويجب الإسراع هنا بقول إن ما يحاوله الأمريكى الوقح، سوف يوقعه فى نفس الخطإ الدرامى الذى نعرفه من الدراما الإغريقية: أن السقوط سيأتى من الداخل، من غياب الأخلاق! (نشر «إدوارد سعيد» منذ أيام مقالة هامة فى إحدى الصحف العربية يتحدث فيها عن تأثير منظومة الأخلاق فى انهيار الغرب المستعمر، وفى الوقت نفسه، إذا أحسنا استخدام هذا العامل الإيجابى فى حركتنا ضده)..

صحيح أن رصد المناخ العالمى الآن يشير إلى تصاعد نجوم أخرى كثيرة، فهناك البيان الختامى لقمة المجلس الأوروبى فى ستراسبورج أخيرًا، وقبله البيان الروسى الصينى المشترك، وبعده التحدى الفرنسى لعديد من القوانين الأمريكية وسقوطها، كقانون "داماتيون"، وآخرها اتجاه مجموعة دول الآسيان ـ ومعها اليابان ـ إلى تكوين صندوق نقد دولى جديد IMF خاص بهذه المجموعة (وهو ما يحتاج إلى

موضع آخر) ليؤدى دورًا مضادًّا لـ «مكيافيللى الجديد».. إلى غير ذلك عقب اكتشاف السياسة الأمريكية، وفى تهاوى عملة تايلاند، وانخفاض عملة ماليزيا... إلخ.

فى الجزء الثالث من المجلد الثالث فى كتابه (قصة الحضارة)، يقول «ديورانت» (وقد سبقه «جيبون» فى هذا) إن سقوط الإمبراطورية الرومانية كان بسبب التحلل الأخلاقى. ويُسَوِّد المؤرخ الإنجليزى صفحات كثيرة عن صور الفساد الأخلاقى والانحطاط اللذيْن لازَمَا سقوط روما.

إن «ديورانت» لم يتحدث عن «مكيافيللى الإيطالى» فقط، وإنما عن «مكيافيللى الأمريكى» حين يسعى إلى تغليب السياسة على الأخلاق، فيسعى إلى النهاية.. نهايته!

قناع الهزيمة
1967 . 1997م

(1)

كان قد مضى ثلاثون عامًا على هزيمة يونيو. وهى مناسبة ذكرتُ فيها عبارة قالها «عبد الرحمن مُنيف» فى تقديم إحدى رواياته، ذكرتُ النصف الأول منها، وغاب عنى النصف الأخير.

جاء فى هذا التقديم: **«إلى خيبات مضت»!**

ومع مضىّ الهزيمة التى عرفناها وخيباتها، رحتُ أستعيد بعض الصور بعدها:

فلا تزال "زهرة المدائن" أسيرة العنجهية الصهيونية التى وصلت إلى أقصاها بمستوطنة جبل «أبى غنيم»، هذا على حين لا تزال المؤتمرات التى تحلم بسلام القدس تُعقد وتتوالى!

وما زال الشيخ «طنطاوى» يهدد من يدنس ثالث الحرميْن الشريفيْن بفريضة الجهاد. وما زال عديد من علماء الدين غاضبين. وما زال «البابا شنودة» يتحدث عن تحرير القدس، مرددًا عبارة "الجهاد" مع إخوانه المسلمين، بل إنه فى إحدى المرات راح يدعو إلى أن يكون التحرير بـ «الدم».. هكذا!

غير أن الحصاد لم يصل إلى "استراتيجية عربية أو إسلامية" لإنقاذ عروس مدينتنا التى "تصرخ لاغتصابها دون جدوى" على حد تعبير «سعدى يوسف».

وما زال المثقفون لدينا هم هم لم يتغيروا، تعددت ألوانهم بين المؤيِّد والمتردد والصامت.. إلخ. غير أن الجديد فى هذه الحقبة منذ عام 1967 حتى الآن، ظهور نمط جديد من المثقفين يمكن أن يسمى بـ "مثقف التطبيع".. هذا المثقف يتحدث بحرارة عن "التحالف الشعبى" بين عرب وإسرائيليين، ويسخر بحرارة ممن ينتمون إلى عصور ترفض السلام مع عدو يغتصب الأرض والعِرض ويطالب بالحوار.

أى حوار؟!

تقول كاتبة عربية:

«لم تبرد دماء قتلى قانا بعدُ ولا مذبحة الخليل - بصفتهما آخر المذابح - وعلىَّ أن أحاور إسرائيليًّا متعجرفًا يؤيد المستوطنات داخل الأراضى المحتلة، ولا يعترف بعودة الجولان أو جنوب لبنان إلى أهاليه!». منذ هزيمة الستينات، لم تنقطع الهزائم وكأننا لم نتعلم شيئًا، وكأننا لم نتعرف على تطور العالم من الحرب الباردة إلى القطب الواحد إلى العالمية إلى الكوكبية.. إلخ.

وما زالت "سُبْحَة الهزائم" تتوالى حَبّاتُها.. فبعد حرب الاستنزاف وانتصار أكتوبر، بدأت دراما السبعينات:

- فك الاشتباك.
- زيارة القدس.
- كامب ديفيد.
- حروب الاستنزاف العربية.
- الحرب الإيرانية العراقية.
- الحرب الأهلية الدامية فى بيروت.
- زلزال الخليج الذى دمر مقدرات بغداد وأعادها إلى الزمن الحجرى.

وتوالت هزائم التسعينات من مدريد إلى أوسلو إلى الحديقة الخلفية للبيت الأبيض إلى الخليل إلى كوبنهاجن.. إلخ.

ولم تتوقف الهزائم عند الحدود العسكرية، وإنما وصلت إلى ميدان الأعمال؛ إذ نشأ تحالف بين رجال الأعمال وبعض المثقفين (ظهر جليًّا فى كوبنهاجن)، فأصبح رجال الأعمال المثقفون "عملاء" للغرب، وخاصة أن بعض فرسان "كوبنهاجن" - كـ «إبراهيم كامل» - يشترى حصة فى إحدى الشركات الاقتصادية الكبرى!.. ونعتمد فى حياتنا الإعلامية على شبكة أمريكية مثل "سى. إن. إن" إلى درجة أن نقرأ فى إحدى الدراسات الأمريكية أنها خلال أزمة الخليج كانت توالى الكتابات ضدنا. ولنأخذ هنا - كمثال - حالة كاتب أمريكى شهير هو «أ. روزنتال» الذى تعكس أعمدته حول الشرق الأوسط فى "النيويورك تايمز" رؤية سياسية أقرب ما تكون للرؤية السياسية لـ «أرييل شارون».

وأصبح تشفير المعلومات يُلْقَى فى ساقية الإعلام الغربى المتقدم، فى حين لا نملك من حطام "المعلوماتية" فى عالمنا العربى ما يقينا هزائم إعلامية غربية كاسحة تعمل فى إعلامنا وتعليمنا، وكذلك فى عالم الاقتصاد والرى والمراكز التعليمية.. إلخ.

ومع هذا فلا نزال أسرى هذه الفترة..

إذ أطلقنا فى وقتها - توصيفًا لما حدث - كلمة "نكسة"، فى حين أن ما جرى كان "هزيمة" بكل المقاييس. رَدَّدْنا "نكسة" عن علم، وأغفلنا "هزيمة" عن يقين. لقد كان يُراد من هذا أن يخفف من هول الواقع. كان يُراد إفهامنا أن ما حدث "نكسة" لا تزيد عن عارض سرعان ما يزول، وهو المعنى الذى غُذِّيَ به الوجدان العربى حينَ ذاكَ، على حين أن "النكسة" فى اللغة (كما نعرف من المعجم الوسيط - جـ 2) هى العَجْز، و"انتكس الشىء: أى انقلب". فى حين أن "الهزيمة" التى حاولوا أن يخفوها عنا أو يخففوها، حتى بعد أن وقعت، كانت أفدح من النكسة؛ فالهزيمة - فى المعجم - كانت أفدح من هذا!

ولنتمهل أكثر عند بعض المفردات:

إن "هَزَم العدوَّ" تعنى "كَسَر شوكتَه وانتصر عليه" بلا أكثر من ذلك. و"هَزَمَ الشيءَ" يعنى "كَسَرَه وشَقَّقَه".. فهل ما حدث لنا يؤدى هذا المعنى الأخير، أمْ هو حادث عارض سرعان ما تجاوزناه؟!

وبَيْنَا أحاول الإجابة عن هذا السؤال، تذكرتُ العبارة الناقصة لـ «عبد الرحمن منيف»، فقد كان يُهدى روايته إلى «خيبات مضت»، وإلى - كما جاء بالنص - «خيبات أخرى قادمة»!

وهو مصير نستطيع الإفلات منه إذا انتبهنا لما يُراد بنا حتى بعد ثلاثين عامًا.

وهل نستطيع الإفلات؟

سؤال لا نعرف إجابته بعد!

(2)

أسئلة الهزيمة

وهل هى مصادفة أن تتزامن مع ذكرى هزيمة يونيو الآن، ضجة من نوع آخر تتحدث عن بيع الفلسطينيين لأراضيهم؟!

وتعلو الضجة أكثر مع قتل بعض سماسرة البيع، وتصل الدراما إلى أقصاها لتتحدث عن بيع زعماء وأُسَر فلسطينية لأراضيهم قبل نصف قرن. والقضية بالمعنى الهزلى أن نتحدث عن "بيعٍ" فى الماضى الغابر، ونغفل - أو نتغافل - عن "بيعٍ" فى الحاضر المعاصر. الصور تتغير، لكن لماذا يظل المعنى واحدًا.. فإذا كان البيع لم يحدث فى عام 1967، فماذا نسمى ما يحدث اليوم؟.. ما يحدث الآن هو "بيع" يأخذ أشكالاً كثيرة، ويثير أسئلة أكثر!

نتحدث عن بيع الأراضى الفلسطينية اليوم، وكأن الأراضى التى ضاعت منا فى يونيو 1967 قد عادت إلينا!

هل عادت حقًا إلينا؟

لم تَعُد الأرض رغم التحذيرات العربية، والمبادرات الدنماركية، والوعود الأمريكية..

بل زاد بيع الأرض حين أُضيف إليها جزء من جنوب لبنان، فأصبحت أرضًا محتلة أخرى تمارس عليها إسرائيل تهديد الأطفال (قانا)، وتقتيل الكبار (أرض التفاح)، وتهديد الدول العربية (الجيش السورى فى لبنان)، وتساوم فى الاتفاق (لبنان أولاً).. إلخ!

نتحدث بعد مدريد وتوابعها عن تحرير الأرض الفلسطينية تحت الحكم الذاتى، وكأن الأرض بعد مدريد وتوابعها أصبحت لنا، فى حين أنها تباع بشكل ما - فى مزاد ما -. وتتعدد الصور، سواء بإعادة الانتشار من آن لآخر فى شكل تنفيذ اتفاقات، أو بناء المعابر التى تصل الأراضى المحتلة بخارجها، أو الطرق التى تصل الضفة بالقطاع (هل تلاحظ تغيير أسماء الأرض العربية؟).. أو بناء طرق استعمارية مُحْكَمَة بين أطراف الضفة نفسها!

إن الإنسان العربى يتحدث عن الأرض المحررة - كما يقال - ويعبُر "يوميًا" طرقًا رئيسية بها حواجز عسكرية إسرائيلية، وتمارَس فيها إجراءات صاحب الأرض الذى يمارس سلطاته، خاصة منذ بداية هذه الاتفاقات فى التسعينات.

وهل ما يحدث فى القدس - منذ انتصار اتفاق عام 1999 - ليس بيعًا معلنًا؟!.. وأليس استمرار إسرائيل نفسها فى هدم مئات من منازل الفلسطينيين لتغيير الميزان الديموغرافى، وسحب آلاف الكيلومترات العربية إلى مِلكية أخرى.. أليس هذا بيعًا فى حالة الصمت عليه؟!

وهل الكانتونات الممزقة الأوصال بسبب الاتفاقات مع إسرائيل، لم تُبَعْ وحدتها فى اتفاقات مدريد وأوسلو؟!

إن البيع يتخذ شكلاً اقتصاديًا آخر..

إن كيان "الحكم الذاتى" يباع باتفاق جمركى وعلاقات اقتصادية وسوق عمل واحدة مع إسرائيل، ومبادلات تحدد إسرائيل فيها حجم البيع والشراء.

ماذا يكون البيع إذا لم يكن سيطرة إسرائيل على الإنتاج والتسويق والماء

والكهرباء وزيوت الطاقة وحصيلة التليفزيون ومصادر الرزق وباب الدخول إلى مناطق الحكم الذاتى؟!

ويمتد البيع من السياسة والاقتصاد إلى التعليم.

ففى 5 من يونيو عام 1997، أوردت وكالة "رويتر" برقية تقول بالحرف الواحد:

«قررت إسرائيل فرض برامجها على المدارس العربية فى مدارس المدينة المقدسة ومؤسساتها فى القدس الشرقية».

كما أوردت وكالة أخرى برقية تقول بالحرف الواحد أيضًا:

«إن لجنة وزارة التعليم قررت "حظر" البرامج الأردنية فى مدارس القدس الشرقية، وإحلال البرامج الإسرائيلية مكانها»..

أليس هذا بيعًا بشكل ما؟!

ثم ماذا يسمى هذا الفساد المالى الذى يجرى فى منطقة الحكم الذاتى؟..

لقد أوردت وكالة "رويتر" كذلك فى 5 من يونيو عام 1997م، أن رئيس الحكم الذاتى أمر بإجراء تحقيق فى تقرير اتُّهم أعضاء سلطة الحكم الذاتى بتبديد 326 مليون دولار..

وهو مجرد مَثل آخر، تضاف إليه أمثلة أخرى كثيرة، تشير كلها إلى أن ما يحدث ليس غير بيع غامض ومريب ومحبِط!

هل نلاحظ غضب «نتنياهو» الشديد على اغتيال سماسرة البيع من العرب؟

وهل نلاحظ أنه فى المرة الوحيدة الذى تحدث فيها عن استئناف المفاوضات، ربطه بشرط واحد، وهو التوقف عن قتل السماسرة العرب؟

وهل نلاحظ غضب الأجهزة الأمريكية غير المبرَّر وانزعاجها الشديد لقتل السماسرة العرب؟

وكأن بيع الأرض العربية لا يجب أن يتوقف!.. وكيف يتوقف والبيع يمنح

إسرائيل حقًّا وهميًّا يعنى أن بيع الأرض يعنى بيع التاريخ، وشراء الأرض يعنى الشرعية القانونية لأرض مغتصبة؟..

باختصار شديد:

أليست إقامة اتفاقات غامضة تم فيها تقسيم الأرض وبيع بعضها والموافقة على تقسيمها، هى بيع علنى، وبتوقيع الأطراف والشهود؟

أليس التسليم بالشروط الإسرائيلية، والهرولة وراء سلام غير مفهوم، هو بيع للأرض، أو ما تَبَقَّى من الأرض داخل ما يسمى بمنطقة الحكم الذاتى؟

إذا لم يكن هذا كله "بيعًا علنيًّا".. فماذا يكون البيع إذًا؟

ماذا يكون؟

هذا سؤال آخر من أسئلة الهزيمة التى كانت منذ ثلاثين عامًا، والتى لا نزال لا نعرف إلى متى!

(3)

سؤال الدهشة

أكثر من أربعين عامًا مرت هذه الأيام على هزيمة يونيو، وما زال فينا مَن يُظهر الدهشة لموقف مُعادٍ لنا هنا أو هناك.

الدهشة.. كيف؟

ولماذا؟

مناسبة هذا الكلام أن فينا من لا يزال يتحدث بعجب عن قرار مجلس الشيوخ الأمريكى الأخير بشأن القدس، وكيف أُعلن فيه أن القدس عاصمة لإسرائيل، واعتماد مبلغ كبير لتغطية نقل السفارة الأمريكية من تل أبيب إلى القدس، وكأن الموقف الأمريكى من قبل كان مؤيدًا لنا فى قضايانا العادلة؟!..

وكأن قرارات مجلس الشيوخ غير ملزِمة للإدارة الأمريكية كما يتردد..

وكأن هذا الشقاق بين الرئاسة والكونجرس هناك هو الأصل، أما الفرع فهو تأييد المسئول الأمريكي لقضايانا.. وإعلان الفيتو الأمريكي على المستوطنات مرتين في أسبوع واحد قريب منا!

إن الحقيقة الدامغة تشير إلى أن هذا الموقف المعادى لنا لم يتوقف عن الظهور بوقاحة منذ فترة مبكرة من تاريخنا المعاصر، منذ هذه الهزائم التى تكررت مرات فى الأعوام 1948 و1956 و1967 و1991.

ولدينا رسالة جامعية نوقشت فى صيف عام 1997 تؤكد غرابة هذه الدهشة رغم مضىّ أكثر من ثلث قرن على الهزيمة الأولى فى صيف 1967. وهو ما يجعلنا نتمهل قليلاً عند هذه الرسالة وعند ما تشير إليه.

الرسالة نوقشت أخيرًا بجامعة عين شمس، والباحث هو الخبير «ممدوح أنيس فتحى»..

والعنوان هو: (النظام السياسى المصرى وحرب 1967)..

وأشرف عليها أخيرًا «د. عبد الخالق لاشين»، أستاذنا وأستاذ عدد كبير من الباحثين الجادين المنتشرين فى كل الجامعات العربية (يجب أن يكون «د. لاشين» نفسه موضوعًا هامًا لفترة أسمى من تاريخنا لقوته وصلابته).

فى هذه الدراسة يواجهنا سؤال الدهشة والسذاجة، كأننا نتعرف على هذا الموقف المعادى لنا لأول مرة!.. وتتعدد الأمثلة...

إننا فى فترات الوئام مع الولايات المتحدة، نسميها - أى الولايات المتحدة الأمريكية - "**الصديق**".. وعقب حرب الخليج عام 1991 أصبحنا نسميها "**الراعى**"!

وصَدِّق أو لا تصدق أننا ما زلنا نردد حتى اليوم أن أوراق اللعب فى يد هذا الصديق الأمريكى، وقد أصبح هذا الصديق - المزعوم! - صهيونيًا أكثر من الصهاينة أنفسهم!

وبالعَوْد إلى دراسة الباحث، نجد أن السنوات الأولى لقيام ثورة 1952 تشير إلى

موقف الولايات المتحدة الأمريكية، وهو موقف معاير لنا تمامًا، سواء بدا فى شكل قرارات لمجلس الشيوخ والنواب، أو الإدارات الأمريكية المتعاقبة.

وتتوالى الأمثلة أيضًا منذ عقد اتفاقية الجلاء عن مصر عام 1955..

تتحالف الإدارة الأمريكية مع الكونجرس، وهو موقف ـ كما يذكر التاريخ ـ دفع «عبد الناصر» إلى عقد صفحة الأسلحة السوفييتية التشيكية. بل إن الباحث يقرر حقيقة مفروغًا منها: أن سياسة الولايات المتحدة كانت «تربط بين المعونة الاقتصادية والعسكرية، وبين الاتجاهات الخارجية للدول المتلقية لهذه المعونة.. وهى سمة سلبية فى هذه الدبلوماسية التى دفعت مصر إلى تأميم شركة قناة السويس».

ونلاحظ فى فترة الخمسينات أن واحدًا من أهم ثوابت أمريكا كان يشير إلى أن تحسن العلاقات المصرية الأمريكية يرتبط بتحسن العلاقات المصرية الإسرائيلية..

بل إن المعونة العسكرية لمصر ارتبطت بمدى التحالف مع الغرب والسير فى فلكه، وبدا هذا أكثر وضوحًا فى أن كل تقارب بين مصر والكتلة الشرقية يعنى تباعدًا بين الولايات المتحدة ومصر.

الأكثر من هذا، أن قيام مصر بمساعدة اليمن فى الستينات أدى إلى تدهور العلاقات المصرية من جانب، والعلاقات المصرية الأمريكية من جانب آخر.

وتتشابك أسباب هزيمة 1967 وتتعقد فى فترة متقدمة، لكن يظل أهم الخيوط قاطبة هو الموقف العدائى لنا من الولايات المتحدة الأمريكية.

إنه الموقف الذى لم يتغير قَطّ.

وكيف يتغير..

فمن خلال استقراء الأحداث، تؤكد الدراسة هنا ـ على سبيل المثال ـ عدم تقدير «عبد الناصر» لمدى عمق التواطؤ البريطانى الإسرائيلى، والذى وصل إلى حد التخطيط للتخلص منه أساسًا (وهو ما أُسْهِبَ فيه عبر أكثر من كتاب نُشر عن هذه الفترة)؟!

إننا أمام حقيقة ناصعة لا يمكن الفرار منها.

إن المؤكد أن إسرائيل ما كانت لتستطيع شن عدوان 5 من يونيو لولا مباركة ودعم الولايات المتحدة الأمريكية بشرط وحيد (هو ما جاء فى عدد من مذكرات شهود هذه الفترة أيضًا، وخاصة الإسرائيليين منهم).. هذا الشرط الوحيد هو: ضمان النصر للقوات الإسرائيلية.

وتَحَدَّدَ النجاح الإسرائيلى - كما يقرر الباحث - فى نقطتين اثنتين:

أولاهما تتعلق بالدور الأمريكى الذى جعل «جونسون» يؤديه لصالحها، والذى لم يقتصر على أعمال الخداع فقط، وإنما دفْعه لقوات من الأسطول السادس الأمريكى للاستعداد للمواجهة العسكرية، ثم نجاحه فى كسب التأييد العسكرى البريطانى، ثم مشاركة عناصر من القوات الجوية الأمريكية فى أعمال الاستطلاع والتجسس، فضلاً عن توفير العديد من المعلومات السرية من خلال التعاون بين المخابرات المركزية الأمريكية والموساد الإسرائيلى.

ولعل هذا هو الذى يفسر النقطة الأخرى، والتى تتعلق بالنجاح الإسرائيلى فى تحويل الأزمة من قضية أساسها تهديداتها العلنية بغزو سوريا، إلى قضية مختلفة تمامًا هى التهديدات المصرية لإسرائيل والملاحة فى خليج العقبة.

وفى بساطة شديدة..

لولا دور الولايات المتحدة ضد الأمة العربية - ومصر تحديدًا كرمز حى لها حينَ ذاكَ - ما كانت إسرائيل لتجسر على الهجوم على العواصم العربية وتستولى على الأراضى التى احتلتها عقب عدوان 1967.

ومنذ ذلك الحين ونحن ما زلنا نتحدث عن الصديق الأمريكى - كما نرى الآن - كأنه غير مسئول عن قرار مجلس الشيوخ فى موقفه من القدس بدهشة شديدة!

فمعذرةً لسؤال الدهشة، وحديث البدهيات..

ومعذرة لسذاجتنا وغبائنا، ونومنا الكثير فى سُبات طويل!

(4)

سؤال المستقبل

كدنا نقول: سؤال «الدقامسة»، لولا أن المستقبل (وهو اسم سنتعرف عليه حالاً) يكاد يفرض نفسه علينا، فيصبح عوضًا عن أى شىء آخر.

و«الدقامسة» . لمن لا يعرف . هو اسم الجندى الأردنى «أحمد موسى الدقامسة» الذى قتل سبع سائحات إسرائيليات فى منطقة "الباقورة" فى 13 من مارس عام 1997م غضبًا لكرامته وعقيدته، ثم استمرت محاكمته فيما بعد، فكاد يصبح أسلوب «الدقامسة» . القوة . هو أسلوب التعامل الوحيد مع الصهيونية.

ورغم أن أسلوب «الدقامسة» أصبح يتردد كثيرًا على ألسنة مسئولين ومثقفين وعلماء دين، فإن "القوة" بمعناها العام ليست كافية وحدها لتحرير الأرض المحتلة.

(ما زال الشيخ «طنطاوى» يتحدث عن التحرير فيقول: «لابد من استخدام القوة»، وما زال الأنبا «شنودة» يتحدث عن تحرير القدس، فيؤكد أن اليهود لن يتركوا القدس بالمفاوضات، وهو ما نجده لدى عدد كبير من الداعين لهذا الأسلوب فى الندوات والمؤتمرات وصحف المعارضة وثورات الغضب المشتعلة).

إن هذا كله يظل ناقصًا ما دمنا لا نرى فى القوة إلا معناها المجرد القائم على الثورة والدم والجهد وما إلى ذلك، ومن ثم فإن سؤال المستقبل . أو سؤال الأسئلة . يظل مطروحًا علينا، حتى بعد ثلث قرن على هزيمة 1967.

والسؤال هو:

كيف يمكن الخلاص؟

ويظل الخلاص الفردى (سواء بـ «الدقامسة» أو «محمود نور الدين» أو «أيمن حسن» أو «سعد حلاوة».. إلخ) ليس هو الأسلوب الوحيد.. أسلوب العصر الذى يجب التنبه إليه.

وفى المقابل، فإن الأمم التى تتحدث كثيرًا عن الهزائم التاريخية، وتَزيد فى الكلام عن الأسباب وتوصيف الأحداث والبكاء على اللبن المسكوب، تظل تعيش خارج التاريخ.

فإذا أردنا البحث عن المستقبل، فلنبحث عن أسباب القُوَى الأخرى، وهى كثيرة..

إن لدينا من أسباب القوى الأخرى - بالفعل - الكثير الذى نستطيع به أن نعاود اكتشاف الذات لمواجهة ما يُفرض علينا من تحديات كثيرة فى هذا العالم.

وهنا نصل إلى أهم ظواهر القوة..

أو - بالأحرى - إلى سؤال المستقبل الحقيقى، وهو يتوزع عبر عدة عناصر:

أن اكتشاف الذات هو إحدى ظواهر القوة.. الوعى بقيمة الإرادة التى لم تُهزم.. فإذا كانت هزيمة قد حدثت، فإن الهزيمة الأخيرة للأمة العربية لم تحدث بعد.

لقد جاءت الهزيمة ولم تلبث أن توالت سنوات الاستنزاف، ثم جاءت حرب أكتوبر، ثم توالت المقاومة الشعبية ضد غزو لبنان، والانتفاضة الفلسطينية وأطفالها. يقول أحد الخبراء العسكريين عن هزيمة 1967: إن «الإرادة كانت موجودة، ترفض - وبإصرار - فرض أمر واقع غير عادل، يتعامل مع الحقائق الجغرافية، ويتجاهل فى الوقت نفسه الحقوق التاريخية»..

وهو ما لا نستطيع تجاهله.

ومن مظاهر القوة بعد اكتشاف الذات (الإرادة)، يظل الوعى بالقومية العربية.

وهنا نستطرد بسرعة لنقول: إن القومية العربية ليست هى بالضرورة الوحدات السياسية التى تكررت وتَخَثرت فى التاريخ الحديث، وإنما هى الوحدة التى تظل مرهونة بالتنبه إلى التطورات العالمية المتسارعة، وهى تتحدد فى التالى:

ـ أولًا: وحدة الجانب الاقتصادى

هل نتذكر الوحدة الأوروبية المشتركة، و"النافتا".. إلخ.

إذًا نستطيع، إذا عاودنا تنسيق مقدراتنا الاقتصادية، أن نحرز واحدًا من أسباب القوة لا يمكن التقليل منه، وهو ما يذكّرنا بهذه الثورة التى وصلت أقصاها فى مجال التجارة الدولية مع قيام اتفاقية "الجات"، وما تعنيه فى عالم تؤدى فيه القدرة التنافسية دورًا هائلاً نحو التقدم والعولمة فى عالم جديد..

ـ ثانيًا: الثورة التكنولوجية

وهى أكثر ما يجب التنبه إليه فى عصر العولمة.

إن العالم يعيش اليوم ـ وخصومنا فى المقدمة ـ ثورة تكنولوجية هائلة، تحيط بنا من كل جانب، وتكاد ـ لفرط تقدمها ـ أن تحوّلنا فى الجنوب إلى "ريف العالم"، ومن ثم فإن غياب أى مجهود لاستيعاب "استراتيجية" عربية موحدة فى هذا الصدد، يحول بيننا وبين التنبه إلى المستقبل.

والنظر إلى الواقع العربى اليوم يؤكد لنا أننا نتخلف كثيرًا عن هذه الثورة المعلوماتية، خاصة فى تطوير الأُطُر والتجهيزات الأساسية للبث والاستقبال.

ورغم أن بعض الأصوات ترتفع هنا وهناك لتحذر من "الموجة الثالثة"، فما زلنا لا نعرف من الإنترنت إلا البرامج الترفيهية والمواقع التى تعج بتشويه الإسلام، والتى يضعها غيرنا لنا.. وما زلنا نعرف ما يسمى بأمية الكومبيوتر (دعك من الأمية الهجائية) دون امتلاك هذا الجهاز لاتخاذ قراراتنا اليومية، أو مراقبة الطبيعة، أو الوصول إلى أصل نتائج هامة كما نعرف فى العالم من حولنا.

والحديث هنا لا ينتهى.

ـ ثالثًا: قيمة الديمقراطية

وإلى جانب افتقادنا للإرادة والثورة التكنولوجية والثورة الاقتصادية، نفتقد أيضًا هذا الوعى بقيمة الديمقراطية (الوجه الآخر لاستخدام الأجهزة المعلوماتية)،

وهو ما نجده فى كافة مواقعنا، من أصغر وحدة فى القرية إلى أعلاها فى المدينة (لا يجب أن يقال إن التقدم المعلوماتى ليست له علاقة بالديمقراطية).

وباختصار، إن ما يحدث فى العالم الآن من تطورات هائلة، يجعلنا ننظر إلى المستقبل على أنه الخلاص الوحيد المشروط بمدى تنبُّهنا لطبيعة الصراع فيه. يقول عالم مصرى من المركز القومى للبحوث:

«إن حروب المستقبل ستكون حروبًا من نوع جديد، تعتمد فى المقام الأول على القدرات العلمية والتكنولوجية، وعلى القدرات الاقتصادية فى المقام الثانى، وعلى القدرات العسكرية فى المقام الثالث.. وحتى هذه الأخيرة [لاحظ تشديد العالِم هنا] ستعتمد فى معظمها على النوعين الأول والثانى من القدرات».

ماذا يريد أن يقول هذا العالِم؟ (*)

إنه يقول بوضوح تام إن الحروب العسكرية ستعتمد فى المقام الأول على:

- القدرة العلمية التكنولوجية.
- القدرة الاقتصادية المتطورة.

ومدى التحول المنشود يعتمد على شروط أخرى كثيرة ليست هذه السطور مجالاً لها، لكنها تؤكد على أن سؤال المستقبل لابد أن يرتبط بما يحدث فى هذا العالم الذى يتسارع فيه كشف كل شيء، والاستفادة من القدرات العلمية المتطورة خاصة، فى عالم يحرص الآن على تنمية هذه القدرات بشكل مذهل.

وقد يكون من المفيد هنا أن نضيف أن الاهتمام بالأمن الداخلى وصل إلى درجة يستحيل معها التنبه إلى أن ذلك يمكن أن يكون على حساب القوة العسكرية "العلمية" فى مواجهة عدو شرس متسلح حتى أسنانه بأحدث الأجهزة العلمية والنووية.

وقد يكون من المفيد أيضًا أن نذكّر ببدهية تتلخص فى ضرورة الخروج من

(*) هو «د. على على حبيش»، أستاذنا بالمركز القومى.

العصر العثمانى بالتوقف عن البحث عما فى ضمائر الآخرين، ورفض تكفير المفكرين أو المجتهدين، وافتعال المعارك الوهمية اليومية بين المثقفين وأشباه المثقفين.. إلخ.

ليس أسلوب «الدقامسة» إذًا هو الأسلوب الوحيد لمواجهة الهزيمة، وليس هو - بالقطع - "أسلوب التحالف الشعبى" فى الدنمارك.. وإنما هو - بوضوح أكثر - تخطِّى فجوة "المعاصرة المعرفية والتكنولوجية" من خلال استراتيجية عربية لم تبدأ بعد.

وهنا نصل إلى قناع أرجأناه كثيرًا. إنه قناع الإرهاب.

قناع الإرهاب

.. ولكن ما هو الإرهاب؟

إن مصطلح "الإرهاب" مثل كل المصطلحات المراوغة فى عالمنا المعاصر، وهى قضية ـ عند الممارسة ـ تُكال بمكياليْن، وربما عَشَرَة، وتفقد المصداقية قبل وضعها فى منظومتها بالمعنى الفلسطينى والسياسى.

وقد شهدت السنوات الأخيرة عدة مؤتمرات عالمية عن الإرهاب، وطُرحت معها أسئلة بدهية كثيرة مثل هذه القضية..

والقضية/ السؤال تتفرع منها أسئلة أخرى كثيرة أخرى لا تخرج جميعها عن محاولة تفسير المصطلح: مصطلح الإرهاب..

ولأن المصطلح من قبيل الأسئلة السهلة المتنعة فى عالمنا المعاصر ـ كقضايا حقوق الإنسان والديمقراطية والأقليات والهوية! ـ فسوف نحاول إعادة النظر فيه عبر أسئلة الواقع المعاصر أيضًا:

ما هو الإرهاب؟

وكيف تُفَرَّغ قضية الإرهاب من محتواها؟

وكيف يَختزل الغربُ الشرقَ بكل تراثه، والتاريخَ بكل إنجازاته، إلى الإرهاب أو العنف؟

وهل الإرهاب هو استخدام العنف الشرس لأهداف غير إنسانية، أم هو المقاومة الوطنية ضد الاحتلال؟

ولماذا تُسدَل ستائر الغموض على هذا المصطلح؟

والإجابة عن السؤال الأخير تكون فاتحة للإجابة عن بقية الأسئلة..

إذ إن الغموض الملقَى على هذا المصطلح نجده منذ أطلقت الثورة الفرنسية عام 1798 على كلمة الرعب "Terror" كلمة العدالة "Justice" حتى آخر تصريح لـ «أولبرايت» ـ وزيرة الخارجية الأمريكية ـ أمام مجلس الشيوخ فى بداية عام 1997 حين قالت بالحرف الواحد:

«سنتمسك بالتزام أمريكا الذى لا يهتز بأمن إسرائيل، وبمقاومة المعارضين للتسوية عن طريق الإرهاب»!

وعلامة التعجب من عندنا، خاصة حين تتكرر الأسئلة من جديد.

فما هو هذا الإرهاب؟

ومن هم أصحابه؟

وكيف يمارَس؟

وسواء جاء تعريف كلمة "إرهاب" على لسان «روبسبير» ـ إبان الحملة الفرنسية فى القرن السابع عشر ـ أو «أولبرايت» ـ إبان توليها وزارة الخارجية الأمريكية فى نهاية القرن العشرين ـ فإنه يظل فى خانة السلوك الإرهابى "المُقَنَّن" أو "المشروع" الذى تحرص أن تراه هكذا الدول الكبرى.. وهو ما تتوالى معه الأسئلة المحيرة:

ـ ولماذا استخدم الثوار الروس عام 1917م هذا المصطلح ـ "الإرهاب" ـ على أنه من تعريفات الكفاح الثورى؟

ـ وهل هو ما رفعه ثوار الألوية الحمراء فى إيطاليا؟

ـ أمْ هو ما تقوم به عمليات "الكونترا" فى إيرلنده الشمالية؟

ـ أو هو ما تمارسه القُوَى اللبنانية ضد العدو الصهيونى فى الشريط الحدودى جنوبَ لبنان؟

ـ ثم كيف يُطلق ـ أى مصطلح "الإرهاب" ـ على أطفال الحجارة الذين أرغموا إسرائيل على الاعتراف بهم وتغيير الموازين فى المنطقة كلها؟

وتتوالى الأسئلة إلى اتجاه آخر:

- هل هو تفسير لأول محاولة فى العصر الحديث حين قامت الطائرات الإسرائيلية لإرغام طائرة مدنية سورية على الهبوط فى مطار "اللد" عام 1954؟

- أم هو - فى المقابل - عمليات خطف الطائرات الإسرائيلية - فيما بعد - فى السبعينات بواسطة المنظمات الفلسطينية؟

وينفرط عقد التساؤلات أكثر:

- من هم الإرهابيون الذين خصصت إسرائيل لهم وزارة كاملة أطلقت عليها اسم "**وزارة الإرهاب**"، ووزيرًا أصبح لقبه المعروف هو "**وزير شئون الإرهاب**"؟ ووكالة للإرهاب أُطلق عليها "**الشين بيت**"، وهى المخابرات الإسرائيلية؟ (وهذا ما يذكرنا حين أُلقى القبض على فدائى فلسطينى، فهُشمت جمجمته تمامًا، وظل الجانى حرًّا.. أو حين قُتل شاب فلسطينى أعزل من التعذيب البشع، فحكمت المحكمة العسكرية العليا فى إسرائيل على قاتله بغرامه تساوى مبلغًا مهينًا!).

ثم ماذا تسمى هذه المجازر التى جرت فى عهود كل الوزراء الإسرائيليين (**بن جوريون**: مذبحة كفر قاسم. **جولدا مائير**: مذبحة بحر البقر. **بيجين**: مذبحة صابرا وشاتيلا. **شامير**: مذبحة دير ياسين، والأسرى المصريين. **بيريز**: مذبحة قانا. **نتنياهو**: مذبحتا المسجد الأقصى والخليل.. إلخ).

ثم.. ما زال السؤال معلقًا: كيف يفسَّر أن قمة "ليون" للدول الصناعية التى شاركت فيها قارتا أميركا وأوروبا، صنفت الإرهاب فى إطار الإسلام؟

أليس ذلك غريبًا.. أم أننا لا نعرف الأسماء بمسمياتها؟!

ونقترب أكثر لنحاول إعادة إنتاج السؤال عبر إجابات معاصرة نعيشها الآن، وننظر إليها بدهشة أو حيرة شديدة..

إن «نتنياهو» فى كتابه الأخير (مكان تحت الشمس) [وكان هذا هو عنوان برنامجه الانتخابى أيضًا] يعيد تعريف الإرهاب بشكل أكثر دقة لما يحدث اليوم فى

المنطقة العربية. إنه لا يتوقف طيلة الكتاب الضخم عن ترديد أن المدافعين عن حقوقهم وأرضهم ووجودهم هم "الإرهابيون"، ويرى أن الأنظمة العربية وفر لها الإرهاب [لاحظ أنه يقرن بين الموقف العربى و"الإرهاب"] إمكانية ضرب أهداف غربية، وأن بعض الدول العربية استخدمت أجهزتها لتنفيذ عمليات "إرهابية" (هكذا).. وكل ما قام به الشعب الفلسطينى للدفاع عن أرضه، ليس فى نظره غير اختراع جديد يطلِق عليه "اختراع الإرهاب العربى"، ثم يستبدل العبارة مرة أخرى ليطلق عليها "الإرهاب الدولى"، ويسمى فترة النضال الطويلة "حرب الإرهاب".

والمعروف أن ما يقوم به الفدائيون فى إسرائيل هو إرهاب، وأن أصحابه - ما زال الكلام لرئيس الوزراء الإسرائيلى - هم المخرِّبون. وهنا يضيف نتيجة دالة على تفكير الرئيس الإسرائيلى حين يقول: «لقد ساهم الإرهاب فى صعود المنظمة إلى المنصة العالمية».

وهذا ليس جديدًا فى موقف «نتنياهو»، وإنما هو موقف قديم من قبل أن يتولى الوزارة، فالمعروف أنه منذ سنوات بعيدة أعد كتابًا ونشره تحت اسم (الإرهاب: كيف يستطيع الغرب التغلب عليه؟)، ولم يَقُلْ لنا كيف يقرن الإرهاب فى اللاشعور الغربى بالإسلام، والجماعات الفدائية بالجماعات المخربة.. ولم يكن فى حاجة ليقول ذلك، فقد ختم كتابه برسالة راح يوجهها للغرب يؤكد فيها على «ضرورة توجيه ضربات عسكرية لدول الإرهاب»!

والغرابة فى القضية هنا، أنه حين يرى الغرب (وإسرائيل جزء منه) فى المقاومة العربية - دفاعًا عن الذات - نوعًا من أنواع الإرهاب، فإن هذا يأتى فى سياقه الطبيعى المعروف، أما حين تطلق بعض الحكومات العربية على الكثير من هذه الجماعات ألفاظًا من قبيل "الإرهاب" أو "العنف".. ويُعقد لها مؤتمر هنا وهناك، فإن هذا لا يصبح مفهومًا أو مبررًا، إذ إن إطلاق مثل هذه المصطلحات يختزل الحركات التى تسعى للوقوف ضد العدو الإسرائيلى أو الأمريكى فى ألفاظ غربية، ومواقف عدائية وحركات مرفوضة، على حين أنها فى الواقع لا تقوم بالإرهاب كما يُفهم من خصومنا، وإنما يكون ذلك نتاج مفهوم مضاد، لا يريد أن يفهم دوافع

«نتاج تفاعلات اللحظة الراهنة، بكل ملابساتها الخارجية والداخلية»، فإذا بنا أمام خندق واحد، يقف فيه العالم الغربى إلى جانب الحكومات العربية التى تسعى إلى اللحاق بما يقوله هذا الغرب، سواء أساء إلى الفعل المقاوِم بوصمه مرةً بالإرهاب، أو إدانته فى مؤتمر، أو الدعوة إلى إعلان الحرب عليه بكل القنوات القريبة والبعيدة للنيْل من "الإرادة" العربية.

ويجب أن نستدرك هنا أننا لا نتحدث عن الإرهاب بوجهه البشع والمبتز، كأن نتحدث عن عمليات «كارلوس»، أو الاعتداء على أفراد آمنين وأطفال وشيوخ مستضعفين، ولكننا نتحدث عن ظواهر جديدة بالتمهل عندها، كعمليات الجماعات العربية للعمل ضد العدو الصهيونى، أو الدفاع عن "أطفال" الحجارة التى صكت مصطلح "الانتفاضة" عالميًّا أكثر من مصطلح "الإرهاب" اليوم.

إن الإرهاب الغربى ـ كما يفهمه «نتنياهو» ـ لا يزال يسعى للقضاء على منابع الفتوة العربية فى أوج مقاومتها لقوى الظلام والاحتلال.

والإرهاب ـ كما نفهمه نحن ـ هو مواجهة قوى الغرب/ الشمال التى تحاول أن تنال من الإرادة العربية، فإذا بها تضع إرادتنا فى مفاهيم تصنعها هى، وتقرنها بالعنف، وإذا بنا بين دعاة السلام المزيف مرةً (عندنا) ـ هل تأملنا درس "كوبنهاجن" بالقدر الكافى؟! ـ وبين دعاة التغريب والخصوصية الحضارية مرةً أخرى.. تلك التى تريد أن تنزع منا ما بقى لنا فى هذا العالم: المقاومة.. فى حين أن الإرهاب صناعة غربية.

وأثناء كتابة هذه السطور، عرفنا أن مشروع اتفاقية دولية طُرح أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة ـ فى *24* من فبراير *1997* ـ يتعلق بـ "مواجهة الإرهاب". والجديد فى الأمر، أن مصر تحفظت على هذه المعاهدة التى تُساوِى بين أعمال الإرهاب باستخدام القنابل فى أعمال تستهدف المنشآت المدنية والأبرياء، وبين استخدامها من جانب المقاومة الوطنية، فى البلدان التى تسعى إلى التحرر من الاحتلال الأجنبى، ضد قوى هذا الاحتلال.

أما الغريب فى الأمر، فهو أن مشروع الاتفاقية تقدمت به الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا وكندا واليابان، وهو ما يُستنتج منه أن مصالح الشمال (المهيمِن الآن)، تُغاير مصالح الجنوب المطحون والمهيمَن عليه، والذى يعانى من الشمال: الديون، وضغوط البنك الدولى، وصندوق النقد الدولى، والشركات متعددة الجنسيات.. وهو ما يجيب على جانب كبير من غموض هذا السؤال: ما هو الإرهاب؟

(ج)

أقنعة المثقف

موت المثقف الغربى..

هل مات المثقف الغربى؟

سألتُ نفسى وأنا ألاحظ غياب هذا المثقف الغربى الإيجابى الذى كان يؤدى دورًا إنسانيًا.. اختفى هذا المثقف الذى عرفناه يكافح من أجل تأكيد القيم الإنسانية فى الداخل، والوقوف لمواجهة صور الإمبريالية الغربية فى الخارج.

انقرضت أجيال كاملة من المثقفين الواعين من القرن السابع عشر فى أوروبا، بقيمها الإيجابية، لتحل محلها أجيال أخرى تدافع الآن عن قيم أخرى: قيم الإمبريالية الجديدة، وحق الشمال فى أن يعيش بعيدًا عن مشكلات الجنوب وقضاياه.

لقد اختفى «أندريه جيد» و«مالرو» و«مورياك» و«أرون» و«سارتر» و«كامى» و«دوبريه»، وإلى حد بعيد: «هنرى ليفى»، وقبلهم - منذ قضية «دريفوس» وبعدها - مثقفون واعون من أمثال «فولتير» و«موليير» و«جان جاك روسو».

لقد حل "المثقف النقيض" محل "المثقف المتمرد"!

ورغم أن هذا المثقف الأول ينتمى إلى القرن السابع عشر فى الغرب، فإننا وجدناه حتى ما قبل نصف قرن من الزمان..

وجدناه حين نادى «سارتر» بـ "الالتزام".

وحين عُرف المناضل الصلب «ريجيس دوبريه» فى انتمائه لقضايا العالم الثالث، حتى وهو داخل السجن وخارجه.

ووجدنا أمثلة إيجابية لهذا المثقف فى مواجهة قضايا عالمية كفيتنام وفلسطين

وكوبا والجزائر.. لكن ما إن مضت الثمانينات من القرن الماضى أو كادت، حتى أصبح هذا المثقف الغربى "فص ملح وذاب"!

أين المثقف الغربى اليوم؟

لقد تغير المشهد الآن، ولم نعد نجد فى "أمامية" الكادر هذا المثقف.

بحثنا عنه فى القضايا التى تحتاج صوته دون جدوى.

لم نجد صوتًا واحدًا يرتفع فى الداخل ليتحدث عن افتقاد العدالة، حتى فى أكثر الدول ثراءً (فى أمريكا تقع أكثر مناطق العالم فقرًا كحى "هارْلم") واستفحالاً للعنصرية (تتحدث الدراسات الأمريكية أن أكثر من يُحكم عليهم بالإعدام فى الولايات المتحدة الأمريكية من السود، وأكثر مَن يُفصلون من أعمالهم من السود، رغم أنهم يمثلون أقلية إلى جانب الجنس الأبيض).

لم نسمع صوته مهاجماً نزعة العنصرية التى تضخمت أكثر (فى الغرب كله).

ثم.. مَن يهتم بالقدس والحفريات التى تهدد الأبنية الإسلامية والمسيحية؟!

ولم نعد نسمع شيئًا عن الأسطوانة التى أدارها الغرب قرونًا طويلة عن رسالة "الرجل الأبيض"!

لقد غاب هذا المثقف تمامًا..

غاب فى البوسنة..

واختفى من ويلات الشيشان ورواندا والصومال وإثيوبيا..

ولن نسمع أصواتًا واعية تتحدث عما يحدث فى الجزائر الآن.

ولم نعرف بيانًا للمثقف احتج فيه، ولو بالقصور الذاتى، عما حدث فى "قانا" بلبنان!

يعترف أحد المثقفين الغربيين ـ «سزيسلو ميلونو» ـ عما حدث فى مذابح سراييفو قائلاً:

«يتحمل المثقفون خيانة ما حل بالبوسنة من الهول والدمار، بإذكائهم نيران القومية، وإطلاقهم قارعة الجنون».

لم نعرف من يعتذر - حتى - عن ذبح أكثر من عشرة آلاف مسلم بسراييفو امتلأت بهم المقابر الجماعية التى ظهر بعضها ولم يظهر بعضها الآخر على شاشات الأجهزة التليفزيونية الغربية وشاشات صحفييها من المراسلين!.. ولم نسمع عن مئات الهندوس الذين راحوا ضحية التعصب أو التخلف فى باكستان السنوات الماضية.

لقد اختفى جيل من المثقفين الغربيين الذين كانوا يتحدثون عن الحرية والالتزام، ليحل محله جيل آخر.. جيل نكاد ننكره ولا نعرفه.

جيل يتحدث عن الإمبريالية وحماية حضارة الإنسان الأبيض، وأصبحت مؤتمرات التنمية والسكان التى تتبناها الأمم المتحدة وتمولها الولايات المتحدة تتحدث - من خلال المثقفين - عن الشمال الذى يجب أن يتنبه جيدًا لخلق التنمية للجنوب.. يتحدثون عن التنمية كى لا يزيد سكان الجنوب فيصعدوا إلى الشمال!

جيل يتحدث عن الحرية الجنسية التى تَزيد الجنوب تسطيحًا وعالميةً، مستخدمةً فى ذلك التكنولوجيا الحديثة، ويتحدثون عن اتفاقات مثل "الجات" التى تحوّل العالم كله إلى قرية يتولى النظام فيها الغرب.

نحن أمام مثقفين آخرين، من نوع آخر، يتحدث الواحد منهم عن الغرب، ولا يكاد يَخرج منه ما يبدى اهتمامًا كبيرًا ببعض القضايا الداخلية البحتة فيه قبل أن يتعامل مع قضية "الإنسان". نحن نسمع بشكل متواتر عن أسماء تشير إلى هذا، مثل «جان إيرن هاليه» و«جاك لانج»..

فالثقافة الفرنسية وأمجادها "الفرنكفونية" أكثر ما يهم هذه الفئة!

نسمع عن أسماء أخرى مثل «فرانسوا جيرو» الذى يتحدث كثيرًا عن اليمينية الأوروبية، ولا يكاد يخرج عنها فى أى حديث له إلى أية وسيلة إعلامية متاحة.

وفى المقابل، فنحن أمام صاحب اليسارية الجديدة - «جان أدرن» - الذى تنتهى عنده قيم اليسارية أو الاشتراكية التقليدية التى نعرفها جميعًا، ليحل محلها نوع من تضخيم الذات وتكريسه لها.

كانت القضية فى فترة من الفترات هى التوجه إلى القضايا الإنسانية فى أى مكان يولى الإنسان الغربى وجهه إليه، وفى الوقت نفسه، كان الصراع قائمًا بين المثقف والسلطة من أجل تأكيد هذه القيم.. غير أن هذا كله انتهى الآن فى الغرب ليحل محله لون آخر من تأكيد الثقافة الغربية واستنباتها من جديد فى أرض الجنوب، والانشغال - لتأكيد الإمبريالية الجديدة - بالصراع بين الثقافة الأنجلوسكسونية والفرنسية لتحقيق نفس الهدف.

أصبح هذا المثقف فى أوروبا أقرب إلى الشيطان الأخرس، خاصة إذا تعلق الأمر بالعالم الآخر خارج الغرب.

أصبح المثقف الغربى صامتًا، وأصبح للمثقف وجه آخر تمامًا.

فى أمريكا، وحتى إنجلترا، أصبح المثقف أقرب إلى نمط نجم هوليوودى أكثر من أى نمط آخر.. وبوضوح أكثر، لا نجد فى أمريكا اليوم «سارتر» أو «مالرو» أو «دوبريه» أو «كامى»..

هناك فقط «باربرا سترايسند» و«مادونا» و«جون واين» و«فرانك سيناترا».

لم نجد فى أمريكا صالونات للأدب والأدباء، أو بيانات ضد ما يحدث فى عالمنا البشع، وإنما وجدنا قاعات فخمة، أشهرها "القاعة الزرقاء" التى يعرفها كل نجوم السينما فى البيت الأبيض، وقد أصبحت هى المعبّر عن ثقافة الأمريكيين.

أما السياسة، فإن لها عوالم أخرى يشارك فيها البنتاجون ووزارة الخارجية والمخابرات و"كوادرها" الخبراء، أو "المثقفون" ممن أصبحوا وراء السياسة وفى خدمتها.. ولهذا أصبح رجال "الموضة" أكثر شعبية وتأثيرًا فى الجماهير!

بل أصبح الحلاق - نعم ولا تَعْجَب - أكثر المؤثرين فى القرار السياسى (صرحت «تاتشر»، وأكد ذلك حلاقها، أن القرارات الهامة التى كانت رئيسة وزراء إنجلترا تستمدها، كان مصدرها حلاقها الخاص حين كان يهمس فى أذنها بأحاديث طويلة عن التعليم، فتذهب لتنفيذها على الفور بعد "السشْوار" الأخير!).

لقد تخلى المثقف عن مكانه الحقيقى الآن فى الغرب الأوروبى/ الأمريكى إلى أدوار أخرى أكثر تخصصًا، وأبعد من "الرسالة" التى جاء بها «تشيكوف» من أنه

لم يأتِ إلى هذا العالم إلا ليختلف، وهو الاختلاف الذى يرجح جانب العدالة ويؤكد دور الجماهير.

لقد استبدل الغرب بالمثقف الآن نمطًا آخر من المثقفين المُسَيَّسِين، يعنى الواحد منهم باهتمامات "المؤسسة" التى تريد أن تحكم العالم كله اليوم.

لقد أصبح الاهتمام فى جامعات الغرب بنوعية «برنارد لويس» - الذى يكتب التاريخ ولكن من وجهة نظر غربية "صهيونية" - و«ناديف سفران» الذى كان يحتكر المعرفة السياسية لصالح المخابرات الأمريكية بمِنَح معلنة، و«فوكوياما» الذى كَرَّسَ لـ "نهاية التاريخ" فى سِفْر ضخم، أعقبه سِفْر آخر لصالح وزارة الخارجية الأمريكية، و«هنتنجتون» الذى يحذّر من صراعات الحضارات ليركز على الحضارة الغربية.. حضارة العالم الرأسمالى..

بل لقد استطاع الغرب أن يصدّر لنا مثقفين مثل «مارتن برنال» الذى حاول من خلال مغازلة الحضارة الفرعونية القديمة أن يؤكد أن "أثينا السوداء" - التابعة للشرق الأسود - هى الحضارة الأم وليس الغرب، فى أكبر عملية خداع عرفها العالم المعاصر. ومكتبات الغرب اليوم مملوءة بهذا النوع المخادع من الدراسات التى يحاولون إيهامنا فيها أن لنا دورًا فى الحضارات القديمة، لكن ليعود - مرة أخرى - ليؤكد أن الحضارة الحقيقية هى التى تقبع الآن فى الغرب (= الشمال).

نستطيع أن نخرج من هذا كله بأن المثقف الغربى الآن اختفى..

وإذا شئنا الدقة، فإنه يؤدى الآن دورًا إلى جانب السياسى(*)..

غير أن هذا الدور مشروط بأطماع السياسى الغربى الذى أصبح رجل "النظام العالمى الجديد"، والراعى الوحيد لعملية السلام بيننا وبين إسرائيل (هل هو سلام حقًّا؟) والإمبريالى الذى يستخدم كل ما انتهت إليه الحضارة الغربية من تكنولوجيا وتَحَضُّر للسيطرة على الجنوب.. وهذا هو دور المثقف الغربى اليوم!

(*) انظر كتابنا (المستشرقون الجدد)، الصادر بالقاهرة عن "الدار المصرية اللبنانية"، 2006م.

«سارتر»..

موت المثقف

كان «سارتر» - فيما يبدو - آخر المثقفين الغربيين الكبار الملتزمين بالقيم الإنسانية، وهو موقف لم يلتزم به فى فلسفته وحسب، وإنما جاوزه إلى الآخرين، خاصة إبان الثورة الجزائرية، وهو ما نجده فى دراسات كثيرة كُتبت عن «سارتر» ورصدت مواقفه من الثورة الجزائرية بوجه خاص، وآخر هذه الدراسات ما كُتب عنه بعنوان (سارتر والثورة الجزائرية)، والتى نوقشت بالإنجليزية أخيرًا فى جامعة لندن، وصدرت بالعربية فى خريف عام 1996 بالقاهرة.

والباحث - «د. عبد الحميد عمرانى» - راح يبرهن منذ البداية على طبيعة علاقة المثقف الفرنسى بالثورة الجزائرية، وقد استفاد فى هذا من كتابات «سارتر» كلها، ثم علاقاته بمثقفى عصره وسياسييه فى آنٍ معًا، وهو ما ينبغى التمهل عنده أكثر.

«سارتر» يرى أن الإنسان ليس مسئولاً عن نفسه فقط، بل هو فى الحقيقة مسئول عن جميع الناس وكل البشر؛ فعندما نقول إن الإنسان يختار نفسه بنفسه - يقول «سارتر» - نعنى بالتالى أن الإنسان الذى يختار نفسه إنما يختار تبعًا لذلك قيمة اختياره..

لماذا؟

يجيب فيلسوف الوجودية: لأننا لا نستطيع أبدًا أن نختار الشر.

إن ما نختاره لا يكون إلا الخير. ولا خير فى نظرنا إذا لم يكن خيرًا للجميع.

لا نجد عند «سارتر» إذًا هذه الثنائية بين الفكر والفعل، على الأقل فى هذه الفترة المبكرة من فترات مشاركته فى الحياة العامة منتصفَ الخمسينات.

وقد تَحَدَّدَ هذا الموقف خاصة فى الفترة بين منتصف الخمسينات وبداية الستينات حين بدا الفيلسوف ثائرًا ضد النظام الفرنسى ومنددًا بالعديد من مظاهر الإجرام المتوحش الذى كانت تقوم به السلطات العسكرية الفرنسية فى الجزائر، متصديًا لهذا فى أشكال عدة:

حضوره للجمعيات السياسية التى كانت تندد بالتعذيب والقتل البشع فى الجزائر. حديثه بشكل مستمر عن الحرية وحقوق الإنسان الجزائرى فى ندوات صحفية، سواء داخل فرنسا أو خارجها. حضوره عدة محاكم لمحاكمة المناضلين، وتعبيره عن هذا فى كتاباته الفكرية، وهو ما يظهر أيضًا فى كتاباته الإبداعية.. إنه فى مسرحيته (سجناء الطونا) - على سبيل المثال - يهاجم التعدى الفرنسى على الجزائريين بشكل حاد وعنيف.

الأكثر من هذا أنه حاول - تأكيدًا لموقفه العملى - تأسيس يسار فرنسى ضد الحرب، بل وضد سياسة «ديجول» نفسه فى هذه الفترة، فى وقت كان «ديجول» يختلف فيه معه ولا يتردد فى الآن ذاته من إصدار أوامر لحمايته، غير أن العلاقة بين المثقف والحاكم لها موضع آخر..

كان «سارتر» واعيًا بفكرة أن جيش التعذيب الفرنسى ليس غير الوارث الشرعى لجيش «هتلر»، وكان منطقه واضحًا فى هذا أشد الوضوح.

«إن كل الأساليب التى طبّقها الألمان فى الحرب العالمية الثانية على الشعب الفرنسى، ورثها الفرنسيون عنهم وطوّروها إلى طرق حديثة».. هكذا قال وكتب وأعلن.

إن هذه الأساليب كلها طبّقوها فى الخمسينات والستينات على الشعب الجزائرى المسلم.

(نفتح قوسًا هنا لنتذكر - بالتبعية - كيف ورث الصهاينة تعذيب «هتلر» ومذابحه، بغضّ النظر عن الأسباب الحقيقية، ثم راحوا يمارسونه على الشعوب العربية فى المنطقة، فأصبحوا هم النازيين الجدد!).

كان «سارتر» هنا واضحًا مع نفسه أشد الوضوح.

إنه المثقف الغربى الذى لم يستطع أن يتجاهل عنف الحضارة الغربية فى تعاملها مع الشرق الإسلامى، ولم يُكَبَّلْ فى إسار الثنائية التى تفصل بين فكره وموقفه العملى.

إنه لم يتردد عن الهجوم على «ألبير كامى» حين أحس معه العنصرية والتحامل الغربى على الشعب الجزائرى، كما لم يتردد فى تأييد مفكر سياسى وكاتب آخر - «فرانسيس جونسون» - الذى انضم إلى جبهة سرية للمثقفين ضد السياسة الفرنسية، إذ قال «سارتر» بوضوح شديد عن هذه الفترة:

«إذا طلب منى جونسون ملء حقائب - أو إيواء - مناضلين جزائريين، على أن أقوم بهذه المهمة بغير أن أعرّض حياتهم للخطر، فسوف أقوم بذلك دون تردد».

وهو ما يشير إلى أن «سارتر» طَوَّرَ موقفه الفكرى، ولم يفصل المفكر عن الواقع العملى.

لقد كان المفكر يناضل هنا من أجل حرية الآخرين..

وبذلك استوعب حقيقة هامة، هى أن حريته هى حرية الغير..

وهى حقيقة لم تَصنع قَطّ هذه الثنائية الحادة التى نجدها لدى المثقف اليوم.

بقيت نقطتان لابد من الإشارة إليهما، إحداهما أن «سارتر» بعد ثورة الجزائر - خارج هذه الدراسة - لم يكن له نفس الموقف العملى العادل من قضية الصراع العربى الإسرائيلى!

هذه حقيقة يؤكدها الرصد الدقيق لرحلة «سارتر» حين جاء إلى القاهرة أو سافر منها فى الستينات، أو حين ذهب إلى إسرائيل، أو حين اتخذ موقفاً غير عادل من قضية الفلسطينيين وقضايا الصراع العربى الإسرائيلى.

وهو ما يرتبط بالنقطة الأخرى، من أن ما يحدث - بعد عصر «سارتر» - يشير إلى أن المثقف الغربى اليوم - إذا وُجِدَ - يتجاهل المجازر والاغتيال والحصار وسحق الإنسان والمقابر الجماعية والرأسمالية الجديدة والشركات متعددة الجنسيات وصندوق النقد الدولى ومباركة الحروب الأهلية.. إلخ فى ربوع العالم الأربع، حتى ليمكننا المجازفة بقول إن المثقف الغربى الآن لم يعد موجودًا، وهو ما يعود بنا إلى سؤال يحمل إجابته الآن، وهو: أين المثقف الغربى؟

وهو سؤال، على بداهته، يغرى بالعَوْد إليه مرة ومرات.

قناع المُتفَرْنِس

مع مطلع كل عام، تعود هذه القضية إلى الظهور.

تعود قضية الاحتفال بمئتىْ سنة على مجىء الحملة الفرنسية إلى مصر (1798، 1997م). والقضية تتحدد حول سؤال: هل الغرب استعمارى أم حضارى؟ وبشكل آخر: هل حضارة الغرب هى حضارة المدفع أم المطبعة؟

وعَوْد إلى بَدْء، فإن الحملة الفرنسية التى جاءت إلى مصر منذ قرابة قرنيْن، أتت على مدفع ولم تأتِ لنشر حضارة، وكان الدافع الرئيسى لها هو السيطرة على مَقْدرَات الشرق (فى إطار الصراع بين فرنسا وإنجلترا). وقد أصبح من المُسَلَّم به الآن أن الطابع الاستعمارى كان مصاحبًا لها، ومن ثم فلا حاجة إلى هذا الجدل الفارغ "الوهمى" العقيم.

على أن هناك وجهًا للمتفرنس فى الجانب الآخر، لابد من أن يكون مرجعية لنا هنا..

المُتَفَرْنِسُون

للوهلة الأولى، تترك هذه الظاهرة فى عقل المثقف العادى أمواجًا من الدهشة والحيرة لا تلبث أن تتسع لتتحول إلى تساؤلات حادة تشد الانتباه وتستأثر به.

أما الظاهرة فتتمثل فى هذا العدد الكبير من الكُتّاب، المصريين خاصة، الذين يكتبون بالفرنسية، ويقيمون بين فرنسا ومصر، ويمارسون من أجناس الكتابة الأدبية الشعر والقصة والرواية والمسرح، فضلاً عن الدراسات التاريخية والفلسفية والفكرية إلى غير ذلك.

أما التساؤلات حول تلك الكتابات التى ازدهرت فى الأربعينات وما قبلها، والخمسينات والستينات - وربما وما بعدها - فتُطْرَح فى عدة نقاط حول ولاء أولئك، لعل من أهمها:

هل تأثروا بالأدب الفرنسى والروح الباريسية، أم بالأدب العربى والروح الشرقية الأصيلة؟.. وأدبهم: هل يعد جزءًا من الأدب الفرنسى، أم من تراث الأدب العربى المعاصر؟

إلى غير تلك من شلالات الحيرة التى سنحاول التوقف عندها فى نهاية الدراسة.

إذًا، فنحن أمام ظاهرة فريدة من نوعها فى أدبيات الفكر العربى لم يتنبه إليها أحد من قبل (فهى موجودة فى الأدب اللبنانى والمغربى أيضًا، غير أنها أكثر ازدهارًا فى مصر)، وإن كان قد رصد بعض خيوطها بعض كُتاب الغرب ذاته من المعاصرين، من أهمهم - حسب الأهمية - «جان جاك لوتى» فى كتابه (الفرنسية فى مصر: دراسة لمختارات أدبية)، فضلاً عن بضع المراجع الثانوية الأخرى التى أثارت عرضًا إلى هذه الظاهرة، ويمكن الإشارة إلى بعضها حين نذكر كتب (بونابرت فى مصر) لـ «ينوا ميشال»، و(الفرنسيون والإنجليز فى مصر) لـ «بيوفيه»، و(الجالية الفرنسية فى القاهرة) لـ «كارنوا»، و(رحالة وكُتاب فرنسيون فى مصر) لـ «كارييه»، و(تاريخ مصر المعاصر) لـ «شيرتو»، و(الرحالة والكُتاب المصريون فى فرنسا فى القرن التاسع عشر) لـ «أنور لوقا»، و(الجاليات الفرنسية) لـ «فيات».

والمعروف أن هذا الأخير كان قد وضع لـ «جاك لوتى» مقدمته القصيرة، مؤكدًا فيها على أن أهمية الدراسة تتمثل فى إبراز أن الصفوة المصرية ناطقةٌ بالفرنسية.. وهى ملاحظة لا يجب تجاهلها أبدًا!

على أن هذه المراجع كلها لا تضيف، ولا يمكن أن تضيف، إلى وجدان المتسائل عن هذه الكتابات شيئًا كثيرًا، فلا نلبث بعدها أن نشهد الحيرة وهى تطل من العيون والعقول لتتحول إلى تساؤلات تنتظر الإجابة.

وفى محاولة للإجابة عن هذه التساؤلات - أو بُعدها - لابد أن نقف عند بُعْدين رئيسيين:

أحدهما: البعد الرأسى/ الزمنى؛ أى التكوينات الأولى للظاهرة.

ثانيهما: البعد الأفقى/ الآخر؛ أى التكوينات الفنية النوعية.

(1)

فى الإبحار إلى التاريخ المعاصر، يمكننا أن نفرّق، بوضوح، بين مؤثرين:

الحملة الفرنسية التى جاءت إلى البلاد منذ نهاية القرن السابع عشر (1798 - 1801)، وحركة «محمد على» لبناء مصر منذ بداية القرن التاسع عشر. فعلى الرغم من قِصَر الفترة التى قضتها فرنسا فى مصر، فإن إصلاحات «محمد على» التى اتجهت إلى أوروبا وفرنسا كان لها الأثر الكبير، إذ أدرك "الوالى" حقيقة أن بناء مصر الحديثة - سواء ببناء جيش أو أسطول أو أدوات حربية أخرى لإقامة إمبراطورية عظيمة تليق به وبأحفاده - إنما يعود فى المقام الأول إلى دول الغرب التى كانت حينَ ذاكَ النموذج الذى يُحتذى.

ومن هنا، يمكن رصد تأثير الثقافة الفرنسية منذ سافر «رفاعة الطهطاوى» فى الثلث الأول من القرن قبل الماضى، ثم تأثير الثقافة الفرنسية التى كانت فى حركة اطّراد مستمر بين الجاليات الأجنبية (Communiqués reemerges) فى مصر وازدياد أعدادها، خاصة وأن تلك الجاليات كانت تمثل كل الأجناس التى تتحدث الفرنسية، سواء اليونانية منها أو الشامية أو الأرمينية أو اليهودية.

وأضيف إلى هذه المؤثرات مؤثرات أخرى فى القرن الماضى، مثل الصالونات الأدبية كصالون الأميرة «نازلى»، وصالون «قوت القلوب»، ثم تأثير كلٍّ من الفرق المسرحية التى كانت تأتى إما من فرنسا مباشرةً أو من الشام، والصحافة التى كان لها دور من الأهمية بحيث إن المصادر تؤكد أن الصحيفتيْن الأجنبيتيْن المعروفتيْن ("لوبريه إجيبسيان" و"جورنال ديجبت") هما كل ما تَبَقّى من 500

صحيفة أدبية وأسبوعية ويومية كانت تصدر بالفرنسية من مصر، ومن ثم قامت مع غيرها بدور كبير فى تنشيط الحركة الأدبية والفكرية حتى قيام الحرب العالمية الثانية.

وعلى هذا النحو، كان لابد أن تزدهر حركة الأدب المصرى فى هذا المناخ، فإذا بنا نعرف أنه إلى جانب تطور فرعه الرئيسى فى العربية على يد الكثيرين من أمثال الشيخ «محمد عبده» و«لطفى السيد» و«طه حسين» و«عبد العزيز جاويش» وجماعة "الديوان" وغيرهم، ازدهرت أسماء أخرى يعيش أصحابها فى فرنسا من أمثال «أندريه شديد» و«ألبير قصيرى» فى الأربعينات، وفى مصر من أمثال الكاتبة «إيلى دانسون» صاحبة أول رواية عُرفت باسم (العهد الجديد)، والتى تناولت فيها عادات سكان واحة سيوة وتقاليدهم، و«فوزية أسعد» فى روايتها المعروفة (فوزية) التى وقفت فيها عند فترة التحول الحضارى بين الشرق والغرب من وجهة نظر امرأة شرقية.

وإذا كان يلاحظ على تلك الكتابات أنها لم تَحْظَ فى مصر بالشهرة التى حظيت بها سابقتها، وبهذا الوجود المؤثر الذى عرف به الأدب الرسمى (أدب 1919)، فإن هذا يعود فى مجمله إلى أسباب عديدة، لعل من بينها أن اللغة الفرنسية لا يقرؤها الكثيرون فى مصر، خاصة فى العقديْن الأخيريْن من القرن العشرين، فضلاً عن أن معظم ممثليها لا يأخذون على عاتقهم، وبشكل مباشر، رسالة الإصلاح والتغيير، وإن كانوا لا يترددون فى شرع سلاح النقد والتمرد، ولكن فى عالم "برناسى" لا يمتد بكثير إلى عالم الداخل فى شعب يفتقد إلى تلك الحساسية الخاصة، إلى جانب أنه - أى الشعب - آثر الاختلاط ببَنِيه الذين سعوا إليه فى *الجامعات والمنابر الأدبية والوسائل الأخرى.*

وإذا كان النقاد والكُتاب قد أوْلوا عناية كبيرة بالأدب الذى كُتب بلغة المنطقة العربية، فإنهم لم يولوا مثل هذه العناية بالأدب الذى كُتب خارج الحدود، خاصة بالفرنسية، على الرغم من أن الكثيرين من رواده كانوا قد ترعرعوا فى الداخل وتأثروا بأدبه، وربما كتب بعضهم بالعربية أيضًا، كالأمير «عمر الحيدوى» و«ألبير

قصيرى» الذى أكّد هذا فى لقاء خاص معه نُشر فى أهرام 27/ 8/ 1982.. ويضاف إلى هذا كله أن هذا التأثر بالأدب العربى وممارسته، لم يكن متهيّبًا - بلغته الأم - الاتصال بمدارس اللغات الأخرى، وأوضح دليل عليه أن «أحمد راسم» - وهو شاعر لامع عُرف بكتاباته الشعرية الفرنسية - لم يحاور تفاعلات تلك المدارس الفنية، وأن «جورج حنين» - فى مغامراته الفنية أيضًا - عَرف السريالية، بل كان من أقطابها، وقد أصدر فى سبيل هذا عددًا من المجلات الملتزمة، غير أنه لم يلبث أن غادر مصر أكثر من مرة قبل الثورة وبعدها. ويمكن أن ينسحب هذا على بضعة من زملائه الذين آثروا نفس المنهج، مثل «إدمون جابس».

ومهما تكن الأسباب التى لازمت تكوينات أولئك الكُتاب وسماتهم، زمنيًّا، فإننا لابد وأن نقف عند بعضها فى محاولة للتعرف على "بانوراما" لأدبهم وفكرهم، قبل أن ننتهى - معًا - إلى سؤال حول الولاء.. ولائهم.

(2)

والنظرة الخاطفة لهذا البُعد تضع أيدينا على بعض المنحنيات التى لابد أن نقف عندها..

ففى الشعر عُرف عدد كبير ممن كتبوا الشعر بالفرنسية (نُشر شعرهم بين فرنسا وبلجيكا ومصر)، نكتفى هنا بذكر أهمهم من أمثال: «جون موسكا تولى»، و«إدموند جابى»، و«جويس منصور»، و«جان أترساش»، ثم كلٌّ من «أحمد راسم» و«جورج حنين»، ولعل الأخيريْن أهمهما وأشهرهما... فـ «أحمد راسم» (1895 - 1958) وُلد فى الإسكندرية، وعاش فيها زمنًا طويلاً، وتمكّن بنفوذ أسرته الأرستقراطية من الوصول إلى الدوائر الدبلوماسية، فأقام فى عدد من العواصم الأوروبية: روما ومدريد وبراغ.

على أن أهم الأحداث المبكرة من حياته تعود إلى امرأة تدعى «نيسان»، أحبها وفشل، فدفعه فشله فى الارتباط بها إلى أن يكتب الشعر، مضفيًا عليه طابعًا رومانسيًّا عُرف به الشعر الفرنسى فى هذا الوقت.

ونستطيع أن نذكر «أحمد راسم» إذا ذكرنا الحقيقة التى تقول، أيضًا، إنه فى أواخر القرن الماضى كانت تظهر فى الأدب الفرنسى كوكبة من الشعراء المتأثرين والمنتمين إلى الاتجاه "البرناسى" الكلاسيكى الجديد، وقد كان «راسم» فى بعض اتجاهاته برناسيًا.. وهذا الاتجاه ـ كما رآه زعيم تلك المدرسة «لوكونت دوليل» ـ رد فعل للرومانسية السائدة حينَ ذاكَ، ولكنها كانت فى الحقيقة ذيول الرومانسية المزدهرة، حيث كانت بقاياها تُعرف بالإفراط فى الأشكال والميوعة فى المضمون، على عكس ما كانت تعنيه الرومانسية فى أول ظهورها من ازدهار الحس الشعرى الجيد والمضمون المتمرد المبتكر.. وعلى هذا الشكل، فقد كان ظهور البرناسية فى حقيقته هو السعى إلى المحافظة على الشكل الكلاسى، والقواعد التى لا تخرج عن هذا الشكل تمثلت فى الأوزان أو القوافى فى وقت ترفض فيه المبالغة فى التعبير عن العواطف.

لقد رفض البرناسيون أن تكون هناك ثمة علاقة بين الشعر والعواطف، وإنما يؤْثرون أن تكون القصائد الشعرية تهتم بالفلسفة واللاهوت وعلم الأخلاقيات والتاريخ والعلوم الإنسانية، ذلك أن الشعر البرناسى ذو صبغة "عقلانية" ضد عاطفية "الرومانسية" المتبقية حينَ ذاكَ. إن «دوا» ـ على سبيل المثال ـ كتب عن الأساطير الهندية التى تحكى عن بداية العالم وتكوينه، والآلهة الهنود القدماء، واللاهوتِ المصرى القديم. وعلى العكس من الرومانسيين الذين يظهرون فرديين كرمز للكون، فقد عرف البرناسيون عالمًا موضوعيًا ليس للشاعر أى دور فيه.

وعلى أية حال، فعلى الرغم من أننا نجد المؤثرات البرناسية فى شعر «أحمد راسم»، فإننا لا نملك غير تأكيد الاتجاه الرومانسى لديه وغلبته على ما عداه، حتى لَيمكن الجزم أن «راسم» كان شاعرًا رومانسيًا أكثر منه شاعرًا برناسيًا، وإنْ كان التقسيم العشوائى يقع بنا فى دائرة المحظور، ويمكننا أن نرى ذلك واضحًا أشد الوضوح فى قصيدته (لا بأس) التى كتبها فى أسلوب رقيق وشاعرية تشبه شاعرية «الفردوسى» الشاعر الفارسى المعروف. يقول «راسم»:

خلف الشفاه الوردية
رأيتُ أسنانها كثنايا دب..
نبع من الماء القُراح تلتف حوله
العصافير فى حَدب وحب..
لكنها مَلَك كاذب
مع أن رخاوة صوتها تشع بروح بنت فارسية!..
وإن صدى صوتها دفء ونور مشرئب
مع أن نهديْها يصيحان كديكيْن غاضبيْن
حيث الهواء ينحت جسمها نحتًا عذبًا
فهى تكذب
لا بأس أن تكون الكلمات من ذهب متألق
فى شفاه تذكّر الظمآن بماء انسكب
فى فم تبدو حركته الحَيْرَى كثمار العنب.

وقد كان لابد لـ «جورج حنين» (1914 ـ 1973) الذى عاش فى مصر فى ثلاثينات القرن الماضى، أن يتأثر بالحركة السريالية التى ظهرت أوائل القرن العشرين فى فرنسا، أو أواخر القرن قبل الماضى، فى شكل ثورة فنية ضد أى اتجاه سابق، ومن ثم سيطرت تلك الحركة على روح الشاب فى كل ما كتبه، خاصة أعماله الأولى، وصاحَبَتْهُ فى مجلاته التى أصدرها بالعربية (التطور ـ والمجلة الجديدة)، كما سيطر التمرد الشديد على روح الشاب الذى عرف ثورة 1952 فى مصر وعاشها، غير أنه لم يتفق وأفكارها، فهاجر أكثر من مرة إلى روما التى أقام فيها، وباريس التى عاش فيها فترة طويلة يكتب فى صحفها ويصادق كُتابها ويصدر فيها مجلة سياسية معروفة باسم Jeune Afrique لمحاربة الاستعمار والدعوة إلى الاستقلال، وعرف هناك بعض المصريين الذين على شاكلته من أمثال «إدمون جابى».

ويمكن أن نقرأ لـ «حنين» مطلع قصيدة لنرى سمات الشاعر الشاب الذى سيطر على مخيلته التعبير الغربى، سواء فى الشكل أو الوزن، على حين بقى المضمون والأسلوب شرقييْن تمامًا.

لنقرأ سطور قصيدته:

حينما تبدو الشمس كحجر ضخم
حجر ضخم أتعبه الدوار والمشوار الطويل
فقال صامتًا:
أهلا مرحبًا بالنهر.. الصامت.
وحينما يصمت النهر
يهمس فلاح - لأخيه - فى شغف شارد:
ليتنى أعبر النهر
أسكب الصبر.. فى عيون امرأة..
امرأة فى الضفة الأخرى
تعرف المدينة والزينة.. والزهر
وحينما يصمت النهر
يرمق الفلاحون جريانه.. انسكابه
يسمع الآخرون صوته الساحر
يصحو النائمون لانسيابه دون السحاب
العالى
يصمت الجميع والزمن.. والمنائر
وحينما يصمت النهر
يعلو صوت المرأة.. الساخرة.. الراغبة
لرؤية نهارها الشاعر
تتلو أسرارها.. تهمس بأحلامها

من هذه الأمور فى ذراعيها
وتحكى حكايات كثيرة عن عشاقها
الذين لا يفهمون فيها قَطّ غير جسمها.
وحين يصمت النهر
والمرأة الحسناء تحكى حكاياتها.. تدور
شموس طفولتها
يهفو الفلاحون البسطاء
فى صفاء
لحديث المرأة
يتمنى كلٌ منهم لو تَمكَّن من سماع كلمة
أية كلمة من حديث المرأة
غير أن الكلمات تتطاير كطيور الليل
وتغيب
فى ضلالات المدينة حين تغنى امرأة
كهذه الحسناء
هنا
عن هجرات أبدية.

أما فى الرواية والقصة، فإن هناك الكثيرين الذين ارتادوا هذا المجال، من أمثال «ياكوب أرتين باشا» و«نيا سليما» و«واصف غالى» و«فرانسوا أبونجنى» و«ألبرت آدى» و«يوسف هاجو» و«ألبير قصيرى» و«تلى زنانيرى» و«أندريه شديد» و«قوت القلوب» و«فوزية أسعد» وغيرهم.

وما يهمنا هنا أكثر من غيره، هو إبراز حقيقة هامة تقررها أعمالهم التى تمثل فى غالبية شخصياتهم شخصيات مصرية.. هذه الحقيقة هى أنهم جميعًا وصفوا مظاهر المجتمع المصرى وتقاليده والتطورات التى طرأت عليه، كما أن الكاتبات

منهم بوجه خاص تمكنً من رسم خطوط هامة وواضحة لظروف المرأة الشرقية، وذلك فى إطار فنى فريد.

ومن هذين المحورين - المجتمع والمرأة - يمكن قراءة أعمال «يوسف هاجو» و«واصف غالى» و«ألبير يوسبوفيتش»، كما يمكن التوقف عند روايات «أندريه شديد» (اليوم السادس - الآخر ومدينة الخصوبة - أغنيات مضادة - أعياد وأفراح - نفرتيتى وحلم أخناتون)، ثم «ألبير قصيرى» (العنب والسخرية - مؤامرة بهلوانية - شحاذون ومتعاجبون)، وإن كنا على علم بدراسة "الماجستير" التى قام بها أحد الدارسين حول (المحيط الاجتماعى عند «ألبير قصيرى»)، وهى دراسة يتيمة.. ويمكن أن تضاف إلى ذلك رواية «أمير خير» (ساعة وقمريتها)، ورواية «د. فوزية أسعد» (فوزية)، وهى ترسم "بورتريه" وثيرًا لحياة شابة مصرية درست فى فرنسا وعادت إلى مصر، فتمكنت من توصيف لحظة حضارية وجدت الكاتبة نفسها فيها، وهى وقفة التحول الحضارى التى تمر بها بلادنا.

أما فى المسرح، فإن إنتاج كل من «توفيق العقاد» و«روبرت بلوم» من الضآلة بحيث يصعب رصد *خطوط واضحة لأفكارهما، فضلاً عن أن مسرحياتهما - التى* لم تُعرض قَط على مسرح - يغلب عليها الطابع الكوميدى.

فإذا جاوزنا الشعر والرواية والمسرح، لوجدنا أنفسنا أمام دراسات الفكر والتاريخ العديدة، ولعل من أهمها دراسات «ريمون فرنسيس» و«جبرييل بومار» و«جاك تاجر» والأمير «عمر طوسون» و«د. أنور عبد الملك»، وإذا جاوزنا أعمال الأخيريْن لمعرفتنا بهما - فضلاً عن ترجمة الكثير منها - لوجدنا أنفسنا وجهًا لوجه أما الجانب الخطير من الظاهرة.. فهذا هو «شفيق مرشاق»، الصحفى الشامى، الذى كتب العديد من الحقائق التاريخية المصرية فى نسيج فنى أو على شكل مذكرات، مركزًا فيها على الجانب التاريخى بين الثورتين (1919 - 1952) من خلال شخصيات روائية تعيش الفترة، وذلك فى مجلد ضخم يحمل عنوان (تقدم الحقيقة)، فتمكّن عبر ثلاثة أجزاء من تصوير الفترة من خلال عيون معاصرة، وربما متأثرة بعديد من التيارات التى لا تنتمى بالضرورة للفكر "الطونى"، وهو ما يمكن أن يشترك فيه ويشارك الكثيرين من أمثال «جاك تاجر».

ويمكن أن يضاف فى هذا، إذا استثنينا كتاب (العروبة) لـ «محمود كامل» الدبلوماسى المصرى المعروف، شخصية «راداميس لقانى Radames Lackany» الغامضة، والتى تثيرنا بنشاطها الجم، فـ «راداميس» وراء عديد من الكراسات التى صدرت فى الإسكندرية بين عامىْ 1963 و1967، وهو وراء صدور العديد من المجموعات الأدبية والقصص القصيرة بالإسكندرية، وهو ـ فوق هذا ـ صاحب دراسات بالفرنسية صدر أغلبها عن "الأتيليه" الذى أدى دورًا غير عادى بالنسبة إلى التبشير بالفرنسية ونشرها فى أكثر من مجال.

إذًا فالتكوينات الغنية على المستوى الأفقى، ترينا أن هناك عددًا كبيرًا من الكُتاب الذين ينتمون إلى مصر (بيئةً وميلادًا) وإلى فرنسا (لغةً وإقامةً لبعضهم)، ولا يزالون يشكّلون بكتاباتهم علامة استفهام كبيرة بالنسبة لفكرهم وولاءاتهم المتباينة.

(3)

وقد أن الأوان لأن نطرح تساؤلاتنا حول الولاء.. ولاء أولئك وانتماءاتهم الثقافية.. وهو ما سنلخصه فى تلك النقاط التى سنجملها هنا:

إلى أى مدى تأثر الشعراء بالتغير الفنى والفكرى الذى طرأ على الأجناس الأدبية فى أوروبا؛ فقد سبق أن رأينا كيف تأثر كل من «أحمد راسم» و«جورج حنين» بالتطورات التى طرأت على الحساسية الفنية فى مجال الشعر، سواء فى جانب الرومانسية أو البرناسية أو السريالية.. والإجابة هنا تحتل من الأهمية مكانًا؛ فهى تصل بنا إلى المدى الذى وصل إليه أولئك فى حركة التأثير بالنسبة للأدب الغربى أو العربى.

وإذا كان الشكل لا ينفصل قَط عن المضمون، فإن تتبع حلقات تطورهم يتيح لنا تتبع حركة تطور شريحة هامة من شرائح المجتمع المصرى حينَ ذاكَ، وإلى أى مدى تمكنت الرواية من أن تعبّر عن قضايا المجتمع المصرى.. فإذا علمنا أن الشخصيات لديهم كانت فى أغلبها مصرية، وأن القضايا كانت فى أغلبها مصرية، وأن استلهام التاريخ الأسطورى كما عرفناه عند كاتبة مثل «أندريه

شديد» إنما كان يعكس الكثير من التغير الاجتماعى والثقافى، وأن تتبُّع الرواية أو المذكرات كان يُقْرَن بتتبع مرحلة التطور الحضارى كما هو الحال عند «مرشاق» و«فوزية أسعد».. إذا علمنا هذا كله، لأمكننا التوقف عند السؤال المحورى:

هل تمكّن أولئك بالفعل من التعبير عن الواقع الاجتماعى المعاصر لهم فى مصر من خلال رصدهم لحركة التغيير؟ وكيف كان هذا التتبع من حيث الولاء أو الانتماء لأىٍّ منهم؟

ترتبط بهذا نقطة أخرى غاية فى الأهمية، وتتلخص فى أنه إذا كان أولئك فى أعمالهم يقدمون صورًا وأنماطًا معينة من الأفكار، فأى منهج كانوا يتلمسون؟.. أهو المنهج العربى (إذا جاز لنا التعبير عن التراث العربى وهمومه بكلمة "منهج")، أم كان ذلك بمنهج غربى استُمد من تطور أوروبا المغايرة بتطوراتها لفكر الشرق وحضارته؟

وبمعنى آخر: هل تمكّن أولئك - وهم يقدمون القضايا ويفصلون الآراء - من أن يقيموا فى ذواتهم تلك المعادلة الصعبة بين (الأصالة والمعاصرة) فى التعبير عن قضايا أخرى؟

وعلى ذِكْر القضايا - وهناك العديد منها - ماذا كان موقفهم من "الاحتلال البريطانى"، سيَّمَا وأن أغلبهم عاينوا الاحتلال البريطانى لبلادنا وعاشوا فترته، سواء فى الداخل أو الخارج؟

ثم ماذا كان موقفهم من ثورة 1952 (الثورة والمبادئ) وقد اتفق عدد كبير منهم مع الثورة واختلفوا معها فيما بعد؟

ثم.. ما موقفهم من العدو الإسرائيلى واحتلاله لأجزاء كبيرة من أرضنا.. إلى غير ذلك من القضايا التى تبلور أسئلة هامة لم يجب عنها أحد بعد؟

ويمكن أن نضيف لما سبق قضية أخرى نتوقف عندها أكثر، وهى قضية كتابة التاريخ المصرى.. فإذا عدنا لكتاباتهم الكثيرة فى هذا، لراعنا أن الكثيرين منهم كتبوا التاريخ على شكل روايات أو مذكرات أو قصص قصيرة أو دراسات..

ونضرب لذلك مثلاً بـ «مرشاق» الشامى الأصل، الذى وضع أكثر من كتاب فى هذا الصدد، مثل روايته (تقدم الحقيقة)، والتى فَصَّل فيها رأيه فى الثورة المصرية، سواء فى سنة 1919 أو سنة 1952 أو ما بينهما. وقد كتب «مرشاق» روايته تلك من خلال طبيب طالب كان يدرس الطب فى أوروبا. وحين يعود إلى مصر فى الثلاثينات، يجد نفسه أمام تطور الحركة الوطنية ضد المحتل، فيغرق فى حركة المظاهرات والتوسل بالكفاح، خاصة فى سنة 1936 التى يتوقف عندها كثيرا.

وهنا يطرح السؤال نفسه: بأى عين كتب الصحفىُّ تاريخَ مصر؟ وإلى أى تيار فكرى انتمى، خاصة وأن أعماله تُكتب بالفرنسية، ويقرؤه فى الغالب الأعم مَن يعرف الفرنسية من غير المصريين، الذين ربما لا يعرفون من الكفاح الوطنى سوى ما يطّلعون عليه فحسب؟

وبعد، فتلك بعض مناطق الحيرة التى تضعنا فيها الظاهرة: أن عددًا كبيرًا من كُتاب مصر وأدبائها، بعضهم عرف شذرات من العربية فى سن مبكرة، وبعضهم عرف الفرنسية فى سن مبكرة، فعاشروها وعاشوا معها.. وأغلبهم يعيشون اليوم خارج مصر، يكتبون بالعربية أشعارًا وروايات وقصصًا ودراسات فكريةً وتاريخيةً تدور كلها فى مُناخ مصر، وتحركها شخصيات مصرية، هذا على حين يحركهم ضمير ربما لا ينتمى إلى مصر الآن إلا بالقدْر الذى يتذكر به أحد النَّظَّارَة مشهدًا من مسرحية كلاسيكية قديمة شهدها فى سن مبكرة من حياته!

إن بعض مَن كتب عن هذه الأصوات المصرية الناطقة بالفرنسية قال إن أصواتهم الناطقة بالفرنسية كانت تدوّى فى الخارج، وقد كانوا ـ فى وقت ما ـ من المتحدثين باسم مصر. والسؤال هو: هل كانوا حقيقةً ناطقين باسم مصر ومعبّرين عنها؟

مجرد سؤال فى الولاء الثقافى!

قناع المستشرق

ثمة وجه آخر للاستشراق يمكن العثور عليه - عدا وجوه شتى كثيرة - في العلوم الاجتماعية بوجه خاص، وفي علم "التاريخ" بوجه أخص.

وللقضية - قضية الاستشراق الجديد في وطننا العربي - أكثر من مستوى لفهمها، فمن السهل التعرف على عديد من رقائق الوجوه المتوالية، المتراكم بعضها فوق بعض.. فإذا رفعنا وجهًا لَظَهَر لنا آخَر أكثر بشاعةً وقبحًا..

وسوف نتعرف على المستويَيْن هنا:

المستوى الأول: ما تؤديه العلوم الموجَّهة من دور مخيف ضد المقدرات العربية.

أما المستوى الآخر - الخاص - فهو الوسيلة التي نتلمسها في العلوم الاجتماعية خلال أحد رموزها الحية.

ولنتعرف على المستوى الأول.

(1)

المستوى الأول للقضية يتمثل في هذه الاعتمادات المالية أو المِنَح (أو سَمِّها ما شئتَ) التي أصبحت تقليدًا تتبعه الآن القوى الإمبريالية للحصول على ما من شأنه الإسهام في صنع القرار السياسي أو توفير الخيارات الملائمة له.

وقد وُظفت هذه الاعتمادات في مشروعات ظاهرها نبيل وباطنها غير نبيل، ويمكن أن نوافق على ما ذهب إليه البعض (**رفعت سيد أحمد** في كتابه "**علماء وجواسيس**"، 1990) من أنه ليس من المصادفة أن أول اهتمام أمريكي بالمنطقة بدأ

مع بداية القرن التاسع عشر ـ عام 1815 ـ وكان اهتمامًا تبشيريًّا، وذلك حين عَيَّن المجلس الأمريكى الخاص بالبعثات التبشيرية الأجنبية ممثلين له فى القدس، وعَهِدَ إليهم بمهمة تكوين بعثة تبشيرية فى المدينة المقدسة، فافتتح المبشِّرون أول مدرسة رسمية لهم فى بيروت عام 1824، ثم أخذت مدارس المبشرين ترتفع تدريجيًّا إلى الكُلّيّات، ثم إلى المستوى الجامعى. وفيما بين عامىْ 1860 و1901، افتُتحت العديد من الكليات التبشيرية، من أهمها كلية «روبرت» (1863) وكانت فى إسطنبول بتركيا، والكلية البروتستانتية السورية فى بيروت (1866) ـ وهى التى عُرفت فيما بعد باسم الجامعة الأمريكية ببيروت ـ والجامعة الأمريكية بالقاهرة (1919).

ومع بداية القرن العشرين، تزايد التغلغل الأمريكى فى الشرق الأوسط، كما عُقدت اتفاقات «فولبرايت» للتبادل التعليمى. وقد اطّردت هذه الجهود، حتى إن السجلات تشير إلى أنه فيما بين عامىْ 1940 و1966 تَقدم 761 مصريًّا إلى الولايات المتحدة لنَيْل مِنَح أعمال البحث والتدريس.

ويظل أظهر الأنشطة للقوى الإمبريالية، ما تمثله الاعتمادات المالية التى تتخذ عديدًا من الأشكال والاعتمادات التى تُطرح داخل الدولة التى يُراد فرض الهيمنة عليها..

وقد يكون هذا مشروعًا أو يأخذ شكلاً مشروعًا.. وفى الحالتين، فإن الهدف يظل بذل الأموال مقابل الترخيص بتسويق نتائج الأبحاث التى يمكن العثور عليها، سواء من الشركات أو الجامعات أو مراكز البحوث الخاصة أو العامة.

من هذا ما وجدناه فى بداية الثمانينات فى الأبحاث ذات الصبغة الاقتصادية فى عديد من الشركات الألمانية التى وقّعت اتفاقًا مع جامعة "هارفارد" فى الأبحاث البيولوجية الجزئية، أو العديد من الشركات اليابانية التى وقّعت اتفاقًا مع جامعة "أريزونا" لتطوير أشعة "إكس" دون استخدام فيلم حساس.. إلى غير ذلك.. حتى إن *المُتابع للصحف والدوريات الغربية يمكن أن يتابع، ببساطة، درجات الأستاذية التى* يُتفق عليها بين المعاهد والجامعات الأمريكية ـ على سبيل المثال فقط ـ وعديد من الشركات المتباينة فى التخصص (وكالة الأنباء الصينية، 6/ 8/ 1985).

بَيْدَ أن ذلك كله يظل مشروعًا ومعروفًا للكافة دون أدنى درجة من درجات الشك..

غير أن الوجه الآخر، غير المشروع، يتمثل فى تلك المراكز والمؤسسات والجامعات - إلى غير ذلك - والتى ترتبط ارتباطًا وثيقًا بأجهزة المخابرات، وتكون مهمتها الخفية، الحقيقية، هى الإفادة من شتى الباحثين (المستشرقين الجدد، أو المراكز البحثية فى الظاهرة..) لتحقيق الأهداف الإمبريالية، والتى لا تَمُتّ بصلة تُذكر للأهداف العلمية النبيلة - فى الظاهر - للعلوم الاجتماعية فى سياستها لتحقيق أرقى صور التقدم الإنسانى.

وهذا كله يتخذ أحد طريقيْن:

- إما توظيف عدد كبير من هؤلاء الباحثين فى وزاراتها ومؤسساتها للإفادة منهم بشكل مباشر.. أو توصيف موضوعاتها خلال مِنَح تُمنح بشكل مباشر وصريح.

وأما الطريق الأول، التوظيف، فيمكن أن نجد مثالاً واضحًا له فى أشهر وأعرق أساتذة العلوم السياسية اليوم، واسمه «دوكمجيان Dekmejian»؛ فإلى جانب أنه يعمل أستاذًا بجامعة نيويورك، يعمل كذلك كمُحاضر فى شئون الشرق الأوسط بمعهد الخدمات الجارية "بوزارة الخارجية" بالولايات المتحدة، وقد كان يعمل سابقًا مستشارًا بوزارة الخارجية.

وغنىٌّ عن الذكر هنا أن «دوكمجيان» هذا له أكثر من دراسة هامة عن الفترة الناصرية، من أهمها دراسته (مصر تحت حكم «عبد الناصر» Egypt under Nasser)، وهى دراسة غاية فى الأهمية ولم تُترجم بعد إلى العربية. كذلك فإن له دراسة لا يمكن إغفالها بحال عن (الأصولية فى العالم العربى Fundamentalism in the Arab world) لم نعرف لها دراسة أو ترجمة حتى اليوم، رغم أهميتها التى تتعدى البحث التاريخى أو المعرفية المنهجية!

وقد اعترف هو نفسه، فى كتابه الأخير عن السلفية، بأن تلك الدراسة كانت فى

الأصل مكتوبة على شكل تقرير قُدم - بالفعل - إلى حكومة الولايات المتحدة الأمريكية بشكل مباشر!

هذا عن الطريق الأول.. "التوظيف".

أما الطريق الآخر - المراكز البحثية، أو التدخل فى المراكز البحثية - فأَعْقَد من أن يُعَدَّ أو يُحْصَى، وكان أكثر أشكاله معرفةً هو تقديم المِنَح، على حين أن الهدف الرئيسى (المعروف والمعلَن والمسمَّى) هو الحصول على العديد من أبحاث العلوم الاجتماعية ذات الصبغة الأيديولوجية، والتى تسهم فى صنع القرار السياسى أو تدفع إليه.

وعلى هذا النحو يتحدد، أكثر، الوجه الآخر من الاستشراق الحديث، والذى يصنعه مركزان اثنان: الجامعة والمخابرات.

ومن المهم كى نعيد الفعل إلى النسق المرجعى له، أن نذكر كيف أنه فى عام 1951 أنشئ مجلس أبحاث العلوم الاجتماعية فى الولايات المتحدة الأمريكية، ومن خلاله تكونت جماعة دراسات الشرق الأوسط عام 1966 باسم "الميسا"، وكذلك معهد الشرق الأوسط، واتجه اهتمامهما إلى دراسة التطورات الاجتماعية والنفسية والدينية التى تموج بها منطقة الشرق الأوسط، ومصر على وجه الخصوص. وتضم هذه الجماعة العديد من أساتذة علم الاجتماع والسياسة الذين تربطهم ببعض الأساتذة - المصريين بوجه خاص - علاقات وثيقة تتعدى نطاق البحوث المشتركة إلى مجال الزيارات العائلية (ولنذكر على سبيل المثال: «د. سعد الدين إبراهيم»، و«شارل عيسوى»، و«برنارد لويس»، و«مالكوم كير»، و«ليونارد بايندر»، و«ريتشادر ميشيل» - وهذا الأخير مَوَّلَت له المخابرات الأميركية صراحةً دراسته الخطيرة عن "الإخوان المسلمين" - والصهيونى «نوث وبستون»، وكذلك المستشرقيْن «جيب ورى» و«فاتيكيوتس».. وهذا الأخير صاحب كتاب مشهور بعنوان "عبد الناصر وجيله"، راح يشوه فيه «عبد الناصر»، وقد أخرج عددًا من الكتب قبل - أو بعد - ذلك حاول فيها الإساءة إلى ثورة يوليو 1952، إما بشكل مباشر أو غير مباشر).

ورغم أنه يجب أن يخصَّص لكلٍّ من هؤلاء كتاب أو أكثر يثبت فيه علاقاتهم المشبوهة، أو - حتى - المعلَن عنها لأجهزة المخابرات التابعين لها، أو وزارة الخارجية العاملين فيها، فإننا سنكتفى هنا بنموذج واحد، مرجئين الآخرين لغيرنا، واضعين فى الاعتبار أن التركيز على باحث واحد، ومعالجة قضاياه وتوجهاته الخفية بشكل مُتَأَنٍّ، يمكن أن يصنع "كودًا" يمكن من خلاله التعامل مع عدد من الباحثين الآخرين الذين يؤدون - ولا يزالون - دورًا خطيرًا فى مقدراتنا العربية.

ولعل أحد أهم أولئك الباحثين - فى علم التاريخ خاصةً - المؤرخ المعروف «ناداف سفران Safran»، والذى عمل فى جامعة هارفارد رئيسًا لمجلس دراسات الشرق الأوسط. ومن يعرف «سفران» عن قرب، يعرف أنه صاحب دراسة هامة عن التاريخ المصرى الحديث والمعاصر، وهى دراسات كانت مَعينًا لا ينضب للمؤرخين المصريين بوجه خاص، ولعل من أهم كتبه فى هذا: (Egypt in search of political community).

كذلك فإن له أكثر من دراسة فى تفسير الظاهرة الدينية فى مصر فى عقد الثلاثينات (انظر مجلة "دراسات الشرق الأوسط"، لندن 4/ 1973)، فضلاً عن أحدث وأخطر دراسة عن التوجه السعودى والبترول والمجتمع العربى، والتى تعد من الدراسات القليلة عن الجزيرة العربية وأثر واحات البترول فيها.

غير أن الأهمية هنا لا تعود إلى كَوْن «سفران» باحثًا أكاديميًا وحسب، وإنما إلى كونه متواطئًا (اللفظة المستخدمة فى أجهزة المخابرات الغربية: متعاونًا) مع أجهزة المخابرات!

وقد استطاع «سفران» بالاتفاق مع جهاز المخابرات - الـ "سى. آى. إيه" - الحصول على مئة وخمسين ألف دولار بناءً على اتفاق مُبْرَم معه، على أن يكون متعاونًا مع هذه الأجهزة؛ وذلك لإنجاز سلسلة من المؤتمرات والأبحاث المتعلقة والمحددة - سلفًا - بالشرق الأوسط. ولأنه يوجد فى هارفارد بند ينص على "ضرورة كشف كافة الجامعات الأمريكية عن مصادر تمويل أبحاثها عن الشرق الأوسط" -

وهو ما لم يحدث ـ فقد تم التنديد من داخل أجهزة الجامعة ـ وتحديدًا من رابطة دراسات الشرق الأوسط فيها ـ بما حدث.. ومن ثم لم يجد «سفران» بُدًّا من اتخاذ موقف.. .

وقد كان هذا الموقف هو: الاستقالة!

وربما يبدو ذلك أمرًا طبيعيًّا هناك، فمن الأمور التى تبدو طبيعيةً فى مرات كثيرة، أن يتعاون أحد الباحثين مع أجهزة المخابرات بجهوده العلمية، غير أنه بالنسبة إلى «سفران» اليهودى، وطبيعة الأجهزة التى يتعامل معها، لا يغدو الأمر طبيعيًّا بأية حال..

وهو ما يعود لأسباب شتى:

أولاً: فالباحث ـ وهو بصدد دفاعه عن نفسه لأنه لم يبلّغ الجامعة التى ينتمى إليها ـ قال إنه «حصل عليها بصفة شخصية، وليس بوصفه عضوًا فى هيئة التدريس».

وهذا يزيد الطين بلة!..

فأنْ يتفق أحد أجهزة المخابرات مع أحد أساتذة الجامعة، وبمعزل عن الجهات الأكاديمية فيها، خاصة أن ذلك كان يتم تحت بصرها، فإن الأمر يتعدى التقاليد الجامعية إلى الهدف السيئ الذى كُلِّفَ من أجله هذا الباحث لذلك العمل..

وتبدو خطورة هذه الملاحظة أكثر حين يتعلق الأمر بالشرق الأوسط والقضايا الحيوية فيه.

إن ذلك يعنى، ببساطة، الإصرار على التعاون أو التواطؤ مع أجهزة المخابرات للإفادة من نتائج العلوم الاجتماعية لهدف مخابراتى. ونلاحظ أننا نسمى ذلك "تواطئًا" وليس "تورطًا"؛ إذ إن سبق الإصرار والترصد كان هدفًا قائمًا أثناء ذلك..

وهذا أمر لا يحتاج لبداهة أو تأكيد!

والباحث ـ وهو ما يُحَمِّلُه خطورة بالغة ـ اسمه «سفران»، وهو الاسم الذى

يُعرف به داخل الجامعة، وكذلك فى الجهات العلمية المحترمة. غير أنه بمعاودة ذِكْر الاسم، يتأكد لنا أن «سفران» ذلك يحمل اسمًا آخر، فهذا الاسم - «سفران» - إنما هو تحريف لاسمه الحقيقى الذى عاش به فى مصر (بلد الميلاد والجنسية) قبل أن يهاجر منها!

والغريب أن هذا الاسم بدأ يتردد فى الفترة الأخيرة، بما يشير أن عديدًا من الأوساط العلمية بدأت فى التعرف على ذلك الباحث. وأذكر أننى حين سألتُ المستشرق المعروف «فاتيكيوتس Vaticiots» أثناء زيارته لمصر فى شتاء عام 1989 عن الباحث، قال بالحرف الواحد:

«.. إن سفران من حارة اليهود بجانب الخُرُنْفُش فى باب الشِّعْرِيَّة بالقاهرة، وسفران - يا سيدى - اسمه الحقيقى "زعفران"، وهو اسم بلدى [يقصد من أسماء أهل البلد: القاهرة] من هنا.. من مصر».

معنى ذلك أننا حين نعيد ترتيب المفردات نقول:

(1) «سفران» مصرى..

(2) أى من حارة اليهود..

(3) واسمه الحقيقى «زعفران»..

(4) وسافر أول مرة إلى إسرائيل..

(5) ثم استقر به الحال فى أمريكا..

(6) وله علاقات وثيقة غير بريئة بالصهاينة..

(7) وله علاقات بجهات كثيرة..

(8) وله علاقات بالمخابرات الأمريكية..

(9) والبحث لديه ليس محايدًا..

(10) ويحمل كباحث عطاءً غامضًا.

وببساطة، فإن «زعفران» يفهم الواقع الراهن فى مصر (والراهن ابن الماضى)، ويستطيع - وهو ابن حارة اليهود - أن يوجّه جُلَّ اهتمامه فى سياق الحل

الصهيونى، ولا نحتاج إلى جهد كبير لندرك ذلك منذ كتب أهم أعماله عن «جمال عبد الناصر» فى خمسينات القرن الماضى (لم يترجم حتى الآن)، وبالتالى دراساته التى كان التمويل فيها من أجهزة مخابرات أمريكية وصهيونية.. إلخ..

وهذا لا يحتاج إلى التحذير من حجم الخطورة التى يشكلها..

ثانيًا: إن الباحث ـ وهذا يحمل خطورة أفدح وأبعد أثرًا ـ استطاع باسمه الآخر المستعار ـ «سفران» ـ خداع المؤرخين العرب، وخاصة فى مصر (دعك من المؤرخين الغربيين)، ويكفى أن نراجع هَوَش أية دراسة عربية معاصرة عن تاريخ العرب فى مصر فى العصر الحديث حتى ندرك حجم الاعتماد على «زعفران»!..

وذلك ما يضيف إلى الغفلة التغافل؛ فحُسْن الظن هنا ليس من "حُسْن الفِطَن".

فإذا أضيف إلى ذلك كله زَيْف المذكرات السياسية التى تَصدر من آن لآخر، وندرة الوثائق، وإمعان أقطارنا فى إبعاد فترة السماح بنشرها أو اطلاع المتخصصين عليها، فضلاً عن "حجاب" المعاصرة وما يصيب العقل العربى من سوء التقدير المعاصر.. لأدركنا إلى أى مدى يتعرض تاريخنا للتزييف، فى حين يتجرد من كل ما يشوبه أمام الآخرين الساعين إلى استخدام كل ما من شأنه أن يكشف المساحة الشاسعة من الماضى والمضارع فى آنٍ معًا.

ومع أن قضية العِمَالة مع أجهزة المخابرات أصبحت شائعة الآن فى الأوساط العلمية، فإن أغلب مؤرخينا لا يعرفون، أو ربما يعرفون (فالمصيبة أعظم!) أن أجهزة معادية لنا ـ مخابراتية فى الغالب ـ تستفيد من تاريخنا لفهم المعنى الحركى فيه!

....

فى لقائى الأخير به، قال «فاتيكيوتس» وهو يتجه إلى لندن ـ حيث يعمل ـ هذه العبارة:

«إن كل مستشرق فى هارفارد لديه مشروع مموَّل: إما من وزارة الدفاع، وإما من المخابرات المركزية»!

وتركته وأنا أتمتم: «ليست هارفارد وحدها»!

قناع المُبَشِّر

نموذج

يبدو أن لـ «سوزان طه حسين» وجهيْن:

وجهًا نعرفه..

ووجهًا آخر لا نعرفه.

الوجه الذى نعرفه هو الوجه المُشرق، أو "الملك" كما يصفه «طه حسين» فى نهاية الجزء الأول من سيرته (الأيام).

أما الوجه الآخر فهو الوجه المظلم، أو الجامد، الذى يشير - عند قليل من التعرف على حياة «طه حسين» الخاصة والعامة - إلى التعصب والترفع.

وإذا كان «طه حسين» قد أطلق عليها صفة "الملك" فى سيرته التى كتبها فى أواخر العشرينات (تاريخ كتابة الجزء الأول من "الأيام")، فإنه ما بين العشرينات حتى الآن، أُلقيت مياه كثيرة فى طاحونة؛ فلقد كان «طه حسين» فى هذه الفترة المبكرة لا يزال واقعًا تحت تأثير «سوزان» وفى كنفها (وأكاد أقول تحت سيطرتها الكاملة) متحدثا كثيرًا عن هذا الدَّيْن لها فى الجامعة بباريس، أو فى العودة معه إلى مصر (تزوج عام 1917، وعاد إلى مصر عام 1919)، وهو ما يشير إلى أنه كان "مستطيعًا بغيره"، وقد كان هذا الغير منذ هذه الفترة المبكرة هو «سوزان» فى المقام الأول، فضلاً عن أننا لا يمكن أن ننفى إعجابه إلى درجة كبيرة بالحضارة الغربية.

والواقع أننا لا نستطيع ونحن نتتبع بعض ملامح «سوزان طه حسين» حين جاءت إلى مصر لأول مرة حزينةً - لأنها تفقد جنسيتها الفرنسية - حتى رحيل «طه حسين»، إلا ونلمح بعض الصفات التى تزيل عنها صفة الإشراق، وتقلل تلك الهالة التى حاول «طه حسين» إضفاءها عليها، وساعدها على ذلك صمتها الطويل.

لقد كان هذا الوجه، الآخَر، يحمل ترفعًا وكبرياء ينبع فى الأساس الأول من انتمائها للغرب "المتحضر" فى مواجهة الشرق "المتخلف"!.. كذلك لا نخطئ شيئًا ليس بالقليل من هذا التعصب الذى يحمل نقيضه ويفسر به كثيرًا من ردود أفعاله، وربما كان مرجعه أيضًا عدم إحساسها بالقدر الكافى بثقافة البلد الذى تنتمى إليه ومكانته الحضارية من كمون بعيد فى الشخصية الأوروبية يقبع فى العقل الباطن ولا يفارقها، وإن ظهر من آن لآخر فى التصرفات العامة.

كان الأمر جنونًا!

فلنهبط أكثر إلى بعض ملامح هذا الوجه الآخر، قبل أن نحاول الاستطراد أكثر فى هذه التأملات.

والهبوط يستدعى منا التمهل عند عديد من المشاهد..

ربما كان الموقف الأول فى حياة «طه» و«سوزان» هو المشد الذى ينبئ عما وراءه، وهو المشهد الذى بدأ بتعرّف أحدهما إلى الآخر، ولدينا فى الجزء الثالث وصف يفيض بالرقة والعذوبة يفصله «طه حسين» فى لقائه أول الأمر بالفتاة الفرنسية، وهو يكاد يغرق كثيرًا فى هذه المشاعر "اللذيذة" حتى تواتيه شجاعته فيصارحها بالحب، فتجيبه:

– لكننى لا أحبك!

ومع ذلك، فإنه لا يكاد يمضى وقت حتى تعود إلى أهلها، فتعرض عليهم قضية اقترانها بهذا الشاب المكفوف، فتجيئها الردود بشدة:

«كيف؟ من أجنبى؟ وأعمى؟ وفوق ذلك كله مسلم؟! لا شك أنك جننتِ تمامًا!».

وتنصرف «سوزان» وهى تتمتم: ربما كان الأمر جنونًا!

ويكون على «سوزان» أن تقترب أكثر من عم لها (قسيس) وتفضى إليه بذات نفسها، ويكون على العم أن يتروى قليلاً، ولا يلبث أن يعلن لها الموافقة.

إلى هنا والقضية عادية، لا تحمل ملامح تلفت النظر.. قصة فتى مكفوف يطلب يد فتاة، وتنصرف هى بعد هَوْل المفاجأة إلى أهلها، فيتهمونها بالجنون، غير أن عمها يشجعها على ذلك آخر الأمر.

والواقع أن "الجنون" الذى تَرَدَّدَ هنا يطوى أشياء كثيرة..

ذلك لأن دراسة الاستشراق فى القرن الثامن عشر تلقى بعض الضوء على تلك القصة العادية، فينير بعض جوانبها.

وبعيدًا عن شرح فكرة الاستشراق فى ذلك الوقت، فإننا نستطيع أن نقول إن هذا القرن (الثامن عشر)، وقد كان قرن العم زمنيًّا دون شك، وأن مؤثراته كانت تمتد إلى بدايات القرن العشرين.. هذا القرن شهد نمو تيارات كثيرة كانت تحدد نظرة الغرب إلى الشرق..

إن أفكار الرحالة مثل «لين» و«فلوبير» و«رينان» كانت تشير إلى أن الغرب أسمى من الشرق، سواء فى تعاليمه أو أفكاره أو تقدمه.. كما أن تطور التاريخ الحربى بين الشرق والغرب وامتداده، وتَمَثُّله آنَ ذاكَ فى بقايا الدولة العثمانية، كان يحمل صورة للعربى الهمجى، الغادر، الذى اختلطت فيه فكرة الجدل بالوحشية والعدوان. ويقول لنا هنا «إدوارد سعيد»: إن السبيل إلى الثروات الهندية (الشرقية) كان يقتضى دائمًا المرور أولاً عبر الأقاليم الإسلامية، كما كان يقتضى تحمّل التأثير الخطِر للإسلام من حيث هو نظام من المعتقدات شبه آرى. وكان النجاح، على الأقل خلال معظم القرن الثامن عشر، حليف بريطانيا وفرنسا، وكانت الإمبراطورية العثمانية قد استقرت منذ زمن طويل فى وضع من الهرَم المريح (بالنسبة لأوروبا) هو ما يسمى فى القرن التاسع عشر "المسألة الشرقية"، وقد كانت محاولات الباحثين أو الرحالة الأوروبيين حينَ ذاكَ تسعى إلى غزو الشرق لتعريته من حُجُبه..

كانت فرنسا قد سيطرت على الاستشراق فى هذه الفترة التى تَوَجَّهَ فيها «طه حسين» للزواج بـ «سوزان»، ومن ثم وَجد المناخ ملائمًا تمامًا لمواصلة الحركات الاستعمارية لغزو الشرق، وإنْ تقدمت هذا كله صُوَر من التبشير قُصد بها فى الظاهر الثقافة، وفى الباطن استكمال رسالة الغرب بالسيطرة على الشرق، ولم يكن بعيدًا عن أفهام رجال الدين ـ خاصة «جريجورى العاشر» ـ ارتداد المغول إلى المسيحية.

المهم أن الروح التبشيرية كانت قد نمت ووَجدت لها مساحات شاسعة فى أفئدة رجال الدين ذوى الميول الغربية.

فى هذا المناخ، كان تَوْق العم (القسيس) عارمًا فى أن تذهب ابنة الأخ لتوالى السيطرة على جانب المثقف من الحضارة الإسلامية فى مصر، وهذا يغذى فكرة الأحلام الرومانسية لرجال الإكليروس منذ الحروب الصليبية، ربما لإعادة السيطرة على الآخر (الشرق الآن)، ولم تكن مصادفةً قَطُّ أن يكون العم قسيسًا، ولم تكن مصادفةً أن يتمسك العم، ومن ثم ابنة الأخ، بأن يتم الزواج فى كنيسة بفرنسا، ولم تكن مصادفةً قَطُّ أن تظل «سوزان» على عقيدتها المسيحية، ولا تتردد فى البَوْح بها بعد أن عادت إلى مصر وإعلانها من آن لآخر!

كانت الفتاة الآتية من جنوب فرنسا ـ حيث درجة التدين تصل أقصاها ـ تدرك أن عليها الآن مهمة يجب القيام بها، وهى مهمة يقف وراءها العم (الرمز الدينى)، والأفكار الغربية المتنامية المشبعة بروح استعمارية (المستشرقون)، وجهات رسمية وغير رسمية لا نعرف حتى الآن مصدرها. لقد كانت تدرك أنها لابد أن تضطلع بهذه المهمة مع مكفوف مثقف سوف يكون له ـ بعد العودة إلى بلاده ـ شأن كبير.

ومن هنا، لا نتعجب أن تتذكر «سوزان» وهى تكتب كتابها (معك) فى السبعينات، عبارة قالتها لها صديقة فى العشرينات. لا نتعجب أن نقرأ لها عبارة كهذه:

«قالت لى صديقة عزيزة ذات يوم: لقد كان عليكِ أن تضطلعى بهذه الرسالة».

لقد كانت رسالة تصل إلى حد الجنون، لكنها تصل بها إلى تُخُوم الواجب.

ولهذا لم يَطُلْ ترددها أكثر من فصل واحد، عادت بعده لترسل إلى الطالب المكفوف بما يثلج صدره.

الفرنسية أولًا

وعلى هذا النحو، فإن «سوزان» بعد عودتها إلى مصر، لم تنسَ قَطُّ عددًا من الرموز التى كانت تمارسها حرفيًا بشكل دورى، كما أنها لم تتنازل قَطُّ عن أى تقليد أو عُرْف كانت تمارسه هناك فى البلد الأم..

من ذلك، أن زوجة "عميد الأدب العربى" لم تكن تتحدث، قَطُّ، بالعربية.. فرغم أنها قضت فى مصر أكثر من نصف قرن، فإنها لم تَسْعَ إلى تعلُّم العربية، أو حتى التعرف إليها. ويذكر معاصروها أنها كانت ترفض بإصرار أن يجرها أحد إلى نطق كلمة واحدة بالعربية، وهو ما يفسر أن صديقاتها كُنَّ إما فرنسيات فقط، وإما مصريات يُجِدْنَ التحدث بالفرنسية.

وقد كان من ثمرة ذلك (وما أكثر الثمار السامة) أن ابنىْ «طه حسين» لم يحسنا العربية بالقدر الكافى.. و«مؤنس»، الابن، بوجه خاص، كان يتحدث إلى القريبين منه - حتى وفاته - عن صعوبة العربية على لسانه، وقد كانت فرنسيته أكثر من عربيته، وهو يبرر ذلك حين يلح البعض فى الدهشة:

- أمى كانت فرنسية.

ثم يضيف كاشفًا عن مساحات من الوجه الآخر لزوجة «طه حسين»:

- لم تكن تحب - أى «سوزان» - أن تتكلم غير الفرنسية، ولا تحب أن نتكلم غير الفرنسية بحضورها.

وعلى هذا النحو، كانت الفرنسية الوحيدة فى "رامتان" (لاحظ أن اسم بيت «طه حسين» "رامتان" هو اسم عربى أصيل) لا تتحدث العربية، ولا تريد لغيرها من الأولاد أو الضيوف أن يتحدثوا بها!

وإذا وضعنا فى الاعتبار أن اللغة هى أول الرموز القومية لدى أى شعب، لأدركنا أن الحديث بالفرنسية لمدة نصف قرن يطوى معنًى مغايرًا للمعنى الظاهر،

فلا يكفى أن نقول إنها فرنسية الأصول، أو إنها الفرنسية الوحيدة فى المنزل، وإنما هو موقف ثابت يطوى تغايرًا مع الوطن الثانى، ورفضًا للائتلاف معه، ذلك لأن وراءه موقفًا آخر مقصودًا، أو غير مقصود (إذا أحْسَنَّا النية)، يرفض التقابل مع هذا العالم الأدنى مرتبة، والأقل عقيدة!

أسلوب الهيمنة

ورغم أننا لا نعرف الكثير عن حياة «سوزان» الخاصة، فإن بعض الملاحظات تشير إلى مؤشر هام فى هذا الصدد، إذ يبدو أن تأثير «سوزان» على «طه حسين» كان طاغيًا وحادًّا، بل ويصل إلى حد التسلط. ويذكر عدد من العاملين بالتليفزيون، حين ذهبوا للمرة الأخيرة للتسجيل مع «طه حسين»، كيف كان حضور الزوجة عاليًا إلى درجة مخيفة، وكيف أن وجهها المُرْبَدّ فى مواجهة «طه حسين» قبل التسجيل لم يتغير قَطُّ.

ويحكى عديد من الحاضرين أو المعاصرين لـ «سوزان»، القريبين منها، كيف أنها كانت تحيط «طه حسين» بعنف وقسوة لا مبرر لهما، ومن المحتمل أن بحث «طه حسين» فى الفترة الأخيرة عن المال لإرضاء الزوجة كان دافعًا له ـ ضمن دوافع عديدة ـ لألاَّ يتعامل مع الحكام الجدد بعد ثورة 1952 بقسوة كانت من سمات «طه حسين» (العنيد)، وخاصة قبل الثورة!

وتشير بعض الملاحظات إلى عدد من التصرفات التى سلكها «طه حسين» فى الفترة الأخيرة من حياته، والتى ـ فيما يبدو ـ كان مضطرًّا إليها تحت إسراف الزوجة، وتمسُّكها بالسفر (فى فصل الصيف) إلى أوروبا كل عام. من هذه التصرفات، أنه أعاد طباعة عدد من كتبه تحت مسميات أخرى، إما فى القاهرة أو فى بيروت!.. وعلى سبيل المثال، فإن كتابه (فى الصيف) الذى نُشر لأول مرة فى القاهرة عام 1933، أعيد نشره مع كتاب آخر (رحلة الربيع) بعنوان واحد هو (رحلة الربيع والصيف) في بيروت عام 1957. كذلك أعيد طبع كتاب (الفتنة الكبرى) مع كتب أخرى بعنوان (إسلاميات) عام 1967، بل إن كتاب (الوعد الحق)

أعيد طبعه مرة أخرى بعنوان (إسلاميات) فى بيروت عام 1967، وكذلك كتاب (مرآة الضمير الحديث) أعاد نشره مرة أخرى بعنوان (نفوس للبيع) عام 1953، وكتاب (مرآة الإسلام) أعيد نشره أيضًا فى بيروت عام 1967 بعنوان (إسلاميات)!

لقد امتد أسلوب الهيمنة إلى العديد من تصرفات «طه حسين»، فحولَتْها إلى النقيض. وفى اعتقادنا أن دراسة جادة لم تُنشر بعد حول دور الزوجة للهيمنة على عميد الأدب العربى، وما استتبع ذلك من تأثير على فكره وليس استجاباته الحياتية فقط.

أين الرسائل؟

ومثال ذلك: أن «طه حسين» كانت له علاقات كثيرة ومتشعبة مع عدد كبير من كُتاب عصره. ومَن يتصفح النسخة الفرنسية من كتاب «سوزان» (معك)، يلحظ نصوصًا كاملة أو شبه كاملة منقولة (بالحرف) من بعض رسائل «طه حسين» إليها، أو عديد من رسائل أساطين الشعر والفكر فى عصره إليه.

وعلى سبيل المثال، فقد كتب إلى «طه حسين» الرئيس السنغالى «سنجور» و«سكايف» و«لالاند» و«أراجون» و«أندريه جيد» و«كازانوفا» و«بلاشير» وغيرهم كثيرون.. ومع ذلك، فإن النصوص الأصلية للرسائل - وما أكثرها - لا نعرف عنها شيئًا! ويصف «مؤنس طه حسين» الطريقة التى كانت تستولى بها أمه «سوزان» على رسائل «طه حسين»، فيقول: إنها كانت «تستحوذ على رسائله الخاصة، والأدبية بوجه عام، مثل رسائل "لوى ماسينيون" و"أندريه جيد"..»..

وما زلنا حتى الآن لا نعرف أين هى، على الرغم من أهميتها فى السياق الفكرى والسياسى والأدبى!

وربما - لهذا - حين ذهبتُ إلى زوج الابنة «د. محمد حسن الزيات» وطلبتُ منه بعض كتابات «طه حسين» التى لم تُنشر أو مذكراته (إذ علمتُ من بعض تلامذته أن له مذكرات محفوظة).. أجابنى «د. الزيات» بأنه لا يوجد لديه شىء منها، رغم أنه سلمنى فى هذا الوقت جزءًا لم يكن قد نُشر بعد من رواية «طه حسين» (ما وراء النهر)!

ومتابعتى لكتابات «طه حسين» وحياته لسنوات، تجعلنى أجزم أن هناك العديد من الرسائل المفقودة أو المختفية، أو عديدًا من الكتابات الأدبية والفكرية التى لم تُنشر حتى اليوم، استحوذت على أغلبها السيدة «سوزان»، واختفت فى مكان مجهول!

ولا تزال صور الهيمنة تتعدد وتمتد إلى عديد من النواحى..

كنائس الأندلس

على أن الوجه الجامد، الذى يحمل مسحة واضحة من التعصب والتعالى الشديديْن، يطل علينا دائمًا فى رحلات «طه حسين» مع زوجته. ومن أكثر ما يدهشنا فى هذا، أن رحلة «طه» و«سوزان» عام 1948 إلى إسبانيا بدت مصبوغة بصبغة عربية تمامًا، أو عربية يمتزج فيها الغرب بالتعصب.. فمن الغريب أن تقضى «سوزان طه حسين» فى ربوع الأندلس فترة طويلة، وتهبط إلى غرناطة، وتتعرف على قصر الحمراء، وتقترب من إشبيلية.. إلى غير ذلك من الرموز التى ما زالت تحمل تاريخًا إسلاميًّا صافيًا.

إن المسافر إلى هذه المناطق (التى كان الإسلام فيها مزدهرًا لمئات السنين) لا يمكن أن يغفل هذه الآثار الإسلامية الشامخة.. ولسنا نأتى بجديد إذا قلنا إن الآثار الإسلامية فى إسبانيا الآن من الكثرة والغزارة بحيث تُعد السياحة إلى هذه الآثار هى المورد الأول للدولة.. ومع ذلك، فإن «سوزان» لا تندهش لعظمة قصر الحمراء، ولا لروعة البناء فى آلاف المساجد والحمّامات والحارات والتكايا الإسلامية التى ما زالت تشهد بعظمة العرب!..

وسافرت «سوزان» أكثر من مرة إلى إسبانيا، وشهدت الأندلس الإسلامية، ومع هذا فلم تذكر كلمة واحدة عن ذلك!.. إنها تتحدث عن «أشجار السرو.. تلك الأشجار الخارقة، والينابيع، والمطاعم، والفراولة، وثقافة المضيف، ورقص الفلامنكو..»..

والأكثر من ذلك، أن «طه حسين» دشن هناك فى عام 1950 معهد الدراسات

الإسلامية الذى لم تذكره قَطّ، اللهم إلا فى موضع واحد، هو الموضع الذى قلد فيه وزيرُ التربية الإسبانى «طه حسين» "الوشاح الأكبر لصليب ألفونس العاشر". ونستطيع أن نذكر عشرات الأمثلة فى ذكرياتها التى كتبتها عن «طه حسين» بعد رحيله، مما يشير إلى أن زوجة عميد الأدب العربى لم تكن تدرك شيئًا عن هذا الأدب.. أو الأصح، أنها كانت تريد أن تدرك منه ما يوظف أفكارها فى النسق الذى جاءت من أجله. ومن هنا، فإنها لم توجد فى حياة «طه حسين» إلا من خلال الإحساس بـ "الدَّيْن" الذى فُرض عليه أثناء إقامته بفرنسا، والذى طوق عنقه إلى درجة الاختناق.

هذه.. الكاثوليكية

ويؤكد الذين عرفوا «سوزان» أنها كانت معتزة جدًّا بعقيدتها. وقد راح الأب «قنواتى»، فى إحدى المرات التى وجد الجَزَع فيها على وجه «سوزان»، يقول لها مقويًا من عزيمتها:

- أنتِ مسيحية!

على أنه إن يكن الإنسان ذا عقيدة متينة (أيًّا كانت ديانته) فهذا شىء مستحب، ويحاط بالاحترام والتقدير.. أما أن تختلط لديه الرؤية بين عقيدة وجنس وحضارة، وما إلى ذلك مما يَرْقَى به إلى درجة التعالى، فإن ذلك فى حد ذاته ليس من السمات الأولى فى أى عقيدة.

ومع أن الأمثلة التى تبرهن على تعالِى السيدة «سوزان» وتَصَلُّبها لا يمكن حصرها، فسوف نكتفى بهذا المشهد الأخير، الذى يؤكد أن لهذه السيدة وجهًا آخر لا نعرفه..

وهذا المشهد يحكيه لنا «مؤنس» - الابن - عن أمه، فيقول: يومَ تزوجَتِ ابنتى قبل عشر سنوات من شاب يابانى، جاءت إلَيَّ من القاهرة لتشاركنى بالفرح..

وسألها أصدقاؤه، وأجابت:

- ألا يصدمكِ أن تتزوج حفيدتكِ من شاب يابانى.. وبوذى؟

فقالت بسرعة:

ـ كلا.

وعاد المتحدث يسأل من جديد:

ـ لماذا؟

فعاد صوت «سوزان» يجيب مرة أخرى بحدة:

ـ طالما أن جدتها، قبل ستين عامًا، تزوجت شابًّا عربيًّا مسلمًا، وهى الفرنسية الكاثوليكية!

ولا نحتاج إلى تعليق.

وعلى ذلك، فإن لكل شىء وجهيْن، أحدهما مُشرق، والآخر مظلم..

وفى حالة «سوزان»، يعرف الجميع الوجه المُشرق..

أما الوجه الآخر ـ المظلم ـ فلا يعرفه أحد!

والسبب هو وجه المبشِّر..

فهى تفيد التبشير والسياسة!

(د)

أقنعة المراوَغة

قناع التبعية

ما العلاقة بين التنمية والتبعية؟

حتى عهد قريب، كان يمكن ألا نجد علاقة كبيرة بين الاثنين: التنمية والتبعية؛ فعشرات الكتب والدراسات والتقارير الإقليمية والدولية، بل وعشرات الدراسات الاجتماعية، تركّز فى أغلبها على هذه التنمية التاريخية التقليدية التى ترتبط بالواقع المحلى دون أن تُجاوِز حدود الإقليم أو الأقاليم التابعة لها.. فالتنمية فى أفضل تعريفاتها الاصطلاحية هى الجهود التى تُبذل لإحداث سلسلة من التغييرات الوظيفية الهيكلية اللازمة لنمو المجتمع، وكذلك لزيادة قدرة أفراده على استغلال الطاقة المتاحة إلى أقصى حد ممكن؛ لتحقيق أكبر قدر من الحرية والرفاهية لهؤلاء الأفراد بأسرع من معدل النمو الطبيعى (معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، د. أحمد زكى بدوى، مكتبة لبنان، ص 284).

وحين تعرضت جملة من المؤسسات ومراكز الدراسات للمفهوم، فإنها لم تخرج به كثيرًا عن ذلك، مضيفةً إلى مشروع التنمية القُطْرى أو الفردى مشروعًا مجتمعيًّا يقضى بالضرورة إحداث تغييرات بنيوية فى الهياكل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، والارتقاء بالمجتمع إلى حضارة العصر، إنتاجًا وإبداعًا واستمتاعًا، وإلى المشاركة الفاعلة فى صنع الحضارة.. إلخ، مما يشير إلى أن التنمية عملية إرادية ونابعة من صلب المجتمع. ولعل المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم من أكثر المنظمات التى تنتمى إلى مثل هذا التعريف، وإن أضافت بُعدًا أمنيًّا عائمًا على العملية التنموية بقدر خاص (انظر التقرير العام للمنظمة).

غير أنه من الملاحظ أن التعبير - التنمية - حين يدخل إلى نطاق عالمى، وتسهم فيه

منظمات عالمية مثل الأمم المتحدة، سرعان ما يدخل إلى دائرة التعريفات والتقسيمات، وتتعدد فيه إعادة نحت المصطلحات. ولم يَحُلْ سيل المقالات والكتب التى نُشرت حول التنمية - كما يشير أحد الباحثين الجادين "Think Tanks" - دون غموض المفهوم؛ فقد غلب استبدال مصطلحات جديدة بالمصطلحات السابقة، إما بدون الإشارة إلى الأنظمة النموذجية للنظرية والمنهجية، وإما - وهذا أسوأ - إحلال عبارات فصيحة محل المفاهيم الاقتصادية التى تظل محدودة. وباختصار، فإن ذلك كله - بشهادة أحد خبراء اليونسكو - أسهم تمامًا فى غموض الفكرة أو المفهوم.

وبعيدًا عن التعريفات الكثيرة للتبعية التى تمنحها شتى المقالات والدراسات، فإن التنمية لا تخرج عن أنها عملية إرادية واعية يجب التنبه إليها هنا فى بلادنا المتخلفة، على أن تكون استراتيجيتها نابعة من حاجة المجتمع، مما يجعلها - فى الأصل - تستجيب دائمًا لطموحاته فى إحداث التغييرات فى النظم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.. ثم يضاف إلى ذلك كله، وربما قبله، التنبيه إلى ما يمكن أن تصطدم به عملية السعى إلى إحداث التنمية فى بلادنا برغبات الدول الكبرى.

وهنا تتحقق مفاهيم التنمية وتتخذ بُعدًا جديدًا، هو البُعد الأمنى، بما يشير إلى أن التنمية لم تعد وعيًا بحاجة المجتمع فقط، أو تنبهًا لتطوره فى المجال الاقتصادى أو الاجتماعى فقط، أو حتى التنبه لخطورة دور العالم أو تأثير الإعلام، وإنما صارت شيئًا مغايرًا تمامًا.

إن التنمية فى عصرنا أصبحت - فى أهم وجوهها - هى الأمن القومى العربى، أو التنبه إلى التبعية التى يمكن أن تتحدد أثناء تحقيق التنمية عندنا بين أدواتها التكنولوجية التى يجب أن تحافظ على التجربة فى المجال الحربى، حتى إن إحدى الدراسات التى تنبهت إلى مثل هذه العلاقة مبكرةً، أشارت إلى هذه العلاقة بين العلم والتقنية وتدعيم الأمن القومى، أو دور العلم والتقنية فى تدعيم الأمن القومى، وراحت تفترض شروطًا أو محاور للحفاظ على الأمن القومى، من أهمها: التنبه إلى التقنية الخاصة بالحرب المضادة للعصابات، والتقنية الخاصة بالحرب الهجومية

الدفاعية ضد عدو محلى ذى مستوى تقنى متوسط، أو التقنيات الخاصة بالحرب (التقليدية والثورية) ضد عدو يمتلك تقنيات عالية.

وهذا المفهوم الأخير هو الذى يعمّق العلاقة بين التنمية والتبعية.

إن التعريفات النظرية الكثيرة عن "التنمية" وقد أصبحت بالعشرات ـ وربما المئات ـ أصبحت ذات أهمية قصوى فى ربطها بالأمن القومى.

ونظرة عَجْلَى على التقارير المعاصرة التى تصدر عن المراكز السياسية والعالمية، ترينا أن مفهوم التنمية الآن لم يعد فقط الاقتصاد أو العلم أو الإعلام.. وما إلى ذلك، وإنما أصبح شيئًا مغايرًا تمامًا لما هو شائع.

يشير إلى هذا كله وينبه إليه، تقرير اليونسكو المنشور بباريس (شتاء 1994)؛ فحين نحاول الاقتراب من مفهوم جديد للتنمية، وقد أصبحت من أهم السمات الفارقة بين شمال غنى وجنوب فقير يحاول اللحاق بمنجزات الشمال، نكتشف أن هذه الفجوة العميقة بين الشمال والجنوب لا يمكن اجتيازها دون مؤثر العلم..

العلم هو العنصر الوحيد الأخير المرشح للتغلب على تخلفنا، ومن ثم اللحاق بالدول المتقدمة، حيث إن اقتراب الواقع الحضارى يَحُول دون استغلال طرف لطرف، أو استقلال طرف استقلالاً مصيريًا دون ممارسة هذه الحرية فى حياة كريمة بعد تحقيق مثل هذا الاستقلال السياسى.

ويشدد التقرير على أن العلم، بشكل مجرد أو محايد، لا يصبح كافيًا.. فالعلم الذى يجب التنبه إليه هو العلم الذى نتعرف على أسراره ونمارس ما يُكْشَف عنه من دول الشمال.

التنمية والوعى

لم تعد التنمية الآن الاقتصاد فقط، أو العلم والإعلام وما إلى ذلك مما يؤكد شروط التنمية وتحديثها، وإنما أصبحت التنمية ـ بشهادة مدير اليونسكو نفسه فى تقرير المنظمة الجديد ـ هى التنبه إلى تلك الفجوة القائمة بين الشمال (الغنى) والجنوب (الفقير) بالشكل الذى أصبح عليه العالم الجديد اليوم "بنظامه" وطموحه.

لم تعد التنمية استقبال المعونات من الدول الغنية، فمصر من أكثر الدول الآن استقبالاً للمعونات الأمريكية (بعد كامب ديفيد)، وربما لم تسبقها دولة إلى ذلك غير إسرائيل، وإنما أصبحت التنمية هى القيمة المعرفية لأدوات العصر، وهذه القيمة لا تحتاج إلى "الذكاء" بمعناه العام، وإنما إلى ما هو أبعد من الذكاء الفطرى العام.

التنمية الآن أصبحت تحتاج إلى الوعى..

والوعى الآن هو أن يعرف الفرد حقيقة نفسه وما تنطوى عليه من دوافع ونزعات ومشاعر ورغبات، وما يمتاز به من إمكانات واستعدادات، وما به من أوجه القصور والعيوب، وما يحيط به من ظروف، وما لديه من الأهداف التى يبغيها من قيامه بنشاطه.. وبعد ذلك كله، مدى احتمال نجاحه فى تحقيقها.

الوعى الآن يرتبط بأشياء كثيرة غير تقليدية، ومن ثم فإن الأخذ به يرتبط بشروط التنمية كما هى واقع محدد فى هذا العالم.

ولابد أن نسرع بالقول هنا من أن هذا المصطلح على ما فيه من ذاتية، فإنه عند اكتسابه لابد وأن يأخذ معنًى جماعيًا.

كيف يتم ذلك؟

بأن يرفض أن تكون العلاقة التى يريد فيها الفرد اكتساب الوعى منفصلةً عن واقع السنوات الأخيرة من القرن العشرين، وعن شروط دول الشمال الغنية، وعن الوعى بما يريده منا النظام (الاستعمار) العالمى الجديد.

إن اكتساب الوعى هنا يتعدى مجرد الحصول على مساعدات التنمية من دولة كبرى إلى دولة صغرى فى إطار هذا النظام الجديد، أو تحت ضغوط سياسية أو اتفاقات سياسية معينة، فهذا ما يشرع فيه عدد كبير من البلدان الغنية بقصد الإبقاء على الوضع القائم كما هو دون تحريكه..

فالمطلوب هنا ليس الحصول على السمكة - كما يقول المثل الأسيوى - إذ يكون الحصول على تلك السمكة مرهونًا بدرجة "المعرفة" التى يمكن بها الحصول على سمك كثير.

ليس المهم أن تمنحنى معونة وقتية مرتبطة بشروط وحسابات، وإنما أن تكون المعونة مثمرة، بحيث تكون فاعليتها للداخل أكثر من مكاسبها للخارج.

ليس المهم هنا منح السمكة، وإنما معرفة الطريقة التى أستطيع بها أن أحصل على السمك من هذا البحر المترامى أمامى. يقول مدير اليونسكو الأسبق، «فيديريكو مايور»، معبّرًا عن هذا بقوله:

«إن البلدان الغنية اتجهت دومًا إلى تقديم السلع للبلدان النامية بدل إمدادها بوسائل تمكّنها من تحقيق الاكتفاء الذاتى»!

التنمية وشروطها

فإذا نظرنا إلى ما يحدث فى العالم حولنا، فسوف نكتشف أن الدول الكبرى لا تمنح سلعًا عينية بالضرورة، وإنما تمنح سلعًا مشروطة بإرسالها لنا.. سلعًا تنتمى إلى "التكنولوجيا الجديدة" وأسرارها التى تظل هناك دون أن نعرف عنها أى شىء.. فإذا أعدنا النظر أكثر، سنرى أن "المَنْح" يمكن أن يتحول فى حالة السؤال واللجاجة إلى "مَنْع"، فليس من شروط التنمية أن تَسأل، وإنما أن تَحصل عليها، وأن تَدفع شيئًا ما: نفطًا، ماءً، تنازلات..

ولا حاجة لنا إلى أن ننظر حولنا ونحدق لنعرف أمثلة كثيرة لما يجرى من خلال رصد علاقات الدول الكبرى بالدول الصغرى (أو التى يُطلق عليها نامية)، فهى علاقات ترتبط فى الظاهر بالمساعدة فى "التنمية"، وفى الباطن بالإيغال فى التبعية.. بل إن التبعية كما تَغَيَّرَ العالم كله، تغيرت هى أيضًا، وأصبح لها منطقها الخاص بها، وقوانينها الجديدة.. وسوف نضرب مثالاً واضحًا ورائجًا الآن فى العالم الثالث كله..

أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية فى أحد الأعوام أنها سوف ترفع الحظر عن تصدير شرائح الكومبيوتر، وتضيف بعد ذلك - من خلال الرئيس «بيل كلينتون» - أن هذا الحظر مرهون بشىء واحد، هو "الاحتفاظ بمفاتيح فكّها".

وقبل أسبوع واحد من هذا الإعلان - أول فبراير 1993 - أعلن البيت الأبيض أنه

تمت الموافقة من الجهات المعنية على تصدير نوع معين محدد فقط من شفرات تعمية الاتصالات الصوتية والمرئية، على أن يتم حفظ نسخ من هذه المفاتيح تحت تصرّف وكالة الأمن القومي الأمريكي التي أشرفت على صنعها.

معنى ذلك أن شفرات التنمية، أو "مفاتيح" التكنولوجيا الممنوحة، إنما تكون مرهونة بمدى تقبّل الطرف الغربي، بحيث تُمنح التكنولوجيا بشَرط المانح، وليس من منظور الممنوح الذي يتقبلها بناءً على تَفَهُّم درجة التنمية المطلوبة.

التبعية وشروطها

إذًا، فالتبعية هنا لها شروطها. وبعيدًا عن درجة وعينا بطبيعة الهدف عند صانع التكنولوجيا الغربية، فمن المؤكد أن ما يُمنح لبلد كمصر لا يبتعد قَطّ عن تصوُّر الطرف الآخر. وفي دراسة هامة لـ «دينا جلال» بعنوان (المعونة الأمريكية لمَنْ؟) نُشرت بـ "الأهرام الاقتصادي"، تتأكد لنا عدة تصورات لمانح المعونة.. وعلى سبيل المثال، فإن المِنَح التي وعدت الولاياتُ المتحدة مصرَ بها منذ السبعينات، تمثل بالأساس مكافأة على خططها الهادفة لإعادة تشكيل اقتصادها وتأمين عدم استعادة الاتحاد السوفييتي مكانته السياسية والاقتصادية في مصر، ومن ثم فإن هذه المعونة تتجاهل - بالقطع - أهداف التنمية المصرية. وتؤكد الباحثة أنه قد عَكَس توظيف المعونة الأمريكية في بعض القطاعات تجاهُل أولويات التخطيط. وتضرب مثلاً على ذلك بموقف هذه المعونة من التوسع الزراعي الأفقي الذي رفضت المساهمة فيه بشكل قاطع.

الأكثر من ذلك، أن باحثة أخرى (أماني قنديل في دراستها لنَيْل درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة - عام 1985 - عن "صنع السياسات العامة في مصر")، تشير منذ فترة مبكرة إلى أن القوى الخارجية التي شاركت في صنع السياسات العامة في مصر، ومنها الولايات المتحدة الأمريكية، قد مارست ضغوطًا على مصر في فترة اشتداد الأزمة الاقتصادية من أجل الرضوخ لمطالبها.

وللقارئ أن يتخيل القدر الذى يمكن أن تذهب إليه هذه القوى، والتى نجحت - فيما يبدو فى مصر - إلى حد كبير، خاصة حين تتوافق مصالح جماعات الضغط والقوى الداخلية مع مطالب القوى الخارجية.

وإذا كان الأمر كذلك فى السيطرة على النشاط الاقتصادى والنشاط الاجتماعى، فإن ذلك أدعى إلى استخدام التكنولوجيا التى تُمنح غالبًا إلى البلاد الأقل نموًّا، حيث تُستخدم الآن منظومة التكنولوجيا ليس فقط فى القيود المفروضة على استخدام حقوق الإنتاج - مثل اشتراط استيراد آلات وخامات الدول المانحة لحق الإنتاج - وإنما، كما رأينا، فى نقل التكنولوجيا المسلوبة منها شفراتها!

إن الواقع العملى الآن يؤكد أن استخدام التكنولوجيا فى بلاد النفط أو بلاد الماء، مرهون دائمًا بطبيعة هذه التكنولوجيا وأسرارها.

وعلى هذا النحو، فبعد اكتشاف توافر وسائل أخرى للتنمية عوضًا عن التكنولوجيا الأمريكية فى بلد كمصر، أو عدم ملاءمة بعض الحلول التى يطرحها التوجه التكنولوجى الأمريكى لظروف البيئة، أو ارتفاع التكلفة الاستثمارية للمشروعات المعتمدة على التكنولوجيا الأمريكية فى برنامج المعونة (دينا جلال، المرجع السابق، ص 195) وما إلى ذلك، وصلنا الآن إلى نوع آخر من هذه الاكتشافات التى تشير إلى أن ما نستورده من هذه التكنولوجيا فى بعض المجالات المضطرين إليها، تكون مرهونة بدرجة عدم السيطرة على أسرارها، ومن ثم يظل لهذا العنصر التكنولوجى عامل ضغط اقتصادى أو سياسى!

كل هذا نتحدث عنه دون أن نقترب من تأثير ذلك على الأمن القومى المصرى حين تتحكم فى آلياته تقنية غربية غامضة، ناهيك عن زيادة الآثار السلبية على الخريطة الاجتماعية فى مصر، مما يدخل فى السياسة التى تتبعها معنا الولايات المتحدة الأمريكية، وهى سياسة التعمية التكنولوجية تجاه مقدراتنا.

التعمية الإسرائيلية

ولا يمكن أن تكتمل الدائرة دون أن نتمهل أكثر عند موقف إسرائيل من التقنية الأمريكية وأسرارها.

فما كادت المصادر الأمريكية تعلن سياستها التقنية تلك، حتى خرج علينا الموساد الإسرائيلى مؤكّدًا على الموقف بأنه ليس مستعدًّا لأن يفتح اتصالاته للأمريكيين، وهو يملك تعمية إسرائيلية يقال إنها أمنع كثيرًا من التعمية الأمريكية.

والسؤال الذى يُطرح هنا: هل سمعنا نحن عن جهة أو جهاز عربى يُبَطِّن سعيَه إلى إنشاء برمجيات عربية كمبيوترية تملك شرائح تعمية خاصة بها؟

وما يلفت النظر بعد ذلك، أن نائب الرئيس الأمريكى «آل جور» قد أعلن فى 11 من فبراير عام 1993، أن أمريكا تُخفى علامات التعمية التكنولوجية الخاصة بها بقَصْد ألاّ تُستخدم من قِبَل المجرمين!

أىَّ مجرمين يقصد النائب الأمريكى فى وقتٍ يظل استخدام هذه التعمية فيه عن عَمْد من أخطر جوانب الهيمنة الغربية على مقدرات العالم الثالث؟!

يحدث ذلك كله، ولا نُحَرِّك ساكنًا لتلافى الآثار السيئة التى ستَحيق بنا جميعًا من خلال اتفاقية "الجات"، حيث يتحرك الغرب - وفى مقدمته فرنسا - ليحصلوا من الغرب الأمريكى على "استثناء ثقافى" ليحولوا بينهم وبين "الهيمنة" الأمريكية على مقدرات أوروبا.

وما يلفت النظر هنا، أن رواد عصر التنوير العربى عندنا كانوا كثيرًا ما يشيرون إلى العلم كوسيلة للنهضة والحراك الاجتماعى، فإذا بنا اليوم أمام علم ومنجزات تكنولوجية تُخْفِى شفراتها قبل أن ترسل إلينا!

ولا بأس من أن تخفِى التكنولوجيا مفاتيحها، سواء أكنا فى دول المَشْرِق (الأسلحة الضخمة والمفاتيح الضائعة، خاصة بعد حرب الخليج الثانية)، أو فى المغرب حيث "الهيمنة" التكنولوجية المشروطة بالاحتفاظ "بمفاتيح فكها" كما نعلم.

وما زالت قضية العلاقة بين التنمية والتبعية تفرض نفسها. والقضية وإن تحددت فى محظورات نقل التقنية وتوظيفها فى الجانب العربى، فإنها تتخذ أبعادًا أكثر خطورة حين يتعلق الأمر بإسرائيل.

إن إسرائيل هى طليعة القوى الغربية فى المنطقة العربية، وهذه حقيقة ما زالت قائمة رغم ترديدها كثيرًا، وتَجرى البرهنة عليها أكثر من خلال تاريخ الصراع العربى/ الإسرائيلى.

وفى ضوء شروط بيع التكنولوجيا ـ كما أعلنتها الجهات المعنية فى الولايات المتحدة الأمريكية ـ يمكن التنبه، أكثر، إلى الدور الذى تلعبه إسرائيل الآن فيما يسمى بالمشاريع الكثيرة التى تَرِد هذه الأيام بين إسرائيل والمنطقة العربية.

التبعية وإسرائيل

إن نظرة سريعة إلى الواقع العربى الآن، تُرينا صورة هزْلية قَلَّمَا مرت بها المنطقة العربية فى تاريخها الطويل، وخاصة منذ اتفاقية "كامب ديفيد" فى نهاية السبعينيات، وتحرُّك عدد كبير من المثقفين ورجال الأعمال المصريين تحت شعار تحريك "السلام البارد" منذ هذه الاتفاقية، والسعى إلى إحداث ما أسموه "السلام الساخن"..

تُعْقَد المؤتمرات، وتدور المداولات، وتُكتب المقالات (تتزعم الحركة على المستوى الصحفى مدرسة "أخبار اليوم") بهدف الإفادة من التكنولوجيا الإسرائيلية..

وينتقل الحديث الغريب من ضرورة الإفادة من التكنولوجيا الإسرائيلية (!) إلى مشاريع كثيرة تُطرح هنا وهناك لتأمين ـ كما تُرَدِّد مصادر عربية وإسرائيلية ـ الاندماج والتداخل الاقتصادى فى الشرق الأوسط. ويتخذ الحديث المتحمس للتعاون أسماء كثيرة نسمعها هذه الأيام، من مثل "التطبيع" أو "السوق الشرق أوسطية" أو "تنمية" الشرق الأوسط.. إلخ.

وتعلن إسرائيل بنفسها أنها تقيم مع مصر المشروعات التكنولوجية، خاصة فى مجال الزراعة وإفادة الأراضى الزراعية لتحقيق صيغة للتعاون، وهو أمر ينال من الأمن المصرى، ويحقق على الجانب الآخر لونًا من ألوان التنمية الاقتصادية التى تحتاجها إسرائيل فى هذه الحقبة من تاريخها. يعلق أحد المثقفين الواعين على ذلك قائلاً:

«إن ما يحدث من إسرائيل ويجد استجابة منا، لا يحقق فحسب الاعتراف العربى والفلسطينى الشامل بمشروعية دولة إسرائيل التى قامت على اغتصاب جزء من الأرض الفلسطينية عام 1948 داخل حدود آمنة ومعترف بها.. ولكن يوفر لها مقومات الحياة الرغدة من الموارد العربية، ويفرض نظامًا "شرقَ أوسطىًّ" استعماريًا جديدًا يحفظ المصالح الاستعمارية للولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها» (انظر: **اليسار**، 4/ 3/ 1994).

السلام الساخن

وبدلاً من أن تشهد المنطقة العربية تقدمًا فى مجال الصناعات الكومبيوترية والتعرف على الشفرات العلمية لإعادة تطوير جديد لمفهوم التنمية العربى، إذا بنا أمام تحركات عربية نسمح بها عندنا في بعض الصحف، ولدى بعض النواب فى المجالس النيابية، أمام تحالف أمريكى إسرائيلى، دون تنمية عربية واعية.

يحدث ذلك كله ومفهوم التنمية التقليدى تَغَيَّر، ففى مواجهة الدور المحورى المتنامى للغرب أمامنا، لا نهتم بتطوير نشاطنا فى الصناعة والزراعة والأمية والتعليم والمؤسسات البحثية بشكلٍ واعٍ مستقبلى، وإنما على العكس، فإن وعينا ونشاطنا الحضارى المعاصر ليس له أى تأثير واضح فى مختلف قطاعات التطوير التكنولوجى الحديث، ولا - حتى - الإطار الاقتصادى، إذ إن ما يحدث من تخبط لدينا يمثل عقبة فى وجه التطور العلمى من حيث اعتمادنا الرئيسى على التكنولوجيا الغربية التى نحاول فى مشاريعها بواسطة شركات أجنبية. تقول آخر فقرة فى تقرير اليونسكو:

«لقد أدى هذا الأمر، إضافةً إلى قلة الاستعانة بالأسرة العلمية العربية وضآلة المبالغ المخصصة لها، إلى إضعاف الطبقة الذاتية فى حقل البحث والتطور عندنا».

القناع الدينى

المسيحية الغربية

لم نعد فى حاجة لطرح السؤال القديم:

هل حاول الغرب تزوير التاريخ لتحقيق أحلامه الإمبريالية؟

وبشكل أكثر وضوحًا:

كيف حاول الغرب استخدام "المسيحية الغربية" للسيطرة على العالم باسم الدين؟

الإجابة نجدها فى التاريخ القديم، كما نجدها فى العصر الحديث.

والإجابة تتحدد فى أمثلة شتى، نكتفى منها هنا بالإشارة دون التعيين، إذ يبدو أن القضايا التى نتناولها الآن أصبحت من البدهيات، خاصة عند مسيحيى الشرق أو الغرب، بحيث لم نعد فى حاجة لإثباتها.

فلنتمهل - أولاً - عند التاريخ القديم قبل أن نصل إلى التاريخ الحديث.

(1)

الإجابة لم تعد جديدة فى ظل وجود نزعة سعَى فيها الغرب - منذ الإمبراطورية الرومانية - للسيطرة على العالم. أصبحت "مملكة الله" تسعى للسيطرة على مملكة العالم من خلال توسُّعها، مستخدمةً فى ذلك أدوات الدين وعناصره، وحاولت الاستفادة بالدين المسيحى، ولا سيما الرموز التى يمكن توظيفها لدى "المؤمن" لإحكام السيطرة على العالم.

تسعى الكنيسة الغربية إذًا لتملك ما يمكنها به تشكيل الإنسانية الغربية لحضارتها الحديثة. ونستطيع أن نجد جذور هذه الشهوة الغربية للسيطرة على العالم/ الشرق - بوجه أخص - في مثال واحد يستعار من التاريخ الذي يُسْعَى لتزويره، ونقصد به تأثير المسيحية الأولى، وكيف سعى الغرب - ممثلاً في الفاتيكان - منذ وقت مبكر على ظهور المسيحية، لاستخدام هذا الدين للسيطرة به على العالم.

لقد حاول اليهود تزوير التاريخ في تحويل "مخطوطات البحر الميت" - كما لاحظ الباحث المصري «أحمد عثمان» - التي حصلوا عليها لتأكيد موقف اليهود منذ فترة مبكرة في المقاومة الرومانية.. ومُلابسات هذه الفترة تشير كيف انزعج الفاتيكان، خاصة فيما يتعلق بتاريخ ظهور المسيح؛ إذ إن الكنيسة الغربية حصلت على سيادتها بناءً على رواية نشرتها منذ القرن الثالث تقول: إن «بطرس» تلميذ المسيح جاء إلى روما وأعطى كهنتها تفويضًا حصل عليه من المسيح نفسه، يعطي الكنيسة الغربية - ممثلةً في الفاتيكان في هذا الوقت - الحق في إصدار الأحكام باسمه.. فلو ثبت أن المسيح عاش منذ فترة سابقة - كما يدّعي اليهود - لسقط هذا الادعاء. وقد كَرَّسَ الإمبراطور «قسطنطين» لهذا في القرن الرابع، فاضطهد المصريين وأحرق الكتب التي تختلف مع تفسير روما، وهو ما يفسر إخفاء أو دفن الكثير من الكتب المصرية ومخطوطاتها خوفًا من أن يفعل ذلك الرومان. وهكذا اختفى العديد من الأوراق والكتبَ المصرية القديمة التي ظهر بعضها في العصر الحديث تحت اسم "مخطوطات نَجْع حَمّادي" التي راحت تكشف الكثير من الحقائق.

ومن هذا أنه حين كانت الكنيسة المصرية تقول إن القديس «مرقس» جاء إلى الإسكندرية عند منتصف القرن الأول الميلادي، فأصبحت الإسكندرية بمكتبتها الثرية المركز الرئيس للفكر المسيحي خلال القرنين الأول والثاني، فإن كنيسة روما تنبهت إلى هذا، إذ إن الزعامة على العالم المسيحي - الشرقي خاصة - لم تكن لتحدث إلا بتأكيد أن أفق المسيحية لم يتم قبل القرنين الثالث والرابع، كما أن الشريعة التي ارتكزت عليها شرعية كنيسة روما تقول إن بابا الكنيسة - وهو يمثل الكاهن الأعلى - يستمد سلطته من أنه ممثل السيد المسيح على هذه الأرض.

وهذا التمثل ـ كما تعبّر عنه كنيسة روما ـ جاء بناءً على تفويض أخَذَتْهُ عن طريق المسيح شخصيًّا، فهم يقولون إن السيد المسيح بعد قيامته فى اليوم الثالث أعطى تلميذه «بطرس» تفويضًا ليَخْلُفَهُ فى إمامة المسيحية، وأن «بطرس» سافر قبل موته إلى روما لينقل هذا التفويض شخصيًّا إلى كهنة الكنيسة هناك، حتى قيل إن مقر الفاتيكان كان قد بُنى على ضريحه فى وقت لا يوجد فيه أى دليل على سفر «بطرس الرسول» إلى روما، بل إن هناك ما يشير إلى أنه مات بالسجن فى نحو عام 40 م فى القدس!

وما يؤكد هذا، أن الكنيسة الرومانية ـ كما قيل ـ عمدت منذ القرن الرابع إلى استبدال مفتاح الحياة المصرى بشكل الصليب الرومانى، ليَظهر الصليب فيما بعد ويَشيع، بل وحاولت كنيسة روما مشروعًا من شأنه أن يهبها سلطة شرعية، وعندما رفض بعض رجالات الكنيسة هذا، نشرت كنيسة روما قصة تقول باختفاء «بطرس الرسول» من القدس ليظهر فى روما فيما بعد.. وليس هذا فحسب، بل راحت كنيسة روما تغلو فى هذا، حتى إن الفاتيكان راح يذيع "أنه تم العثور على عظام «القديس بطرس» مدفونة هناك" (هكذا!).

ورغم أن الرواية تحتاج إلى جهد علمى لتأصيلها، فإن مجرد ورودها فى كثير من المصادر الغربية يؤكد توجه كنيسة الفاتيكان لتأكيدها، ومحاولة الإفادة منها فى كثير من المواقف، خاصةً إذا تعلق الأمر بمكانة الكنيسة الغربية فى عالم اليوم، وكذلك فى مواجهة الكنيسة الغربية.

الأكثر من هذا، أن كهنة الفاتيكان تمادوا فى ذلك منذ القرون الأولى للميلاد حتى نهايات القرن العشرين، مرورًا بالعصور الوسطى ووصولاً إلى الوقت الراهن، تأكيدًا لهذا التوجه؛ لتصب المسيحية الغربية فى كنيسة الغرب، ولتصبح هى ـ فقط ـ التى تسيطر على العالم أجمع.

بَيْدَ أن العصر الحديث زاخر بهذه المحاولات التى تؤكد ـ من جانب هذه الكنيسة ـ أنها تسعى للسيطرة على العالم، ليس بالادّعاءات فقط، وإنما بالتحالف مع أى قوة لتأكيد هذا الموقف!

وهنا نصل إلى محاولات الفاتيكان أثناء الحرب الباردة للوصول إلى هذه الغاية، وذلك بالتحالف مع أجهزة المخابرات بهدف واحد، هو السيطرة على العالم.. على الأقل روحيًا.. وهي سيطرة لا تختلف عن السيطرة الإمبريالية، وإن تكن خطورتها تبرز أكثر حين نجدها في علاقات مريبة مع الأجهزة الإمبريالية والاستعمارية الجديدة في الغرب.

(2)

تحالفت قوى الفاتيكان مع أجهزة المخابرات الأمريكية إبان الحرب الباردة!..

هذه حقيقة لم تعد في حاجة إلى إثبات الآن.

والقصة تبدأ حين تنبهت الولايات المتحدة الأمريكية - ومخابرات "العم سام" تحديدًا - إلى تأثير الفاتيكان على العالم المسيحي الذي يسيطر فيه على قرابة 800 مليون كاثوليكي مؤمن.. ومن هنا سعَى مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية - «ويليام كيزي» - إلى الإيعاز للرئيس الأمريكي في الثمانينات - «رونالد ريجان» - بالإفادة من بابا الفاتيكان حينَ ذاكَ - «يوحنا بولس الثاني» - ذي الأصل البولندي.

والمعروف أن الاتحاد السوفييتي في هذا الوقت كان في طور التفكك، ومن ثم تركزت جهود وكالة المخابرات الأمريكية على دول الكتلة الشرقية، التي يَدين أغلب أهلها بالكاثوليكية، للإسراع بحالة التفكك والقضاء على الاتحاد السوفييتي. ويشير كتاب (قداسة البابا) لكلٍّ من «كارل برنشتاين» و«ماركو بوليتي» - والأول أمريكي والثاني إيطالي - إلى هذا التحالف الذي تم بين الرمز الكاثوليكي والرمز الأمريكي، والذي استمر يعكس نفسه في اجتماعات كثيرة للنَّيْل من الكتلة الشرقية، فضلاً عن بعض البلاد الأخرى التي كان يُخشى فيها من الخطر الشيوعي (مثل نيكاراجوا والسلفادور).

وتشير الأحداث أنه بعد أن تم التحالف مع رئيس الكنيسة الكاثوليكية والرئيس الأمريكي عبر وكالة المخابرات المركزية، بدأت أجهزة المخابرات الأمريكية تمنح البابا معلومات سرية هائلة عن الكتلة الشرقية - خاصة بولندا - لتسهم في ضرب الشيوعية.

وعبورًا فوق أحداث كثيرة، فقد تأكد أن بابا الفاتيكان منح تأييده الدينى وبَرَكته الرسولية للقوى البولندية المناوئة للاتحاد السوفييتى فى ذلك الوقت، وكثيرًا ما كان يرى - بل ويعلن - أن البابا كان يستقبل فى مكتبه العديد من المسئولين السياسيين البولنديين والمثقفين وممثلى الكنيسة والمعارضين هناك للنظام السوفييتى، وكثيرًا ما كان البابا يحث مجتمعيه على التمرد أكثر ضد الاتحاد السوفييتى مستخدمًا الدين، بل مستخدمًا - بوضوح - نفوذه الدينى لتعضيد القوى المناوئة للاتحاد السوفييتى، وكان هذا يُجاوِز التأثير الدينى إلى الإعلان الرسمى عن تأييد هذه الجماعات.

وقد أدى بابا الفاتيكان، بتأييد وثيق من المخابرات الأمريكية، دورًا فى صمود البولنديين ضد الحزب الشيوعى لأكثر من أربع سنوات.

لقد بدا واضحًا الآن أن من يؤثر فى ترجيح كفة الصراع بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الأمريكية قُوًى أخرى، وهى إن تكن دينية، لكنها لا تقل قوة عن القوتيْن الأخرييْن، ومن ثم يمكن أن نفهم معه كيف جندت وكالة المخابرات الأمريكية قوتها ووسائل اتصالاتها ووسائلها التكنولوجية لتقف إلى جانب البابا، حتى إن أخبار لقاء البابا بالرئيس الأمريكى كانت تذاع ويعلَن عنها من آن لآخر.

وحين أدرك الاتحاد السوفييتى صعوبة مواصلة الوقوف أمام القوة المناوئة له، فإنه سعى لاحتواء البابا، متصورًا أنه يستطيع أن يفعل ذلك قبل الولايات المتحدة الأمريكية، غير مدرك أنه تأخر كثيرًا فى ذلك. وقد بدا هذا واضحًا فى زيارة وزير الخارجية الروسى للفاتيكان فى مقره فى منتصف الخمسينات، وقد أعلن عن هذه الزيارة لدراسة كثير من المشكلات العالمية، وفى مقدمتها أوضاع المسيحيين الكاثوليك فى الاتحاد السوفييتى.

وعلى هذا النحو أدى البابا دورًا كبيرًا - من خلال وكالة المخابرات المركزية، وبالتعاون الوثيق المريب معها - فى القضاء على كفة الشيوعيين فى بولندا. فما كادت تصل الثمانينات إلى نهايتها، حتى بدا أن سكرتير عام الحزب الشيوعى - «ميخائيل جورباتشوف» - أصبح على وئام مع البابا ومع مطالبه وأحلامه كلها.

ولم يُعرف حتى الآن نوع الصفقة التى تمت بين بابا الفاتيكان ورئيس الاتحاد السوفييتى الجديد: ماذا تم فى اللقاءات بينهما؟ وكيف مهد لها «جورباتشوف» قبل ذلك بفترة؟ وما طبيعة العلاقة التى كانت قائمة بين البابا والولايات المتحدة الأمريكية قبل ذلك؟

وقد سقطت أوروبا الشرقية وبقية دول الاتحاد السوفييتى، ولكنها لم تسقط إلا بعد أسئلة كثيرة غامضة قامت بين بابا الفاتيكان والمسئول السوفييتى الجديد، وهى أسئلة لم يَشَأ الغرب الأمريكى أن يكشف النقاب عنها حتى اليوم!

ومن بين الأسئلة - وفى مقدمتها: ما هى الصفقة التى جرت بين الفاتيكان ووكالة المخابرات الأمريكية للإسراع بإسقاط الاتحاد السوفييتى؟

من المؤكد أن الغرب الأمريكى أفاد من الفاتيكان، غير أنه من المؤكد كذلك أن الفاتيكان حاول بدوره الإفادة أكثر من الغرب الأمريكى الصاعد.. لكن إلى أى مدى وُفِّقَ فى هذا؟.. لم يُجِبْ أيٌّ من المصادر حتى الآن على ذلك تحديدًا وبشكل أكثر دقة.

وتظل الإجابة الأخيرة متروكة إلى المستقبل.

وأشير عليك بالرجوع إلى كتاب صدر فى عام 1996 بعنوان (his Holiness)، والجدير بالذِّكْر أن المؤلفيْن تمتعا بالعمل قرب البابا ورحلاته الخارجية، كما تَمَكَّنَا من الاقتراب من المراكز الدينية أو السياسية فى الاتحاد السوفييتى والكتلة الشرقية وإيطاليا والولايات المتحدة الأمريكية طيلة عشرين عامًا، وعَمِلاً فى صحف ذائعة الصيت أكسبتهما مصداقية وقربًا من مناطق الأحداث (صدر تلخيص للكتاب بالعربية فى صحيفة "الأهرام"، 5 - 7 ديسمبر 1996).

أوراق و"مخطوطات البحر الميت"

ليس من المصادفة أن نقرأ فى الفترة الأخيرة لفظة "أسطورة" مقترنة بالمؤسسة السياسية لدولة إسرائيل، فالأستاذ «محمد حسنين هيكل» يطلق على كتابه الأخير منذ جزئه الأول عنوان (الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية)، و«روجيه

جاردوى» يطلق على كتابه الأخير الذى يكشف فيه زيف الأسطورة الصهيونية عنوان (الأساطير المؤسِّسة للسياسة الإسرائيلية)، وفيه شكَّكَ فى عدد من دعاوى الصهيونية ضد النازية، فراح يفصل بين صنع الأسطورة وزَيْفها، وحقيقة الواقع وسطوعه، من الميثولوجيا التى صنعها الصهاينة للسيطرة على العقل الغربى، ومن ثم الأراضى العربية.

والإمبراطورية المزعومة يعملون لها من النيل إلى الفرات بادّعاء ما نجده لنبى الله «إبراهيم» فى سِفْر التكوين، وهذه الأساطير - المزيفة أيضًا - كانت حديث عدد كبير من الصحف - ولا سيما الفرنسية منها، وبالأخص صحيفة "لوماتان" - حين تَحَدَّثَ عدد كبير من المثقفين عن الأسطورة، أو حين تَعَرَّض لها بعنف الأب «بيير» ليكشف زَيْفها فى معرض دفاعه عن «جارودى» وكتابه، إلى جانب عدد من الأكاديميين السابقين الذين سبق وأن رددوا ما قاله «جارودى» أخيرًا.

فى هذا المُناخ، لاحظنا الضجة التى حدثت حول نشر "أوراق - أو "مخطوطات" - البحر الميت" التى سعَى الصهاينة هذه المرة أيضًا إلى إخراجها بطريقتهم. وهى ضجة مستمرة منذ سنوات، ويشارك فيها عدد من الباحثين من شتى الجنسيات عبر "اللجان العلمية" التى سَجلت من أجل هذه المخطوطات أسماءَ باحثين أكثرهم من اليهود.

وعلى هذا، نعود إلى حلقة جديدة من حلقات محاولة صنع الأسطورة، أو تزييفها فى حالة وجودها. وربما كان أكثر مَن تعرض لها أخيرًا الباحث المصرى الذى يعيش فى لندن - «أحمد عثمان» - فى كتاباته التى راحت تتناثر فى أكثر من صحيفة قبل أن يحاول جمعها فى كتاب صدر فى القاهرة، وربما كان من المهم أن نعرض لعنوان الكتاب قبل أن نصل إلى أهم ما يُثار حوله من تزييف الأسطورة، وهو تزييف - كما سنرى - لا يتوقف عند الدور الصهيونى فى ذلك فقط، وإنما - أيضًا - إلى دور الكنيسة الغربية نفسها التى سعت إلى هذا التزوير ليس من أجل التحالف مع الفكر الصهيونى فقط، وإنما من أجل استخدام هذه المخطوطة للسيطرة على العالم المسيحى تحت اسم "المسيحية الغربية"!

فما هى حكاية عنوان "مخطوطات البحر الميت"؟

هذا العنوان/ الكتاب يطرح من الأسئلة أكثر مما يطرح من إجابات، وهى أسئلة حرص فيها صاحبها «أحمد عثمان» أن تكون من نوع الأسئلة التى يحسن طرحها، والتى كُتبت فى الأصل بعد معاناة علمية، ومن ثم فإنه بقدر ما يوفَّق فى طرح السؤال، بقدر ما يقربنا من يقين الإجابة.

وأول هذه الأسئلة التى يجب طرحها: هل حاول اليهود تزوير هذه المخطوطات كجزء من محاولاتهم الضخمة لتزييف كتابة التاريخ؟

نحن لا نستطيع تلخيص الكتاب، وإنما سنحاول التوقف عند بعض الإشارات التى تؤكد المدى الذى ذهب إليه اليهود فى هذا.

إن عنوان "مخطوطات البحر الميت" يطلَق على مجموعات المخطوطات القديمة التى تم العثور عليها فى ما بين عامىْ 1947 و 1956 داخل كهوف الجبال الواقعة غربىّ البحر الميت، فى مناطق "قمران" و"مربعات" و"خربة ميرد" و"عين جدى" و"مسادا"، وكان للعثور على هذه المخطوطات تأثير هام فى تفكير الباحثين اليهود الذين بذلوا جهدًا كبيرًا لتحقيق أهدافهم بتزويرها، خاصة أنه ما إن نشبت حرب 1967 حتى سقطت الضفة الغربية تحت السيطرة الإسرائيلية، ومن ثم متحف القدس الذى به المخطوطات، واستطاع بعض قادة إسرائيل - «إيجال يادين» - الحصول على أغلب الوثائق.. ومن هنا وصلت إلينا فى هذه المخطوطات إشارات مريبة:

- لأن الإسرائيليين الذين حاولوا أن يقيموا دولة إسرائيل، يبحثون لها عن أصل تاريخى يؤكد وجودهم فى الأرض التى اغتصبوها.

- ولأن كتابات مَن سمُّوا بـ "جماعة العيسويين" فى قمران، والتى كانت تهاجم قيادة الكهنة والدولة اليهودية التى قضى عليها الرومان، كان غريبًا أن تعلن عن أن هذه المخطوطات تؤكد أن كتابات الماسادا "الجماعة الأخرى" - التى قيل إنها موجودة ومكتوبة فى هذه المخطوطات! - تعبّر عن الكفاح والتضحية بالنفس فى سبيل الدفاع عنهم.

وقد نجح اليهود فى دفع بعض أساتذة جامعة كاليفورنيا إلى القول بمثل هذا. يقول «أحمد عثمان»: «وهكذا نجد أن الأهداف السياسية تلعب دورًا كبيرًا فى تزييف الحقائق التاريخية وتضليل الباحثين، ولا أعتقد أن واقعة يكون الشاهد الوحيد عليها الجنرال "إيجال يادين" يمكن اعتبارها قصة حقيقية».

إن اللجنة التى شُكلت للإشراف على مخطوطات قمران اتسمت بطابع غريب فى تشكيلها؛ فقد كان من العادة أنه عند فقدان أحد أعضاء اللجنة، يحل مكانه شخص آخر يُعَيَّن بدلاً منه حتى يظل مجموع الأعضاء ثمانية، غير أن الذى عُيِّن رئيسًا للّجنة كان أول مَن غَيَّر هذا النظام عندما سمح بضم عدد من الباحثين اليهود إلى اللجنة التى زاد عددها إلى 20 عضوًا بعد ذلك.. إلا أن هذا الإجراء لم يعد كافيًا فى نظر هيئة الآثار الإسرائيلية التى صارت لها السيطرة على متحف القدس وكل ما فيه من مخطوطات البحر الميت، فلم تلبث إسرائيل - فيما بعد - أن تخلصت من «استروجنيل» رئيس اللجنة نفسه لتضيف إليها عددًا آخر من اليهود أيضًا.

ويلاحَظ أن اليهود قاموا فى فترة من الفترات بتصوير بعض الوثائق وتسريبها خارج إسرائيل، لكن بعد التغيير فيها. وفى هذا نلاحظ أن «يادين» راح يؤيد كلاً من الباحثين الذين توصلوا إلى أحداث تؤكد ما يذهب إليه اليهود اليوم، فقد أكد أحد الباحثين - على سبيل المثال - أن الديانة الحقيقية هى ديانة المعبد، وأن المسيح لم يكن سوى تلميذ فى جماعة يهودية ولم يأتِ بتعاليم جديدة، إلى غير ذلك.. بل ويشير إلى أن بعض الرسل - كـ «بولس» - لم يكن سوى عميل لسلطة الاحتلال الرومانية (هكذا)، وهو ما سنعود إليه فيما بعد.

وظل «يادين» يؤيد هذا، و كان السبب أن "التزوير المتعمَّد بلا شك هو تحويل مخطوطات قمران من دليل على فشل يهودية الكهنة وحكمهم، لتصبح رمزًا قوميًّا لبطولتهم فى مقاومة الاحتلال الرومانى»!.. والأهم من هذا أنْ راحت التقارير الأكاديمية تؤكد التزوير، وأن الحركة المسيحية التى انتشرت بين الأمم لا تمثل سوى هرطقة خارجة عن الشرعية الكهنوتية تَزَعَّمَها «بولس الرسول»!

وعلى هذا النحو تحولت الأفكار السياسية الواضحة لـ «يادين» - عبر الشكل الأكاديمى - إلى حقائق مدموغة بالتزوير الصريح الذى سعى إليه اليهود لتأكيد ما يريدون فى إعادة كتابة التاريخ القديم بما يخدم أهدافهم الاستيطانية الجديدة، بل وإعادة كتابة (العهد الجديد) «بشكل يتفق مع هذا المعنى، ويزيل أى ذِكْر لمسئولية الكهنة اليهود عن موت المسيح باعتبار أنه مُعادٍ للسامية».

ويستطرد الكتاب فى سرد طرق العثور على مخطوطات قمران، وبعدها مخطوطات نَجْع حَمّادِى فى صعيد مصر، وكلها تشير - من خلال عرض باحثٍ واعٍ هو «أحمد عثمان» - كيف وفر اليهود ما استطاعوا من الحِيَل والطرق العنيفة لتأكيد ما يريدون من التزوير لترسيخ قواعد أقدام جماعات اليهود بإرهابهم وأهدافهم الاستيطانية الاستعمارية فى المنطقة.

وغير بعيد عنا ما قرأناه فى الأشهر الماضية من تسلل عدد كبير من الأثريين الإسرائيليين إلى المناطق الأثرية فى مصر، ومحاولة العبث بنقوش كثير من الآثار المصرية فى أكثر من موقع أثرى فى الشمال أو الجنوب قبل القبض عليهم، غير أننا لم نعرف مصيرهم ولا المدى الذى انتهوا إليه فى تزوير التاريخ المصرى نفسه لإعادة وضع جماعات اليهود الآتين من الغرب فى خارطة التاريخ القديم، ومن ثم الجديد.

غير أن التزوير لم يتوقف عند اليهود فقط، وإنما امتد إلى كنيسة روما منذ أن تحققت لها السيادة السياسية بعد اعتناق الإمبراطور «قسطنطين» المسيحية فى بداية القرن الرابع؛ فقد قامت بعملية تزوير أخرى عن طريق حرق الكتابات المتعارضة مع تعاليمها المرتبطة بالإمبراطورية، وكانت الرغبة فى السيطرة وبسط نفوذ الكنيسة فى روما دافعًا للتخلص من الكثير من الوثائق بحرقها وتزوير ما بقى منها.

قناع المُخادع

(أثينا السوداء)

كوكبة ضخمة من المثقفين المصريين امتلأت بهم قاعة المجلس الأعلى للثقافة فى نهايات القرن العشرين، ولم يكن ليستطيع أن يجمع هذا العدد الضخم إلا "دينامو" الثقافة الآن «د. جابر عصفور»، فقد شهدنا حضور الدكاترة «حسن حنفى» و«أحمد شوقى» و«جاب الله على جاب الله» و«مجدى يوسف» و«مصطفى فهمى» و«أحمد مستجير» و«شهيدة الباز» و«أحمد محمود» و«شوقى جلال» و«يونان لبيب رزق» و«لمعى المطيعى» و«فتحى الريس» و«سامى خشبة» و«فاروق القاضى» و«فاطمة موسى»، كما رأينا فى الصفوف الأولى «أنور عبد الملك» و«الطاهر مكى» و«أحمد درويش» وغيرهم.. والمناسبة كانت حضور الأستاذ «مارتن برنال» ليلقى محاضرة عن كتابه (أثينا السوداء) الذى وجد مناقشات ومعارضات كثيرة فى الغرب، حتى إن الجامعة التى ينتمى إليها الآن ترفض نشر كتابه!

(1)

فلنُشِرْ إلى الكتاب وصاحبه قبل أن نعود إلى موقف المثقفين.

المعروف أن «برنال» أستاذ فى جامعة "كورنيل" بالولايات المتحدة الأمريكية (وكان من قبل متخصصًا فى العلوم السياسية والإدارية بجامعة "كمبردج" بإنجلترا)؛ أى إنه من أصول إنجليزية، ويمتّ فى أحد عروقه إلى الجنس اليهودى (هل لهذا أهميته هنا؟)، لكنه يحمل من التقاليد الإنجليزية، والحفز العلمى الغربى

المستمر، فضلاً عن اقترابه من المجال السياسى، ما يضع كتابه فى مكانة محددة اليوم. فلنقترب أكثر من الكاتب قبل أن نتمهل عند الكتاب.

إن الكاتب، وهو نموذج ـ هنا ـ لمؤلفين انتهجوا هذا النهج للحفر فى التاريخ القديم بطريقتهم الخاصة، لا تفلت حياته من علامات مريبة إلى حد بعيد، فهو ليس من فئة الدارسين الكلاسيكيين التقليديين ـ كما لاحظ فى دراسة مبكرة «د. مصطفى العبادى» ـ ولا كان إعداده الأكاديمى فى مجال الدراسات اليونانية القديمة.

لقد تَحَدَّد تخصصه الأساسى منذ فترة مبكرة فى دراسات الشرق الأقصى، والصين بصفة خاصة، فبعد أن أكمل تعليمه الجامعى فى جامعة "كمبردج" ببريطانيا، عُين زميلاً بكلية "كنجز" فى مجال دراسات شرق آسيا، وله دراسات متعددة عن تاريخ الصين الحديث، لعل أشهرها (الاشتراكية الصينية حتى 1907)، إلى جانب أبحاث فى العلاقات الثقافية بين الصين والغرب فى مطلع القرن العشرين.

وفى دراسة السياسة الصينية المعاصرة، ومنذ عام 1962، ازداد اهتمامه بالحرب فى الهند الصينية التى كانت دائرة آنَ ذاكَ، وسرعان ما تحول هذا الاهتمام إلى دراسة الحضارة الفيتنامية، التى كانت لا تزال حقلاً نادر الدراسة فى بريطانيا حتى ذلك الوقت. كما قام بزيارات متعددة لأقاليم الشرق الأقصى بما فيها كمبوديا وفيتنام الشمالية والجنوبية.

ولم يقتصر نشاطه فى بريطانيا على العمل الأكاديمى، بل شارك أيضًا فى مجال السياسة العملية، فكان عضوًا فى حزب العمال البريطانى فى الفترة من 1957 – 1965م، واستقال منه بسبب اختلافه مع سياسة الحرب تجاه فيتنام. وهو عضو فى الجمعية الفابية البريطانية التى تمثل الهيئة الفكرية داخل نطاق الحركة العمالية، وقد شارك فى أحد منشوراتها عام 1973.

غير أن الفُرْقَة بينه وبين حزب العمال لم تؤدِّ إلى استقالته كعضو عامل فى

الحزب فحسب، ولكن تغيُّر مقر حياته وعمله أيضًا، إذ انتقل مع بداية السبعينيات من "كمبردج" فى بريطانيا إلى جامعة "كورنل" فى الولايات المتحدة الأمريكية ليعمل باحثًا فى تاريخ الصين الحديث فى بداية الأمر، ثم عُين بعد ذلك أستاذًا بقسم العلوم السياسية فى عدة جامعات أمريكية.

معنى هذا أنه لم يَكَدْ يترك ممارسة السياسة فى بريطانيا حتى راح يمارسها نظريًا فى أمريكا. ويبدو أن انتقاله من العمل بجامعة "كمبردج" إلى العمل بجامعة "كورنل"، ومن السياسة العملية فى بريطانيا إلى السياسة النظرية فى أمريكا، اقترن أيضًا بتحوّل كامل فى مجال اهتماماته الفكرية، فإذا بها تنتقل انتقالاً مفاجئًا، وتتغير تغيرًا جذريًا من الشرق الأقصى إلى الشرق الأدنى، وترتد من التاريخ المعاصر إلى التاريخ القديم والموغل فى القِدَم كما لاحظ أكثر من مؤرخ..

ويحدثنا «برنال» نفسه فى إيجاز عن هذا التحول، ويعترف صراحةً أن دوافعه الأساسية كانت سياسية أيضًا، فيقول إنه فى عام 1957 عانى من أزمة "منتصف العمر"، ولكنه لم يَقُلْ لنا أسباب هذه الأزمة على الجانب الشخصى..

ولكن - فيما يبدو - كانت أسبابها الأساسية تتعلق بالتدخل الأمريكى فى الهند الصينية، وبإدراكه أن "الماوية" فى الصين قد أشرفت على نهايتها، وأن مركز الخطر فى العالم قد انتقل من الشرق الأقصى إلى شرق البحر المتوسط، ويقصد به الصراع العربى الإسرائيلى.. ثم يضيف أن هذا التغيير دفعه للاهتمام بتاريخ اليهود، وأن العناصر اليهودية المتناثرة فى ثنايا أسلافه زادته حرصًا على اقتفاء أثر هذا الجانب من "جذوره".

وهكذا - كما نعلم منه - شرع فى دراسة تاريخ اليهود القديم، والعلاقة بين بنى إسرائيل والشعوب المحيطة بهم، وخاصة الكنعانيين والفينيقيين.

ونفهم أيضًا أنه اتضح له أن العبرية والفينيقية لم تكونا لغتيْن ساميتيْن فحسب، ولكن كانتا مفهومتيْن لكلٍّ منهما، أى أنهما لهجتان للغة كنعانية واحدة (انظر الصفحات الأولى من المجلد الأول).

هذا هو ما يذكره المؤلف عن تطوره الفكرى وانعطافه إلى تغيير تخصصه من الشرق الأقصى إلى الشرق الأوسط.

(2)

أما ما لم يَقُلْهُ صراحةً ـ مما عَجَّلَ به إلى هذا التطور ـ فهما تطوران منذ بداية السبعينات كانا يتتابعان على خريطة الشرق الأدنى السياسية منذ عامىْ 1974 و 1975، وهما:

- الحرب الأهلية اللبنانية.
- وسياسة الوفاق بين مصر وإسرائيل.

ويلاحظ «د. العبادى» هنا أنه ليس من قَبيل المصادفة المحضة أن الكتاب يختص بموضوعيْن أساسييْن هما مصر وفينيقيا، وعلاقتهما باليونان أثناء الألف الثانى ق. م.

وكأن المقابلة بين القديم والحديث ـ فيما يبدو ـ تتمثل فى أنه إذا كانت اليونان تمثل أوروبا قديمًا، فإن إسرائيل يمكن أن تؤدى هذا الدور فى منطقة شرق البحر المتوسط حديثًا.

ولا يخلو الكتاب مع ذلك من تلميح، ويترتب على هذه المقابلة أنه إذ أمكن أن تنشأ قديمًا روابط بين اليونان الأوروبية وكلٍّ من مصر الإفريقية وفينيقيا الأسيوية، كذلك يمكن أن تنشأ حديثًا روابط بين إسرائيل (الأوروبية) وكلٍّ من مصر ولبنان.

وعلى هذا النحو، نكتشف رويدًا رويدًا أن كتاب «برنال» كتاب سياسى فى المقام الأول، ويصبح هَمُّنا البحث عن الدوافع السياسية وراء القناع العلمى الذى لا يفارقه فى هذا الكتاب.

ولنقترب أكثر من الكتاب..

إنه ـ باختصار ـ يتكون من ثلاثة أجزاء من الضخامة بمكان، صدر الجزء الأول منه عام 1987، والآخر عام 1991، والثالث على وشك الصدور. الأول حول صنع

اليونان القديمة، ويقوم على دراسات سابقة تكشف عن التحول من النموذج القديم إلى النموذج الآرى. أما الآخر فيتخذ من الدليل الأركيولوجى والوثائقى مدخلاً للإجابة عن أسئلة كثيرة، منها: اليونان أوروبية أم شرقية؟. والدراسة فى حد ذاتها تبدو أنها تهدف - فيما يبدو أنه الهدف الرئيسى - إلى التقليل من النموذج الآرى/ الغربى، وإعادة الاعتبار إلى النموذج السامى/ الشرقى. وقد أكد «برنار»، منذ بداية العرض الذى قدمه، على أن الكتاب ينصرف إلى إطاريْن، أحدهما أن قدماء اليونان كانوا يرون أنهم استمدوا حضارتهم من الشرق والجنوب، وخاصة مصر، وهى الأفكار التى كان الغرب يرى فيها سيادة النمط القديم، وهو ما يستمر حتى القرن الثامن عشر (عصر التنوير).. وهنا يبدأ الإطار الآخر، وهو إطار يرفض هذا. إن الأوروبيين المُحْدَثين يرون أن حضارة اليونان كانت متأثرة بمؤثرات تأتى أساسًا من آسيا، لا من فلسطين ومصر كما هو الحال فى حدود النمط القديم كذلك، ثم فكرة التقدم التى أصبحت تسود التفكير القديم، وهى أن القديم هو أَكْمَل من الجديد؛ فالجديد يسير فى طَوْر التقدم، والقديم يمثل الطفولة، ثم - وهذه فكرة أخرى - سيادة الرومانسية التى تهتم بهذه الأفكار التى تجعل من مصر والعالم القديم ليس أكثر من شىء مثير، وأضيف إلى ذلك دعاوَى العنصرية ونظرياتها التى بدأت تسود منذ أوائل القرن التاسع عشر وأواخر القرن الثامن عشر نظرًا للاستكشاف والاستعمار.. إلخ

وهذا كله يشير إلى أن الحضارة الغربية/ الآرية لا يمكن أن تكون صادرة عن مصر أو أى أجناس شرقية/ سامية قَطّ، وهنا ينصب دور صاحب (أثينا السوداء) ليحاول أن يخفف من تأثير النموذج الآرى (المركزية الغربية) والبحث عما يؤكد من أدلة وتراكمات لا نهاية لها على أهمية النموذج السامى الشرقى، هذا النموذج الذى يسعى للتأكيد عليه فى الظاهر. لقد حاول البحث عن أصول إفريقية وأسيوية للحضارة اليونانية ليؤكد معه أن العنصرية الغربية (الآرية) خَفَّتْ كثيرًا عقب الحرب العالمية الثانية، وبوجه أخص مع قيام إسرائيل (هل هى ملاحظة أن يبدأ «برنار» محاضرته بمصر وينتهى بإسرائيل؟!). وقد وُفِّقَ فيما يريد إلى حد بعيد،

حتى إن عددًا كبيرًا من المثقفين راحوا يشيدون بجهد «برنال» الهائل، عدا مثقفًا أو اثنيْن - في مقدمتهم «د. جاب الله» - وبدا الجميع مشدوهًا بهذا الجهد مأخوذًا بهذا الحشد، وتحولت الندوة إلى ما يشبه "مظاهرة" للإشادة بالكتاب وصاحبه وجهوده وموسوعيته الضخمة!

(3)

وتنتهى التساؤلات حول الكتاب، وينتهى اللقاء الذى حدث بينه فى مصر وبين المثقفين وأساتذة الجامعة (لتأكيد ما يريده أكثر من مئة وعشرين باحثًا ومتخصصًا فى التاريخ الشرقى القديم).. لتبدأ بعدها التساؤلات الكثيرة التى أثيرت داخل قاعة المحاضرة أو خارجها.. ومن هذه الأسئلة:

- هل هناك علاقة بين استراتيجية أوروبا "السياسية" وما يطرحه الكتاب؟
- وهل «برنار» (الأستاذ الكبير) يحاول تأكيد الدور اليهودى "الصهيونى" الآن فى التاريخ الشرقى القديم بشكل عام، والمصرى القديم بشكل خاص؟
- وهل يمثل نسخة أخرى من مستشرقين قدامى لم يمتلكوا هذا الجهد أو هذه المؤسسية؟
- ثم ما هى دلالة البحث عن أصول عبرية فى الحضارة الفينيقية والمصرية القديمة؟
- وما علاقة أستاذ الجامعة (الأكاديمى) بأحلام الكيان الصهيونى اليوم؟
- وما علاقة هذا كله بما يحدث للعرب فى نهاية القرن العشرين؟

أسئلة كثيرة يثيرها «برنار» (ضمن كوكبة كبيرة من علماء غربيين معاصرين) لا نجد إجابة واحدة عنها، بَيْدَ أن الحوار الذى وصل إلى حد الاحتداد والنقاش المنفعل الذى دار فى إحدى ندوات «برنار» فى قاعة ندوات المجلس الأعلى للثقافة بدايةَ عام 1996، وخارجه، هو الذى يكشف مساحات غامضة من هذا الكتاب وما يريده صاحبه..

وهو ما نتمهل عنده أكثر ممثلاً فى عدة "شهادات"..

بَيْدَ أننا قبل أن نصل إلى هذه الشهادات، لا بد أن نقف عند محاولة أخرى أكثر سفورًا فى تزوير التاريخ المصرى القديم..

وهى المحاولة التى تتحدث عن تزوير "مخطوطات البحر الميت"..

وهى كلها - كل هذه المحاولات الغربية - تعكس على الجانب الآخر روح المقاومة.. المقاومة بالتاريخ وبالوعى به.. كما سنرى.

(4)

إن تعليقات كثيرة على كتاب «برنار» (أثينا السوداء) توالت علينا حين أشرنا إلى ما يحدث، وهى تتراوح بين أصحاب التخصص الدقيق - «د. جاب الله» - والمثقف المترجم «شوقى جلال».. وهذا هو تعليق ثالث يحاول أن يجمع بين الاثنين.. يقول «د. مصطفى النشار» أستاذ الفلسفة بآداب القاهرة:

«بادئ ذى بدء، لا بد من التسليم بأن الاهتمام من جانب المفكرين والمؤرخين الغربيين بالشرق عمومًا، وبمصر القديمة خصوصًا، لا يخلو من أغراض سياسية.

وليس من قَبيل المبالغة أن نؤكد حقيقة أن أى اهتمام غربى بالشرق، إنما ينبع فى أى ميدان من الميادين من تلك الأغراض السياسية. وفى اعتقادى أن إدراكنا لهذه الحقيقة الواضحة يجنّبنا الوقوع فى براثن الرؤى المتعصبة والأحكام الخاطئة التى يصدرها الغربيون حول أى شأن شرقى!

وفى حالة البروفيسور «برنال»، يبدو هذا الفرض السياسى واضحًا، وهو - على حد تعبير «د. حسن حنفى» فى عرضه للكتاب بالعدد الأخير من مجلة "القاهرة" - الإقلال من الغرور الحضارى الأوروبى.

ولكن السؤال الذى شغل الجميع - وبالذات «د. جاب الله على جاب الله» و«د. مصطفى عبد الغنى» هو: هل الهدف وراء ذلك هو فقط تمجيد الشرق والمصريين وإثبات فضلهم على الحضارة اليونانية، أم إنه يعرض من طرف خفى إلى نسبة دور اليهود الشرقيين باعتبارهم كانوا جزءًا من النسيج الحضارى للشرق القديم فيما بين مصر وفلسطين؟

ولا شك أن «برنال» قد استهدف الأمرين معًا. فكما قلت فى البداية، لا يخلو الأمر دائمًا من تلك الأهداف السياسية، سواء كانت معلنة أو خفية.. لكن الذى أود تأكيده فى هذا الإطار، أنه بصرف النظر عن تلك الأهداف، فإن الكتاب قد حقق اهتمامًا ملحوظًا بالأصول المصرية للحضارة اليونانية، ذلك الاهتمام الذى كانت قد خَفَّتْ حدته فى الغرب منذ سيادة نغمة الحديث عن "المعجزة اليونانية" و"مركزية الحضارة الغربية" واعتبارها فى نظر معظم مؤرخيها ومفكريها أصل الإبداع الفلسفى والعلمى وصناعة التقدم فى كل العصور!

ومن هذه الزاوية، أرى أن هذا الكتاب - رغم ما يأخذه عليه نقاده من مآخذ - قد أعاد مسألة الصلة الحضارية بين مصر واليونان إلى الصدارة بشكل جعل كل المهتمين يعيدون النظر بشكل أو بآخر فى مواقفهم السابقة، خاصة مَن كانوا يؤمنون بالمعجزة اليونانية الغربية بشكل حاسم.

أما المؤرخون الموضوعيون الذين أدركوا قبل هذا الكتاب أو بعده أن أصل الإبداع العلمى والفلسفى هو الحضارة المصرية القديمة، فلم يكن الكتاب مفاجأة لهم.. وبالنسبة لى شخصيًّا، فإن أمر الصلة بين الحضارة المصرية القديمة والحضارة اليونانية لا يحتاج إلى كل هذه الضجة المثارة وهذا السيل المتدفق من الأسانيد الأثرية والتاريخية واللغوية والدينية رغم أهمية ذلك، إذ يكفى تحليل مضمون الفكر اليونانى من «طاليس» حتى «أفلاطون» لنكتشف عبر الدراسات المقارنة أن الأصول شرقية مصرية!

إن ما نحتاجه فى هذا المجال هو إجراء المزيد من هذه الدراسات المقارنة بين الفكر المصرى القديم والفكر اليونانى، وقد طالبتُ بذلك فى أعمالى.

لقد أصبح من المعروف منذ كتابات «برستد» و«ويلسون» و«ديورانت» و«سارتون» و«هنرى توماس» و«تcroملين» و«جاورى» وغيرهم من الغربيين المنصفين، أن الحضارة المصرية هى الحضارة الوحيدة الجديرة بأن تُلَقَّبَ "الحضارة المعجزة"؛ لأنها أنشأت منجزاتها الفكرية والعلمية على غير مثال سابق، كما أصبح معروفًا لديهم أنه من الضرورى التوجه نحو الشرق ودراسة فكره للتعرُّف على الأصول الحقيقية للفكر والعلم الغربيين فى مختلف العصور، وما أتى به «برنال» ليس إلا حلقة من حلقات هذا الوعى الغربى المتنامى

بأهمية الشرق والعودة إليه، ليس لسواد عيون الشرق والشرقيين، وإنما لفهم الحضارة الغربية والفكر الغربى ذاته».

** وكما نرى.. لم تُحسم القضية، والظلال التى تتزايد، تتزايد.. ولا نجد تفسيرًا شافيًا لها!

(5)

(أثينا السوداء).. تعليق أخير

وهذا فاكس من لندن (ثمة تعليقات كثيرة جاءت فى الفترة الأخيرة حول قضية كتاب "أثينا السوداء") آثرنا أن نكتفى به كنموذج للتعليقات المتشابهة هنا. يقول «أحمد عثمان»، وهو باحث معروف وله إسهامات كثيرة فى هذا المجال:

«كانت مناسبة ثقافية هامة تلك التى نظمها الدكتور «جابر عصفور» ودعا إليها عددًا كبيرًا من المثقفين المصريين للقاء الباحث البريطانى «مارتن برنال» ومناقشة ما جاء فى كتابه الهام (أثينا السوداء). ولأن الكتاب يحاول تأكيد الأصل المصرى للحضارة اليونانية القديمة، وبالتالى للفكر الغربى بشكل عام، كان من المتوقع أن يثير الكتاب فى مصر ما سبق أن أثاره من اهتمام فى جميع أنحاء العالم؛ فقد أنكر الأوروبيون فى العصر الحديث الدور المصرى فى أصل الحضارة، وادّعوا تفوق العقل الغربى على الفكر الشرقى القديم.

وبدلاً من أن تصبح هذه المناسبة بداية لمحاولة جادة لمناقشة قضايا حضارتنا القديمة وعلاقتها بالفكر العالمى، وتكون بذلك منطلقًا نخرج به من مرحلة الركود الفكرى الذى نمر به الآن إلى مرحلة جديدة يتم فيها إحياء تراثنا الفكرى والحضارى، فإن رد الفعل فى غالبه جاء سلبيًّا عاجزًا عن إدراك طبيعة القضية المطروحة، واكتفى الدكتور «جاب الله على جاب الله»، المتخصص فى التاريخ والآثار المصرية، بالكلام فى الدين والسياسة، ولم يتحدث فى التاريخ، فـ «برنال» فى رأيه - بسبب وجود دم يهودى فى عروقه - يردد "نفس النغمة العنصرية الدينية التى بمقتضاها تم زرع إسرائيل فى فلسطين وترسيخ فكرة إنشاء الدولة العبرانية وثيقة الصلة بالحضارة الفينيقية فى قلب العالم العربى.. ويريد «برنال» أن يروّج لفكرته سالكًا سبيل مصر الفينيقية".

لماذا إذًا لم يبيّن لنا الدكتور «جاب الله» مواطن الخطإ فيما ذهب إليه «برنال»؟

وبينما «برنال» اليهودى يَعتبر العبرانيين جزءًا من الكيان الكنعانى بشكل عام، رافضًا بذلك فكرة الشعب المختار، فإن «جاب الله» يذكر الفينيقيين وعلاقتهم بالمصريين القدماء، وإنْ كان الفينيقيون هم الذين نقلوا أبجديتهم ذات الأصل المصرى إلى بلاد اليونان. والسبب الذى قدمه «جاب الله» فى ضرورة إهمال آراء «برنال» وعدم مناقشتها، يرجع فى رأيه إلى بُعْده عن الدراسات المصرية والشرق أوسطية واليونانية القديمة.. فالرجل غريبٌ أكاديميًّا عن الدراسات القديمة.

وفى الواقع، فإن هذا التعليق فى حد ذاته يدل على عدم إدراك الدكتور «جاب الله» لطبيعة الموضوع الذى طرحه «برنال» فى بحثه.

فى رأيى أن «برنال» متخصص فى موضوع بحثه أكثر من الدكتور «جاب الله»؛ ذلك أن «برنال» لا يناقش فى بحثه معطيات التاريخ المصرى القديم محاولاً تعديلها أو تغييرها، وهو يقبل ما هو متعارَف عليه بين علماء المصريات من أدلة.. وإنما موضوع «برنال» يتعلق بالحضارة اليونانية والعوامل التى أثّرت نشوءها وتطورها، ويقترح وجود أثر مصرى/ شامى بها منذ بدايتها. واستند «برنال» للوصول إلى هذه النتيجة بدايةً، إلى ما لاحظه من وجود تشابه بين اللغات القديمة فى مصر واليونان وبلاد الشام. و«برنال» عالم لُغوى، درَس كل هذه اللغات، فهو متخصص فيها.. وما كان الفرنسى «شمبليون» متخصصًا فى التاريخ المصرى عندما قام بفك رموز لغتنا الهيروغليفية القديمة، وإنما كان - مثل «برنال» - لُغويًّا درَس العبرية والقبطية والعربية.

ولهذا السبب كان الدارسون للتاريخ اليونانى أقدر على فهم ما أثاره «برنال» فى (أثينا السوداء) من علماء المصريات، واستطاع الدكتور «حسن حنفى» - وهو متخصص فى الفلسفة - أن يقدم دراسة تحليلية موضوعية قيّمة عن الكتاب فى مجلة "القاهرة".

وبالمناسبة، فإن موضوع التخصص فى دراسة التاريخ المصرى بالطريقة التى يراها الدكتور «جاب الله»، غير متعارَف عليها فى باقى الدول. وبينما يحدد «جاب الله» "المتخصص" بكَوْنه الشخص الذى انضم إلى الجامعة بدايةً للتخصص فى هذا الفرع من

الدراسة، فإن الاعتقاد الشائع هو أن أى دارس يقوم بالاطلاع على مصادر التاريخ المصرى ويقوم بعمل أبحاث فى هذا المجال، يُعتبر متخصصًا فيه وإنْ لم يكن هذا هو مجاله الأصلى؛ فالدكتور «كنيث كيتشن» متخصص فى الفلسفة، ودرَس التاريخ المصرى هوايةً، وهو الآن أستاذ الدراسات المصرية بجامعة "لفربول" البريطانية.. كما أن الدكتور «دونالد ريدفورد» تَخَصَّصَ فى الدراسات العبرية، ودرَس المصريات هوايةً، وهو الآن أستاذ الدراسات المصرية بجامعة "تورنتو" الكندية، والمشرف على مشروع معبد «أخناتون» بالكرنك فى مصر. أما أنا فتخصصتُ فى القانون، ودرستُ التاريخ المصرى هوايةً لمدة ثلاثين عامًا، ولى كُتُب منشورة فى هذا المجال بالعربية والإنجليزية والإسبانية والألمانية».

* انتهى تعليق «أحمد عثمان»، ولم ينتهِ الجدل الذى أثاره الكتاب وصاحبه. ولأن الجدل لم يَحسم شيئًا، نكتفى بهذا التعليق فى قضية قائمة لم تُقَلْ الكلمة الأخيرة فيها بعد.

(6)

عن المقاومة بالتاريخ

أكثر ما يلاحَظ فى الفترة الأخيرة، أننا أمام عدة كتب تَصْدُر.. تتعدد العناوين فيها، لكنها لا تخرج عن قيمة واحدة: شَحْذ قيمة المقاومة.. مقاومة العديد من الظواهر التى تحاول النَّيْل منا، مثل: "العولمة" و"الاختراق" و"التطبيع" و"التبعية"، وما إلى ذلك من الظواهر التى تتعدد مسمياتها، لكنها لا تخرج عن محاولة السيطرة على مقدراتنا العربية فى نهاية القرن العشرين.

من هذا القَبيل، كتاب صغير الحجم بعنوان (الحضارة المصرية) لـ «شوقى جلال»، إذ ينتقل فيه المؤلف بين العديد من هذه الكتب والكثير من تلك القضايا، والتى تُلْقِى جميعها فى تيار بلورة رؤية ثقافية نرى بها العالم.

ومهما يَكُنْ من اتفاقنا أو اختلافنا مع هذا الكتاب وصاحبه، فهو - فى النهاية - يقدم لنا ما يستحق الإشارة إليه، حيث يسعى الغرب إلى محاولة فرق الأمر

الواقع.. فإذا لم نكن واعين فى إطارىِ الوعى الثقافى والوعى التكنولوجى، فسوف يسلّمنا ذلك إلى هذه الهيمنة، أو يجعلنا مجالاً للاختراق. ومن هنا، فإن الهدف الأول طيلة الكتاب يظل هو الحث على "المقاومة"..

وهو هدف يتحدد داخل الكتاب وخارجه فى محاولة استعادة الذاكرة التاريخية واستكشاف الروابط الحضارية ضمن جهودنا وضمن ما يفعلونه ضدنا..

وهو الإطار الذى اختاره!

إنه المقاومة بالتاريخ.. أو المقاومة بالوعى التاريخى!

فى هذا الإطار، فإن جهد المؤلف المخلص - وإنْ يَكُنْ يثير أسئلة كثيرة - يجيب عن أسئلة أكثر؛ فهو يدعو إلى الوعى التاريخى، وهو ما نجده حين يدعو إلى فكرته القديمة من خلال التعرض لعديد من الكتب التى تتخذ التاريخ مجالاً لها، ومن الوعى التاريخى وسيلة للوصول إلى ما يريد.

إنه يوالى التنبيه إلى عدة كتب فى هذا الصدد، أهمها كتاب «مارتن برنال» (أثينا إفريقيّة سوداء)..

وقبله يتمهل - داخل الإطار الذى اختاره - عند كتابيْن هاميْن آخريْن، أحدهما هو (التراث المسروق) لـ «جورج جيمس»، وقد قام بترجمته هو - «شوقى جلال» - قبل ذلك.. والآخر هو كتاب «شيخ أنتى ديوب» (الأصول الزنجية للحضارة المصرية)..

وهى جميعها تسعى - مع ما تثيره - لتُلْقِى فى تيار الوعى التاريخى بالحضارة المصرية القديمة وتأثيرها فى حضارة الشمال (حضارة الإغريق) أو حضارات الجنوب (فى قارة إفريقيا).. ثم هو يتوقف أمام هذا كله، فى هذا المناخ الذى زخر بالشكوك حول الحضارة الفرعونية القديمة، أو العربية والإسلامية، خاصةً بعد حرب الخليج (هل نذكر «فوكوياما» أو «هنتنجتون».. إلخ)، ليؤكد لنا أن حضارة الشمال (حضارة الرجل الأبيض) غير منقطعة عن الحضارات القديمة فى منطقتنا بأية حال، سواء استفادت من حضارة الإغريق، أو من الحضارة المصرية القديمة.

ومن الملاحظ أن المؤلف هنا يرصد لبعض هذه الكتابات التى عُرفت فى النصف الثانى من القرن العشرين، وهى الحقبة التى توالت فيها جهود أوروبية، وغير أوروبية، لتحطم أسطورة هذا الرجل المعجزة صاحب العقل المتفرد والسلالة المتميزة.. فخلال هذه الحقبة ذاتها، تكثفت جهود الباحثين الإسرائيليين لاغتصاب تاريخ مصر، وعمدوا إلى نشر كتاباتهم باسم "الأكاديمية" فى الجامعات العالمية ليصوغوا إطارًا فكريًّا جديدًا وأسطورة قديمة تقول إنهم هم بناة حضارة وادى النيل (وسترى طرفًا من هذا الهذيان حين نعرض لجهودهم المحمومة فى التعامل مع "مخطوطات البحر الميت")!

يقول هنا «شوقى جلال»: إن مصر هى الطرف الغائب فى معادلة تاريخ تطور وصراع الحضارات.. ليست طرف المعادلة المجهول، بل الغائب أو المُغَيَّب.. وحَرِىٌّ بأبنائها أن يدرسوا "سوسيولوجيا التخلف الاجتماعى"، والتزييف التاريخى، وما صنعته الأسطورة، سواء أسطورة الغرب، أو الأسطورة اليهودية (التوراتية قديمًا والصهيونية الآن) منذ عهدها القديم وصولاً إلى الحديث.

وهنا تثار أسئلة كثيرة من نوع:

- كيف جرى توظيف هذه الأسطورة أو تلك فى حياتنا، وكذلك فى وعينا، لصالح الطرف النقيض؟.. وما أثر ذلك فى وحدة الشخصية الاجتماعية، وإنتاج المعرفة كنشاط مجتمعى؟

- وكيف صاغت هذه الأسطورةُ أحداثَ التاريخ وأقنعةَ الأيديولوجيا والظروف الاجتماعية؟..

وبتساؤلات أخرى:

- كيف صاغت تلك الأسطورة عمليات التزييف الروحى والنهب المادى، والواقع المأساوى للإنسان المصرى؟

- وكيف انعكس هذا التزييف على حقيقة الانتماء للتاريخ، والوعى بالتاريخ، ووحدة التاريخ، والمواطنة، بحيث كان حصاد القرون ما نراه اليوم؟

وعلى ذلك، فإن الكتب الكثيرة التى ذكر بعضها، أو التى لم يذكرها، والتى كانت نتاج الحقبة الأخيرة، هى ما يلقى على عاتقنا واجبات كثيرة، فى مقدمتها صياغة رؤية ثقافية خاصة بنا، وإثراء الحوار بالتاريخ والوعى به.

وهذا هو معنى المقاومة: ألا نجلس فى مقاعد المتفرجين، فلم تَعُدْ هناك مقاعد، وإنما أن نشارك، والمشاركة تكون بالدخول فى اللعبة التى تجرى حولنا، بشرط أن نكون واعين لشروطها فى هذا العالم الجديد.

القضية مرة أخرى - بل ومئة مرة - هى المقاومة..

أو كيف نرى المقاومة بالتاريخ؟

وهذا سؤال أجاب عنه الكثيرون..

بَيْدَ أن البعض آثر أن يُدْلِى بدَلْوِهِ فى هذا الموضوع، وأهمية ذلك تأتى من أن "المقاومة" ظلت هى المحور الرئيسى فى كتابات هذه الشريحة الحيوية من المثقفين الذين يواجَهون بالتاريخ قدر ما يواجَهون بالحاضر..

وهو ما تشير إليه هذه الرؤية:

* توجد أكثر من دراسة أو كتاب يحذّر من كتاب «برنال» على وجه الخصوص، لعل أهمها منذ فترة مبكرة (**أثينا السوداء** لمارتن برنال: عرض وتحليل) للمؤرخ «د. مصطفى العبادى»، هذا فضلاً عن ردود فِعْل الكُتّاب المصريين، وهى ردود فعل مناقضة لـ «برنال» نفسه فى أغلبها (انظر أيضا - على سبيل المثال - مقالة «د. جاب الله على جاب الله»). وإليك أحد هذه الردود:

«الأستاذ الدكتور/ مصطفى عبد الغنى

بعد التحية..

لقد تابعتُ منذ بضعة أشهر باهتمام بالغ ما أثرتموه فى عمودكم الأسبوعى من قضايا عديدة حول ما تَضَمَّنَهُ كتاب «مارتن برنال» (أثينا السوداء) وما اكتنفه من رؤى لا تتصل بالمنهج العلمى فى شىء. وقد طرحتم فى صدر عرضكم لفكرة كتاب الدكتور «شوقى

جلال» (ملحق "الأهرام"، 13/ 12/ 1996، ص 9) ما ينبغى أن يكون حلاً حاسمًا للتصدى إلى تيار يحاول منذ زمن بعيد النَّيْل من الحضارة المصرية ونسبتها إلى غير أهلها، ألا وهو: "المقاومة بصياغة رؤية ثقافية خاصة بنا، وإثراء الحوار بالتاريخ والوعى به".

وبديهىٌّ أنه لا كتاب «شيخ أنتى ديوب» يمثل بداية هذا التيار، ولا كتاب «مارتن برنال» يعد نهايته، فإليكم كتاب صدر فى "أكسفورد" عام 1989، وموضوعه (كنعان والكنعانية فى مصر القديمة):

- **Alessandra Nibbi, Canaan and Cannite in Ancient Egypt, Oxford 1989.**

حاولت مؤلفته أن تسوق فيه من الأراجيف والخرافات ما يؤيد مزاعم هذا التيار، ليس فيما يتصل فقط بـ "كَنْعَنَة" الحضارة المصرية التى نُقلت إلى أثينا القديمة مثلما ذهب «مارتن برنال»، وإنما ذهبت هذه الـ «ألِسَّنْدرَا» إلى خطوة أبعد، عندما راحت تزرع الكنعانيين فى شمال إفريقيا قاطبةً، بما فيها الدلتا المصرية، وسَعَتْ وُسْعَهَا على امتداد تسعة فصول إلى أن تنقل خريطة لبنان وفلسطين القديمة لتطابقها بمدن ومواقع بالدلتا القديمة، بما يبين للمختص جهلها العظيم بالجغرافيا القديمة لمدن الدلتا، وعدم درايتها باللغة المصرية القديمة. والقارئ المختص فى هذا اللون من الكتابات، إنما يدرك على التوّ من تصدير الكتاب أنه لا يمكن أن يدرَج فى قوائم المؤلفات العلمية المعنية بالمصريات، لا سيما وأن مؤلفته قد كرست جهدها فى كل ما كَتبت لغرض محدَّد قبلاً أوجب عليها أن تسلِّم أوْ لا تسلِّم بحقائق تاريخية وهمية تفرضها على القارئ فرضًا، ثم تسعى من بعد ذلك إلى محاولة التحليل عن اقتناع بأساليب واهية رخيصة ومبتذلة يمجها العقل والمنهج العلمى، وهى إنما تجمع - فيما تظن أنه دراسة - بخيوط ونتائج أعمال مماثلة تسعى إلى فهم الهذيان فيها واستشعاره أكثر مما تتضمنه من حقائق تاريخية لتستند إليها فى هذا الكتاب.

ولئن كان المقام لا يتسع هنا للمساعدة على أن يكون التحليل والنقد علميًّا، إلا أن السؤال الذى يفرض نفسه بإلحاح: وماذا بعد «برنال» و«ألسندرا»؟ أعتقد أن طرف الخيط لا يزال ممتدًّا، على الرغم مما تحاوله هذه الكتابات الرخيصة من أن تلقيه فى روع القارئ تحت ستار الكنعانية وباسمها! وأجد نفسى أمام التأكيد معكم على أهمية المقاومة مرة أخرى، عن وعى تاريخى قادر على صياغة رؤية ثقافية تؤهلنا إلى التصدى لدعاوى الزيف.

ولتسمح لى أن أهمس فى أذنكم أخيرًا: إن ما يدرسه التلميذ فى مراحل التعليم قبل الجامعى فى أوروبا، يفوق كثيرًا ما يدرسه طالب القسم غير المختص بتاريخ وحضارة مصر القديمة فى مصر!

وتَقَبَّلُوا أطيب أمنياتى وتحياتى لما تبذلونه من جهد غيور لا يصدر إلا عن الغَيْرَة على تاريخ الوطن وحضارته عبر العصور.

عادل مصطفى»

القناع العنصرى

(1) اليمين العنصرى

هناك ألف طريقة وطريقة لتأكيد أن اليمين الغربى/ العنصرى اليوم فى طريقه السريع إلى الصعود، وأن ما يحرك هذا اليمين ليست فقط الأحوال الاقتصادية التى تدفع بعض الجماعات لاتهام المهاجرين ـ وأغلبهم من المسلمين والعرب ـ بأنهم وراء سوء الأحوال، وإنما وراء ذلك ـ أيضا ـ خلفية تاريخية ما زالت تحكم الفكر الغربى إزاء العرب، والمسلمين منهم خاصة، تغذيها قنوات إعلامية ومدرسية متوالية تؤكد على أن هؤلاء المهاجرين ليسوا غير العنصر/ الآخر، المتخلف، الذى يجب القضاء عليه والنَّيْل منه وسط عالم أصبح كل من فيه مولعًا بالعنف، مشبعًا بالشوفونية!

غير أن أسهل طريقة يمكن الإشارة إليها بوضوح، ما جرى فى انتخابات الرئاسة الفرنسية منذ عشر سنين، وتحديدًا فى الدورة الأولى منها..

وهذا يحتاج إلى قليل من التمهل.

كيف كانت ساحة الصراع الانتخابى؟

لقد تقدم إلى الترشيح للرئاسة اثنان، هما: «شيراك» و«جوسبان»، فى حين أن الثالث كان هو اليمينى المتطرف «جان مارى لوبان»..

وبينما كان المرشحان الأوَّلان يركّزان على برامج وطنية خالصة، كان «لوبان» (وقد أصبح الآن زعيم أقوى جبهة عنصرية متطرفة فى فرنسا ضد الأجانب) يعلن بشكل دائم مُطَّرَد عن نيته طرد جميع المهاجرين من فرنسا، كما أعلن عن إجراءات

عنيفة ضدهم.. وقد تجلى ذلك الضرب العنيف من العنصرية أثناء الدورة الأولى فى الانتخابات؛ فقد حدث أن شابًا مغربيًا لم يصل إلى سن الثلاثين، وجد نفسه - فجأةً - بين عدد من أنصار «لوبان»، فاعتدوا عليه بعنف شديد، ثم حملوه وألقوا به فى نهر السين ليغرق قبل أن يحاول البعض انتشاله من بين الأمواج (وقبل ذلك بقليل كان قد أُطلق النار على شاب آخر من المهاجرين)!

وثمة إشارات كثيرة أخرى تشير إلى تعاظُم دور اليمين العنصرى فى الغرب اليوم.

إن مراجعة الدورة الأولى للانتخابات ترينا أنه فى حين لم يستطع أىٌّ من المرشحيْن الآخريْن الحصول على نسبة عالية، فإن المرشح العنصرى «لوبان» كان قد حصل وحده على أعلى نسبة حصل عليها أنصار التطرف فى الربع الأخير من القرن العشرين!

كان «شيراك» قد استطاع الحصول على أصوات جزء يسير من اليمين (4.74 فى المئة)، ولكنه لم يستطع الحصول على نسبة ضخمة من أنصار اليمين العنصرى الذى بلغت نسبته 15.28 فى المئة.. وهو ما يحمل دلالة هامة.

إن انضمام مرشحى اليمين المتطرف لأىٍّ من المرشحيْن الآخريْن كان قمينًا بالفوز لمن يستطيع الحصول على أصواتهم.

ومن هنا بدا التيار العنصرى مؤثرًا إلى حد بعيد وحاسمًا فى النتيجة الأخيرة، وهذا ما جعلنا لا نفقد شدة هذا اليمين المتطرف أثناء الدورة التالية أو الدورة الأخيرة الحاسمة.

وهو ما يصل بنا إلى عدة علامات..

لم يكن من قَبيل المصادفة أن نلاحظ أن برنامج «شيراك» كان يحتوى على مطالب العنصريين بشكل أساسى، وإنْ لم يصرح بالهدف وراء ذلك!

كانت أهم عناصر البرنامج "الشيراكى": محاربة البطالة، وتَدَنِّى الأجور، وأزمة

الإسكان، فضلاً عن تناول القضايا الداخلية المرتبطة بها كقضايا الاستقلال والسيادة والهوية الوطنية وتوفير الضمانات العادلة للفرنسيين.

ومَن رَأَى المناظرة التليفزيونية التى جرت بين «شيراك» ومنافسه، كان يلحظ أن عديدًا مما قاله الرئيس الفرنسى فيما بعد - «شيراك» - لم يكن ليبتعد عن مطالب اليمين العنصرى قَطّ، وإنْ بَدَا أن ذلك يجىء بشكل عَفْوِى وتلقائى.

لاحظت التقارير الصحفية أن «شيراك» إبان الدورة الثانية من الانتخابات، بادر بزيارة منطقة الألزاس واللورين، هذه المنطقة التى حصلت فى الدورة الأولى على أعلى الأصوات لليمين المتطرف، حتى إن هذه النسبة وصلت إلى 30 فى المائة من حصيلة المرشح اليمينى «لوبان»!

وهو ما يعود إلى أن هذه المنطقة يتجسد فيها الموقف المُعادى للمهاجرين والخوف من "الغزو" الخارجى عن فرنسا، إلى غير ذلك من الأسباب التى تدفع بهم إلى التصويت للجبهة الوطنية التى تنادى بنفس الشعارات وتدعو إلى نفس المطالب.

ومن المؤكد - كذلك - أن اليمين العنصرى فى فرنسا لاحظ أن سياسة «شيراك» لن تبتعد عن اليمين العنصرى كثيرًا فى حالة تفوقه فى الانتخابات الأخيرة فى مُناخ يتسم بهذه الإشارات القاسية:

- طرد الفتيات المسلمات المحجبات من المدارس وعقد محاكمة ضدهن (وإنْ تغير الأمر قليلا فيما بعد)..

- واعتقال الآلاف من العرب، وترحيل الكثير منهم خارج فرنسا إبان أحداث الجزائر، ومصادرة كثير من الكتب الإسلامية..

- واتخاذ موقف متشدد حيال الكثير من التقاليد والمطالب الإسلامية..

وغير ذلك كثير.

هذه بعض المخاوف التى أثارتها انتخابات الرئاسة الفرنسية إبان الفترة المحددة بانتخابات «شيراك» السابقة فى فرنسا والقرن العشرون يتهادى إلى

نهايته، وهى تعكس المُناخ الغربى الجديد بكل ما فيه من مؤامرات ضد العرب داخل بلادهم أو خارجها..

مُناخ عنصرية الغرب الذى سقطت أوهامه كأوراق التوت!

(2) اليمين العنصرى.. مرة أخرى

رأينا كيف أن صعود اليمين العنصرى يحدث بشكل متسارع.

ورأينا مثالاً له ما حدث فى انتخابات الرئاسة الفرنسية من حيث تأثير اليمين على الحركة الانتخابية، ومن ثم سعْى «شيراك» - الذى أصبح رئيسًا بالفعل - إلى مغازلة هذا اليمين بشكل غير مباشر.

وقد بدا أن أهم صور المغازلة تحددت فى مَنْح «شيراك» الجانب الاقتصادى الأولوية فى برنامجه الانتخابى قبل أن يحاول التأكيد على ذلك إثر نجاحه فى الانتخابات.

والواقع أن ما يحرك اليمين العنصرى ليس الأحوال الاقتصادية فقط (اتهام العرب والمسلمين أنهم وراء أزمات كالبطالة والإسكان..)، وإنما أيضًا هذا الباعث القابع فى الضمير الغربى، ونقصد به الخلفية التاريخية منذ الحروب الصليبية، التى ما زالت تحكم نظرة الغربى للعرب، وتغذيها قنوات إعلامية ومدرسية تؤكد على أن هؤلاء المهاجرين ليسوا غير "الآخر/ العدو التاريخى"، الكافر المتخلف (وهذا باعث قد يبدو محتملاً، لكن الدراسات المعاصرة أكدته، ومن بين الغربيين أنفسهم).

ومَن يُجرى استفتاء فى فرنسا اليوم، يجد أن أكثر الكلمات ترددًا هى «نحن لا نحب العرب»!

واللافت للنظر أن تسارُع التيار العنصرى فى فرنسا اليوم أصبح قاسمًا مشتركًا بين دول الغرب، وإنْ بَدَا ذلك بدرجات متفاوتة.

كما أن مراجعة الصحف الغربية فى الفترة الأخيرة تضع بين أيدينا العديد من

المؤشرات التى تؤكد على هذا الخطر الصاعد، سواء بالإشارة إليه مباشرةً، أو بالإشارة إلى بعض المظاهر التى تشير إليه.

والأخبار التالية تُقرأ فى أغلب الصحف، وتمر تحت أعيننا فى المانشيتات الكبيرة والصفحات الأولى فى الغرب اليوم..

نعاود القراءة:

- الاحتفال بمرور 50 عامًا على هزيمة النازى فى 8 من مايو 1945، وفى وقت تتصاعد فيه الفِرَق النازية الجديدة فى ألمانيا، والجماعات الفاشية الكثيرة فى إيطاليا، والفِرَق العنصرية المتوالية فى فرنسا..

خاصةً أن تحية «هتلر» تُكَرَّر كثيرًا اليوم..

وخاصةً أن الصليب المعقوف يعلو أسطح المنازل وصفحات الصحف.

- الإعلان عن جريمة بث غاز إرهابى (السارين) فى شبكة مترو أنفاق طوكيو، ومقتل 12 شخصًا وأَذِيَّة أكثر من خمسة آلاف.

والجهة المسئولة عنصرية.. أعلنت عن نفسها.. وراحت تَتَسَمَّى باسم "أوم شينريكيو"، وهو مصطلح يعنى - وتأمَّلْ هذا المعنى - "الحقيقة السامية"!

والأكثر من هذا لفتًا للنظر، أن الجريمة كادت تتكرر بعد ذلك بشكل أبشع، لولا عملية الضبط التى تمت مصادفةً للمادة الضخمة المعبأة فى أكياس.

- تصاعُد دور حركة "جوش أمونيم" العنصرية الصهيونية التى ترتكب جرائم عنيفة بالتصفية والاغتيال، وهى تَلْقَى اهتمامًا وعناية كاملين من مجالس السياسة الإسرائيلية وعدد كبير من أعضاء الكنيست.

.. وغير بعيدة عنا مجزرة الحرم الإبراهيمى التى ارتكبها صهيونى متعصب ما زال إمامًا للشباب الإسرائيلى اليوم، وتُرَدَّد بطولاته بفخر فى إسرائيل من يوم إلى آخر (وسوف يمثل «نتنياهو» ملك اليهود فيما بعد.. بعد أن ينتخب سيادة هذا الموقف وساديته)!

ـ أكد انفجار المبنى الفيدرالى فى مدينة "أوكلاهوما" الأمريكية أن وراء الحادث جماعات عنصرية أو "أصولية" ترى العودة إلى الدين بالشكل الذى تصوره مبادؤها المجنونة من الخلاص للأمة الأمريكية التى تزداد فيها الآن الميليشيات والتنظيمات والأحزاب العنصرية، ومن أبرزها الحزب القومى الاشتراكى الأمريكى (وهو نازى) فى المقام الأول.

ولا تخلو مشاهد اليوم فى السياسة الدولية من هذا التطرف العنصرى..

والأمثلة أكثر مما يمكن حصره..

فماذا يمكن أن يُقال عن موقف الغرب ـ وحلفه الأطلنطى ـ مما يحدث فى البوسنة..

ثم الشيشان..

(وفلسطين قبل هذا)..

وإفريقيا حيث القتال القَبَلى العنيف..

وفى أفغانستان والصور المخزية..

ثم فى كشمير من تقتيل الشعب وذبح النساء ونسف المعابد.. وما إلى ذلك؟!

وتنتقل الأخبار من ألمانيا النازية إلى إيطاليا الفاشية إلى روسيا العنصرية إلى يوغوسلافيا السلافية.. إلى العديد من الأقطار التى تتخفى عنصريتها تحت أسباب كثيرة، لكنها لا تخرج فى النهاية عن هذا الداء المريع الذى ابْتُلِيَتْ به الإنسانية، سواء اتخذ مصطلح "اليمين المتطرف" أو "العنصرية" أو "الأصولية".. إلخ..

إنه الداء العنصرى الذى يظهر الآن فى الغرب!

....

وما دمنا قد بدأنا من فرنسا، فمن المهم أن ننتهى منها.. فما يدل على خطورة ظاهرة العنصرية الآن، أن آخر ما فعله الرئيس الفرنسى «ميتران» قبل أن يترك قصر الإليزيه، كان ذهابه إلى نهر السين وإلقاؤه هناك باقة من الزَّنْبَق فى المكان الذى أغرقت فيه الجماعات العنصرية الشاب المغربى المسلم.

نفتح قوسًا كبيرًا هنا لنقول:

(وفى نفس المكان، كان «شيراك» - الرجل الذى سيصبح رئيسًا لفرنسا بعدها بساعات - يُلقى بباقة أخرى!).

(3) العنصرية والصهيونية

هذا وجه آخر من وجوه العنصرية..

ولا يمكن التحدث عن المجرى العريض للتطرف العنصرى دون أن نتمهل عند أهم روافده، ونقصد به الصهيونية.. فالصهيونية والعنصرية مرتبطتان ارتباطًا وثيقًا بحيث لا تكاد تُذكر إحداهما إلا وتُذكر الأخرى.

وما نريد التأكيد عليه هنا ليس التدليل على وجود هذه العلاقة الوثيقة بين الصهيونية والعنصرية، فقد أصبحت هذه العلاقة غنية عن التعريف أو التذكير منذ قرون بعيدة.. منذ راجت أسطورة "شعب الله المختار" وانسحب هذا التعريف على الشعب اليهودى، فى حين أصبحت الشعوب الأخرى من الأغْيار (الجوييم) فى التفسير التوراتى أو التلمودى، أو أسفار اليهود أو فلاسفتهم أو زعمائهم على مر العصور.. وإنما التذكير (وكم هى باهتة الذاكرة العربية!) بالمواقف من هذه العلاقة..

فما هو الموقف العربى من هذه العلاقة؟

العلاقة تتحدد من الأمم المتحدة..

وفى فترة السبعينات من القرن الماضى بوجه خاص..

وفى القرار الذى اتخذته الجمعية العامة بتصنيف الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية بشكل أخص..

وعندما توصف كشكل من أشد أشكال العنصرية عدوانية؛ فذلك لأنها تتميز بالرجعية المطلقة، سواء فى السياسة أو الأيديولوجية.

كان القرار بوضوح هو مساواة الصهيونية بالعنصرية..

وهو ما يعود بنا إلى هذه الحقبة..

....

كنا لا نزال نعيش فى فترة الحرب الباردة (1947 ـ 1990م)..

وكان العالم لا يزال يشهد الصراع المعروف بين كتلتيْن ضخمتيْن وعدة دول "غير منحازة"..

ولم تكن قد نشأت بعدُ الضغوط على الدول الصغرى، خاصة دول الجنوب..

كما كانت إحدى هاتيْن الكتلتيْن تقف فى صف الدول التى تدافع عن استقلالها،

وكانت حركات التحرر الوطنى تنتشر هنا وهناك فى هذا الوقت..

وإذا حددنا تاريخًا معينًا، فسوف نحدد 18 من أكتوبر عام 1975؛ إذ صدر القرار الذى ساوَى بين الشقيقتيْن: الصهيونية والعنصرية.

وتمضى الأيام، وتدور دائرة كاملة

وبدلاً من أن يستمر تراكم فائض التحرر الوطنى لدى دول العالم الثالث، كان لا بد أن تُجهض أشياء كثيرة، ويفقد العالم كثيرًا من ماء الوجه فى بداية التسعينات إثر تفكك الكتلة الشرقية وسقوط الاتحاد السوفييتى واستمرار الضغوط والمناورات..

وإذا بقرار آخر يصدر من نفس المنظمة ـ الجمعية العامة ـ مغاير للقرار السابق تمامًا فى 16 من ديسمبر 1991، وكان القرار الجديد يلغى القرار السابق!

كنا هذه المرة فى تسعينات القرن العشرين وليس فى سبعيناته، وكانت مياه كثيرة قد ألقيت فى طاحونة العنصرية "الصهيونية"..

لم يكن العالم هو العالم..

ولم يكن العرب هم العرب..

ولم نكن نحن، نحن أنفسنا!

لقد صوتَتْ مع هذا القرار دول كانت قد صوتت ضده..

وإذا بنا أمام دلالات هزلية كثيرة..

فإذا بدول أوروبا الشرقية تقف مع البرازيل والمكسيك وغيرها من الدول التى فهمت قانون اللعبة الجديدة فى التسعينات لتصوّت لصالح العنصرية!

وهنا وصلنا إلى النتيجة المأساوية..

لقد تم إلغاء القرار!

(صوتَتْ لصالحه أكثر من مئة دولة، وعارَضته أكثر من عشرين، وامتنعت عن التصويت أكثر من عشر دول أخرى)!

ونحن نذكر الأرقام هنا لنشير فقط إلى دلالة التأكيد على التراجع عن الموقف السابق..

وهذا التراجع لا يلفت نظرنا حين نلاحظ أن دولة مثل منغوليا - على سبيل المثال - صوتت لصالح إسرائيل، ولكن ما يلفت النظر حقًّا ويعتصر قلوبنا بأسى شديد، أن دولاً عربية كانت فى السبعينات قد صوتَتْ على قرار مساواة الصهيونية بالعنصرية، عادت فى بداية التسعينات لترفض المشاركة فى اقتراع الجمعية العمومية، وهى دول مثل مصر والمغرب والكويت والبحرين وعمان وتونس!.. واعْجَبْ أو اصمت أو اشجب أو اهْزِ أو احزن، فكله سيان!..

وهكذا انتهينا إلى ما انتهينا إليه!

لقد تم إلغاء القرار لصالح العنصرية.. أقصد الصهيونية.. أقصد لصالح فضاء نظام عالمى جديد (أو يقال إنه جديد!)..

ما عاد يُسمع عنه فى الغرب شىء..

فراح يستبدل بالعرب: المسلمين (!).. وبالوطن العربى: الشرق الأوسط (!).. وباليهود: الدولة العبرية المُحَوَّطَة بأعدائها من الأصوليين الذين يهددون العالم الغربى كله.

أوَليست إسرائيل جزءًا من هذا العالم الغربى.. عالم الشمال.. عالم العنصرية؟!

(4) أسئلة عنصرية

مَن يعرف شيئًا عن العنصرية الغربية اليوم، يجهل أشياء كثيرة تستعصى على الفهم؛ فأغلب ما يحدث فى العالم الآن تحركه خيوط كثيفة، يحاول أن يستفيد أصحابها من مجريات الأمور لإحداث تخلخل يستفيدون منه لتحقيق أهدافهم الخاصة.

يحدث هذا فى العالم الغربى، وبخاصة فى العالم الأمريكى.

ومحاولة فهم تشابه الصور وتراكم الخيوط يضع بين أيدينا عدة أسئلة عنصرية نجهد أن نجد لها إجابات كثيرة، ومن هذه الأسئلة:

* لماذا يتمتع اليمين الأمريكى بمساحات شاسعة فى الإذاعة والتلفزيون والصحف ودور النشر الأمريكية؟

* ما هو مدى تورط اليمين الأمريكى فى حادثة "أوكلاهوما" وارتباطه بجماعات أصولية أخرى؟

* إلى أى حد ترتبط جماعات كثيرة فى الجيش الأمريكى اليوم بفصائل اليمين داخل الولايات المتحدة الأمريكية وخارجها؟

* ما هى درجة تأثير اليمين فى مجلسى النواب والشيوخ الأمريكى؟ وإلى أى مدى يمكن أن يكون نجاح اليمين العنصرى قد أثر فى وصول الحزب الجمهورى إلى الحكم؟

* ما هى العلاقة بين الليكود اليهودى (اليمينى) والحزب الجمهورى الأمريكى؟ وهل لهذا علاقة بالصراع الذى سبق أن جرى بين الحزب الجمهورى والرئيس «كلينتون»، خاصة فى السياسة الخارجية؟

* ولماذا تأخرت أجهزة المخابرات الأمريكية فى اختراق الجماعات اليمينية والميليشيات الكثيرة داخل البلاد، حتى إنها فشلت - كما يقال - فى فهم مقدمات حادثة "أوكلاهوما"؟

* وهل ـ حقًا ـ كانت أجهزة المخابرات هناك تجهل ما يحدث داخل هذه الميليشيات؟

* ثم.. كيف سمحت الولايات المتحدة الأمريكية بترك أكبر قاعدة لحركة التنظيمات النازية والأصولية الجديدة؟

* ثم ـ وهو سؤال يثيره البعض بإصرار شديد ـ لماذا ترتبط أجهزة المخابرات الأمريكية بحزب «جان مارى لوبان» اليمينى العنصرى المتطرف فى فرنسا؟

وهو ما يصل بنا إلى أسئلة أخرى أبعد من الظواهر العامة:

* ما هو دور المخابرات المركزية فى بعث أو إعادة قيام اليمين فى بلاد مثل ألمانيا وبلجيكا وإيطاليا وبريطانيا وإسبانيا وهولندا والدانمرك.. إلخ؟

وهل تُبعث هذه الحركات ـ كما نسمع ـ فى غيبة الـ "سى. آى. إيه"؟

لا تنتهى الأسئلة، على حين تبدأ إجابات كثيرة لتشير ـ فى النسيج العام ـ إلى مفهوم أكيد عن دور هذه الأجهزة الغربية للإفادة مما من شأنه أن يَزيد من سيطرتها على دول العالم، وخاصة على مراكز السلطة فى بلاد الجنوب المهيمنة خاصة، سواء ظلت فى قمة السلطة بها قوى ليبرالية أو قوى إسلامية.. المهم: الهيمنة على مقدرات بلادنا!

(5) القدس والكونجرس

اليمين المتشدد فى الحزب الجمهورى الأمريكى، وخاصة اليمين المسيحى فيه، له تأثير كبير فى كثير من القضايا ضدنا.

وهو موقف يتعاظم بعد سيطرة الجمهوريين على الكونجرس بمجلسيْه فى الفترة الأخيرة. وهذا التأثير يمكن ملاحظته، خاصة بالنسبة إلينا، فى قضية مثل قضية القدس..

إنها قضية القضايا كما يمكن أن يقال اليوم.

وتؤدى القوى المعلنة فى الحزب الجمهورى (ونؤجل الآن الميليشيات الخفية والمنظمة) أدوارًا متعددة فى هذا، تُلْقِى جميعها فى خانة العداء للعرب، وتُلقى مياهًا كثيرة - من أجل ذلك - فى طاحونة الانتخابات.. أىّ انتخابات.

إنها تدافع عن الباطل باسم الحق، وتحاول التأثير على السياسة الأمريكية للنجاح فى المعارك الانتخابية، مُهْتَبِلَةً علاقتها بمنظمة "إيباك" اليهودية، ومستهدفةً - فى المقام الأول - تحقيق أحلامها فى الرئاسة بأى ثمن..

نقول: بأى ثمن..

حتى ولو كان الأمر يتعلق بالمزايدة على القدس ضد العرب!

ويبدو مثال واضح على ذلك فى موقف المرشح الجمهورى لمنصب الرئاسة *«روبرت دول» فى انتخابات «كلينتون» الأولى لاسترضاء الجناح اليمينى المتشدد* فى حزبه..

وهذا يحتاج إلى تفصيل أكثر..

فحين دُعى إلى "إيباك"، اهتبل الفرصة ليعلن هناك بالحرف الواحد:

«.. كم أنا فخور بانضمامى إلى اثنين وتسعين من زملائى الشيوخ لتوقيع رسالة جماعية إلى الإدارة الأمريكية نحضها فيها على نقل السفارة إلى القدس»!

حدث هذا تحديدًا فى الأول من مايو عام 1995م (ونفتح قوسًا لنذكر تاريخًا سابقًا، كان بالتحديد فى 18 من أبريل عام 1990، قال فيه نفس الرجل مخاطبًا أعضاء مجلس الشيوخ بالحرف الواحد:

- أندد بمشروع نقل السفارة الأمريكية إلى القدس!).

أهى مصادفة؟ هذا سؤال..

النفى: نعم!.. هذه هى الإجابة. الإجابة بالنفى..

فموقف «دول» هنا موقف واع، تعمّد فيه أن يستفيد من المد العالى لليمين

المتطرف داخل المجلس، ويحاول خلاله كسب أكبر أصوات من زملاء المجلس، وقبل ذلك أعضاء منظمة "إيباك" ذات التأثير الكبير على المجالس النيابية الأمريكية، حتى إن نسبة مؤيدى مشروع «دول» هذه المرة داخل مجلس الشيوخ وصل - حسب الإحصاءات الأمريكية - إلى 93 فى المائة..

أى الأغلبية!

إن موقف «دول» هنا هو - بصريح العبارة - موقف شخصى خالص..

فهو لا ينتمى إلى اليمين العنصرى داخل المجلس أو خارجه..

إنما ينتمى إلى مصالحه الخاصة، مما مَكَّنَهُ من التعرف على ارتفاع المد اليمينى ومحاولة الإفادة منه بهدف انتهازى.

ومَن يراجع الكتابات الأمريكية فى صحف هذه الفترة، يرى أن هذه الكتابات المعاصرة تشير إلى أنه سياسى بلا مبادئ أو أخلاق، وخاصة حين يقدم مصلحته الشخصية البحتة على مصلحة بلاده.

إنه الحضور العنصرى بفعل العنصر الانتهازى!

إن «دول» بوضوح لا يحتاج إلى تدليل؛ فقد استطاع أن يستشعر هاجس العنصرية العالية فيما حوله، سواء داخل الولايات المتحدة الأمريكية، أو من خلال منظمة "إيباك" التى تؤدى الآن دورًا مَلَكيًا أكثر من الملك، حين يتعلق الأمر بالأهداف اليهودية المرحلية داخل إسرائيل نفسها. إن نسبة تأييد موقفه العنصرى داخل مجلس الشيوخ تزيد على التسعين فى المئة كما أشرنا..

كما أن مراجعة الكتابات التى تَصدر عن الصحف اليهودية نفسها تؤكد هذا الانطباع، إلى الحد الذى يطلَق فيه على الاتجاه المناهض فى اليسار الإسرائيلى أنه اتجاه "مهرّجى اليسار الإسرائيلى".. هذا فى وقت يَعكس فيه كل شىء تأييد اليمين الكامل ممثلاً فى تأييد نقل السفارات الأجنبية إلى القدس.

وعَوْد على بَدْء، فإن دعوة «دول» هنا لنقل سفارة الولايات المتحدة الأمريكية إلى

القدس، إنما تؤكد صعود المد اليمينى الأمريكى، سواء فى الكونجرس الأمريكى، أو لدى اليمين الإسرائيلى بجميع ألوان الطيف فيه.

المؤكَّد فى كل ما يحدث ـ وما سوف يحدث ـ فى الغرب اليوم، هو تلك النبرة العنصرية العالية التى تعلو موجتها، فلا يتبقى شىء فوقها إلا غمرَتْه، ومن ثم تتركه يمضى فى تيارها، وإلا سقط إلى القاع..

وهذا هو الواقع اليوم!

(6) عناقيد العنصرية

إن ما قاله أحد الجنود الإسرائيليين بعنصرية فاضحة عقب العملية العسكرية المسماة "عناقيد الغضب"، لم يكن ليحتاج جهاز كشف الكذب..

فهو نفسه ما ردده محرر إحدى المجلات التى قامت بنقل اعترافات الجنود الصهاينة أنفسهم (مجلة "كول هائير") عقب تشكيك الجيش الإسرائيلى بما جاء فيها.

إنها "عناقيد العنصرية" ـ كما سنرى ـ هى التى تحرك هذا القول/ الموقف الصهيونى..

فقصة قيام الدولة الصهيونية نفسها قامت على العنصرية التى وصلت إلى أقصى درجات التعصب، خاصة فى كل معاركها مع العرب.. وأسطورة إسرائيل نفسها قامت على العنصرية البغيضة أكثر من التدين "التوراتى" المصطنع وادعاءاته..

وهو ما يحتاج إلى تفصيل أكثر لنشير إلى ما تعنيه "عناقيد العنصرية" كما عرفناها نحن كشاهدى عيان لهذه المرحلة البغيضة للعنصرية الصهيونية..

وسوف نشير إلى هذه العنصرية أو التعصب فى مَثَلَيْن اثنيْن:

الأول:

هو ما ارتبط بما نقلته المجلة ـ وما نقلته "رويتر" عنها ـ من أن أحد الجنود الإسرائيليين حين كان يجيب عن موقفه من المذابح التى حدثت لأطفال قانا وغيرهم، *قال مستهينًا بما حدث: «إن الأمر لا يتعلق بأكثر من "عربوشيم"»!*

و"عربوشيم" تعبير عنصرى مُعادٍ للعرب يعرفه كل من يعرف العبرية، إذ يتردد كل يوم للإشارة إلى الصفة التى يطلقها الصهاينة كلما جاء ذكر العرب.

وهذا يحتاج إلى تفسير أكثر..

ذلك أن الجندى الذى أطلق هذا التعبير قاله بهدوء شديد ونظر حوله، فلم يعترض أحد من الجنود، وأمَّن الجميع على كلامه!

وفى نفس الحوار، قال جندى آخر برتبة "رقيب" وبأعصاب أكثر هدوئًا: «كان يجب أن نطلق المزيد من القذائف لنقتل المزيد من العرب»!

إن العنف المرتبط بالعنصرية هو الوسيلة الوحيدة التى تُستخدم للوصول ـ كما يرون ـ إلى أهدافهم كاملة!

ويلاحظ أن هذا العنف التوراتى يشكل نسيج الرؤية الإسرائيلية ضد العرب، ولا يمكن أن نتحدث عن هذا العنف العنصرى دون أن نتذكر كيف كانت ترتكب منظمات صهيونية جرائمها البشعة، مثل "أرجون" و"شتيرن" و"الهاجاناه"، ثم حركة "كاخ" و"جوش أمونيم" و"عين كارم".. ونتذكر المذابح من دير ياسين إلى قانا، مرورًا بقبية وكَفْر قاسم وبحر البقر وأبى زعبل إلخ.. بل إن عنصرية "عناقيد الغضب" فى لبنان ـ بوجه خاص ـ لم تكن لتنفصل عن عملية الليطانى عام 1978 وعملية سلامة الجليل عام 1982 حين احتُل جنوب لبنان وحوصرت بيروت وتداعيات ذلك.. وأخيرًا عملية "عناقيد الغضب".

عناقيد الغضب، أو قانا، أو دير ياسين، أو أبو زعبل، أو كَفْر قاسم قبل ذلك..

تتغير الأسماء ويظل الفعل واحدًا!

وهنا نصل إلى المثال الآخر.. **الثانى**..

إن من يراجع بدقة المُناخ الذى دارت فيه عملية "عناقيد الغضب"، والنصوص التوراتية واعترافات الصهاينة أنفسهم، بل واعتراف الرئيس «كلينتون» أيضًا حين

أعاد العملية إلى غضب التوراة "الإلهى".. يدرك أن هذه العملية التى استمرت بين 11 و26 أبريل لم تكن لتخرج عَن العنصرية الغربية وعناقيدها الصهيونية بأية حال!

هذا تعبير يؤكده الواقع ويبرهن عليه.

إن تعبير "عناقيد الغضب" نجده فى العديد من نصوص التوراة..

وهى نصوص كثيرة نكتفى منها بالآتى:

ففى إصحاح واحد هو «إشعيا»، نعثر على كم الغضب الإلهى الذى ينحاز إلى اليهود بشكل مخيف!

وفى الإصحاح 29 وحده ـ على سبيل المثال ـ نقرأ هذه العبارة:

«أليس فى مدة يسيرة جدًّا يتحول لبنان بستانًا، والبستان يُحْسَب وَعْرًا، ويَسمع فى ذلك اليوم الصُّمُّ أقوالَ السِّفْر، وتَنظر من القَتَام والظلمة عيون العُمْى».

وقبل ذلك بقليل نقرأ أيضا فى الإصحاح 26 هذه العبارة:

«هَلُمَّ يا شعبى ادخل مَخَادِعَك، وأغلِقْ أبوابك خلفك، اختبئ نحو لُحَيْظَة حتى يَعْبُر الغضب، لأنه هو ذا الرب يخرج من مكانه ليعاقب إثم سكان الأرض فيهم، فتكشف الأرض دماءها، ولا تغطى قتلاها فيما بعد».

إن "عناقيد الغضب" يظل تعبيرًا توراتيًّا مستوحًى من التوراة، وليس من رواية «شتاينبك» الشهيرة بنفس الاسم كما ظن البعض.. ففى العديد من أسفار اليهود نجد هذه الألفاظ التى تُنسب إلى الرب «يهوه» لأعداء شعبه:

«أحْرِقْهم جميعًا.. فمن قاومنى بالحَسَك والشَّوْك، اهجم عليه بالقتال وأحرقهم جميعا»!

وما يجمع حاخامات اليهود هنا، أن النص التوراتى لا يُعفى مَن يقوم بمثل هذه *الفظائع ـ حتى قتل الأطفال والنساء ـ من تبعية الجرائم التى يقترفها ليعم السلام* أرض إسرائيل!

ومن هنا، فلا فارق كبير بين حكام إسرائيل وحاخاماتهم، بين عنف «رابين» وأسلوب «بيريز».. بين تعصب «كاهانا» وإرهاب «عامير».. وبين إرهاب «جابوتنسكى» وإرهاب «نتنياهو» فيما بعد..

وما يَلفت النظر فى مراجعة التوراة فى هذا المُناخ، أن الألفاظ الدالة على الغضب ذُكرت فى هذا الكتاب بالنسبة إلى الله نحو خمسة أضعاف استخدامها بالنسبة للإنسان!

وهو استخدام يمضى فى سياق بنى إسرائيل فقط.. ومن أجلهم.

نجد هذا فى سِفْر «إشعيا»، كما نجده فى أسفار كثيرة أخرى: «حزقيال»، والمزامير، و«هوشع».. إلخ.

كما يَلفت النظر أكثر، أن هذا الغضب وعناقيده المكتظة يسمى بـ "يوم الظلمات" فى سفر «عاموس»، و"يوم الغضب" الذى لم يستطع أحد الإفلات منه قَطّ، لا اللبنانيين ولا السوريين ولا الوثنيين ولا الأشرار.. وكلها مترادفات لا تخرج عن المعنى الواحد الذى كُتبت من أجله التوراة، والذى حُشد للقضاء عليه غضب الإله اليهودى «يهوه».

نستطيع أن نكتب فصولاً - بل مجلدات - حول هذا..

وهو أمر لم يَعُد اليوم خافيًا، حتى على القارئ العادى داخل فلسطين أو خارجها.

فى أحدث كتب الباحث المصرى «أحمد عثمان» (مخطوطات البحر الميت)، نلاحظ أن سفر «إشعيا» - الذى يزخر ببغض إله اليهود لأعدائهم، والذى استُوحيَتْ منه عناقيدهم - عُثر عليه بشكل أكثر من غيره فى الكهوف الأثرية؛ فقد عثر له على *18* نسخة، وهو ما يشير إلى الاعتقاد الراسخ لدى الصهاينة (وحدهم!) من أن الإله لا يغضب إلا من أجل أبنائه اليهود فقط، وأن هذا الغضب هو الأسلوب الوحيد للتعامل مع الأغيار!

بَيْدَ أن هذا كله يطرح سؤالا آخر، هو:

ـ وهل يهود إسرائيل اليوم هم هم يهود التوراة.. يهود «إشعيا» و«حزقيال» و"التكوين"؟

سؤال لم نَعُدْ فى حاجة للإجابة عليه.

(7) الهوية العنصرية

فى شهر يوليو من عام 1995، احتفلت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بذكرى مرور ربع قرن على إنشائها.

وقد بدأ الاحتفال بالفعل فى مبنى جامعة الدول العربية بندوة شارك فيها عدد كبير من المهتمين والمسئولين، وكانت كلمات المسئول عن المنظمة أبرز ما جاء فى هذه الندوة من مراجعة للذات حول الماضى وآفاق المستقبل.

وكان اللافت للنظر أن كلمة الختام لخصت موقف الهوية العربية فى هذا العالم، وتوقفت ـ وهى ترصد معوقات المشروع العربى ـ عند العلاقة بين الهجرة العربية إلى الشمال، وموقف العنصرية الغربية من الجنوب..

وهو ما يستوجب منا التوقف عند الندوة (كمثال).

لقد تأكد صراحةً أن الغرب فى سعيه إلى البحث عن عدو جديد يتمثل فى الإسلام أو الأصولية أو الإرهاب العربى إلخ، يحاول الآن تضخيم المخاطر التى يتعرض لها من جَرّاء الجاليات العربية والإسلامية المغتربة فى أرضه.

وهو ـ فى نفس الوقت ـ يوظف واقع المشاكل التى تواجهها بعض البلدان المتوسطية من أجل إثارة المخاوف من قيام اضطرابات اجتماعية فى البلدان الغربية بسبب هجرات كبرى من الجنوب فى اتجاه الشمال، وخاصة من بلدان المغرب العربى، فى اتجاه الدول الأوروبية فى الحوض الغربى للمتوسط، حيث يتسبب الخوف من الهجرة فى إثارة وتعزيز الحركات العنصرية المتطرفة.

إن هذه الحركات العنصرية ـ كما قيل صراحة ـ تحاول إعادة الاعتبار للنازية.

ولا يَخْفَى ـ كما أشار غير واحد فى المؤتمر ـ أن ألوان الخوف هذه تدفع الغرب إلى البحث عن آليات تضمن مصالحه، وهى آليات لا تنسجم دائمًا مع المبادئ التى ما فتئت تدافع عنها، مثل حرية تنقل البضائع والأشخاص. وقد شرعت دول الاتحاد الأوروبى فى رسم الملامح الأساسية لسياسة مشتركة تتعلق بمواجهة الهجرات المحتملة من جهة، ومعالجة وضع الجاليات المغتربة، والتى استقرت بعدُ فى ربوعها، من جهة أخرى.

وهذا ما يفرض على المجموعة العربية أن تفكر فى صياغة سياسة مشتركة قابلة للتطبيق من أجل التكفل بالمشاكل التى تواجهها تلك الجاليات.

والأمر هنا لا يتطلب السعى لتعميق خصوصيتها إلى درجة تجعل منها جسمًا غريبًا يثير المخاوف ويتسبب فى رد فعل عدائى، ويُتَّخَذ ذريعةً لتغذية التيارات العنصرية، ولكنه يتطلب أساسًا السعى إلى أن يتحقق داخل تلك الجاليات توازن ثقافى ونفسى يضمن صيانة خصائصها من جهة، ويؤمّن انسجامها مع متطلبات البلد المضيف من جهة أخرى.

وعلى هذا النحو بدأت القضية تتحدد من أحد جوانبها فى الجاليات المغتربة لنا فى الغرب، وما يرتبط بذلك من مشاكل تدخل فى صميم التحديات التى تواجه مجتمعاتنا..

فتلك الجاليات تمثل شرائح مهمة من شرائحنا الاجتماعية لا تخلو من تأثير هنا أو هناك.

ومن هنا، فالأمر يتعلق بإيجاد نوع من الانسجام بين متطلبات "الشىء السياسى" الذى يُعَبَّر عنه بالمواطنة، و"الشىء الثقافى" الذى يظهر من الانتماء إلى فضاء ثقافى مُغاير لذلك الذى يوجد فى البلد المضيف.

بمعنى آخر: إن التأكيد المُبالَغ فيه على الانتماء، قد يبدو فى نظر البلد الذى

يستقبل المغترب تهديدًا للوحدة اللازمة لتنظيمه السياسى والاجتماعى؛ أى أن المبالغة في الإلحاح على الهوية الثقافية قد يؤدى إلى اصطدامات توظَّف من طرف عنصريين يَسْهُل عليهم - والحالة هذه - أن يعتبروا ذلك ضربًا للوفاق الوطنى فى بلدهم، الذى هو ضرورى لإدارة النظام وتسيير البلد.

ولا يَخْفَى أن استعمال حرية التنقل والحركة لا يمكن أن يقدَّم حجة للدفاع عن مبدإ الهجرة بدون حدود أو ضوابط.

صحيح أن أوروبا الحديثة كانت نتيجة مَخاض طويل اختلطت فيه عدة قبائل وأعراق..

غير أنه من المؤكد أن العمق الدينى الواحد كان يجمع بينها رغم ما عرفَتْه من حروب أهلية.

أما الهجرات التى تعنينا، فهى تلك التى تأتى من خارج أوروبا.. ويَزِيد فى حساسية الموضوع، أن هناك عدة عوامل تضافرت على اصطدام مثل هذه الهجرات بصعوبة بالغة، ولعل أهم هذه العوامل: انعدام قاسم مشترك ثقافى/ دينى.

ثم إن الأزمة الاقتصادية التى تعرفها أوروبا تتعزز هنا مع الأزمات التى يعرفها عدد من البلدان العربية والإسلامية، لتحمل هذه الجاليات مسئوليات ما تعانيه بعض المجتمعات الأوروبية من مشاكل.

....

وتنتهى كلمات المشاركين (وهى كثيرة، وتحتاج إلى العودة إلى محاضرها كاملةً) فى ندوة المنظمة العربية.. على حين تظل قضية العنصرية الغربية تطل علينا من أكثر من نافذة:

- الاقتصاد.

- العامل الثقافى/ الدينى.

- خطورة استخدام المغتربين فى مشاكل سياسية تؤثر على سياسة البلد المضيف.

إلى غير ذلك من النوافذ التى تهدد بتصاعد عاصفة العنصرية وتداعياتها على الهوية العربية.

(8) قيام وسقوط الفاشية

يظل هذا العنوان صحيحًا فى إطار الكتاب الذى صدر للدكتور «سيد الناصرى»، أى فى حدود الماضى، حين تَحَدَّث عن قيام هذه الظاهرة الفاشية فى إطار الماضى.. أما الحاضر، فبوسعنا أن نستبدل بهذا العنوان عنوانًا آخر يخلو من كلمة السقوط، أى يكون على هذا النحو (قيام الفاشية)، وبشكل أدق - كما تقول الأدبيات السياسية اليوم - (الفاشية الجديدة)، حيث إن المتابع لما يحدث فى إيطاليا اليوم، يلاحظ عودة العنصرية "الموسولينية" فى أثواب حزبية.

إنها الفاشية الجديدة بحق!

فلنترك الفاشيين الجدد، مؤقتًا، ونتمهل عند الظاهرة كما يكتب عنها أستاذ التاريخ.

إن أكثر ما يلفت النظر فى كتاب الدكتور «الناصرى»، استخدامه - ربما لأول مرة - منهج التحليل النفسى للتاريخ.

إنه يخصص له بابًا كاملاً يستعرض فيه دوره فى الدراسات الغربية وأهميته، مؤكدًا فيه إلى أى مدى يمكن أن يقدم التحليل النفسى مساعدة كبيرة فى عملية بحث الوقائع من أجل الوصول إلى الحقيقة العارية وتفسير التاريخ، ومشيرًا إلى أن التحدى الحقيقى يظل تفسير الوثائق تفسيرًا باطنيًا ونفسيًا وليس ظاهريًا فقط.

ولا يلبث أن يصل فى الدراسة التطبيقية من خلال التاريخ النفسى إلى «موسولينى» بوجه خاص.

وفى الدراسة التطبيقية، يبدأ الكاتب من طفولة «موسولينى» وحرمانه الذى انعكس على شخصيته، ثم الهجرة إلى مواقع كثيرة تُبْذَر فيها بذور الفاشية من سويسرا إلى الحرب العالمية الأولى إلى رئاسة الوزراء، فتعميق الفاشية أكثر فى التقاء «موسولينى» «هتلرَ» والتعاون معًا فى الحرب العالمية الثانية، فتخبُّط الحكومة الفاشية، فبداية السقوط الفاشى بهزيمة «موسولينى»، ثم مراحل سقوطه عبر هروب ومطاردات وهزيمة انتهت به إلى إعدامه مع عشيقته فى نهاية الأمر!

غير أن الكتاب يترك لمحات نفسية تستحق التأمل؛ فرغم أن المؤلف حرص على أن يشرح المنهج النفسى وتطبيقه على التاريخ فى باب كامل، فإن معالجته غَلَب عليها استخدام المنهج النقدى والتاريخى أكثر من أى منهج آخر.

بَيْدَ أن هذا كله لا يخلو من ومضات نفسية دالة، نختار منها اثنتيْن:

أولاً:

لم يكن «موسولينى» قد أدرك حجم السقوط إلا فى اللحظات الأخيرة، إذ أدرك أن ما فعله كان بدافع طموح أقرب إلى الهَوَس أكثر من أى شىء آخر، يقول:

«أنا و"هتلر" أسلمنا نفسيْنا لأوهامنا كاثنيْن من المجانين. ويتبقى لنا أمل واحد: أن نتحول إلى أسطورة!».

وهو ما يثير هنا أكثر من سؤال:

- هل أدرك الديكتاتور حقًا، فى اللحظات الأخيرة، أنه انتهى إلى حالة هى أقرب إلى الجنون منها إلى الطموح المشروع؟

- وهل هذا الجنون كان يسبقه - كما يعترف - شىء من الأوهام التى لا تفسَّر إلا فى ضوء الاختيار الخاطئ أو النقص الطبيعى فى شخصية الديكتاتور؟

- وهل يعرف الديكتاتور منذ البداية أنه يسلم نفسه لمثل هذا الشعور، ومع ذلك ينساق إليه؟

ثم.. هل يمكن أن نقول إنه فى ضوء ذلك كله، كان الديكتاتور فى لحظات ما قبل السقوط النهائى، يطلب الخلود عِوَضًا عن الجنون حين يتركز أمله فى أن يتحول إلى أسطورة؟

أسئلة كثيرة.. نجد إجابات لها لدى «موسولينى» فى النصف الأول من القرن الفائت، وأكثر من «موسولينى» فى النصف الثانى منه، حيث تزدهر نماذج العنصرية فى الكيان الصهيونى، ويُستبدل بـ «موسولينى» آخِر رمز له ممثلاً فى ملك اليهود «نتنياهو»!

ثانيًا:

كان «موسولينى» - كأغلب الدكتاتوريين - يميل إلى الفن وأصحابه إلى درجة يعبّر عنها المؤلف بهذا التعبير:

«إن هناك قاسمًا مشتركًا بين أغلب الطغاة والحكام والدكتاتوريين، وهو أنهم جميعًا يشعرون بمُركّب نقص نحو العبقرية الفنية».

وهنا نفهم تكوين العنصريين فى أقنعتهم المختلفة:

- إن «هتلر» كان رسامًا موهوبًا أو متواضعًا.

- وكان «موسولينى» شاعرًا وموسيقيًّا.. أو حاول أن يكون كذلك.

- وأراد «نيرون» أن يكون مغنّيًا.

- إلى آخر هذه الأسماء قبل «موسولينى» وبعده حتى الوقت الراهن.

وهو ما يثير - كذلك - أكثر من سؤال آخر دال:

- هل كان الدكتاتور يبحث فى ذاته عن الآخَر "المثقف"؟

- وهل هذا البحث له علاقة بموقفه من المثقف أو الفنان بشكل عام؟

- وهل هذا النزوع إلى الكتابة أو الفن يعكس العلاقة التى كانت دائمًا بين الفقيه

والسلطان فى تاريخنا الإسلامى (وقد تعددت صور السلاطين أو الحكام الذين كانوا ينظمون الشعر أو يمارسون اللحن فى تاريخنا الإسلامى)، أو بين المثقف والحاكم اليوم. حيث إن هذا الأخير يحاول من آن لآخر أن يمنح مثقفيه الدروع والشهادات والأنواط.. إلخ؟

معنى *هذا كله أن التاريخ* يعيد نفسه، *وأن الفاشية* تعود مرة *أخرى*.

ومعنى هذا أكثر أننا ما دمنا لم نتعلم من التاريخ، فإن قانون التاريخ الأزلى يؤكد أن مَن لم يتعلم من التاريخ يكون عليه أن يعيش التاريخ مرة أخرى.

ولذلك، فنحن نعيش قيام الفاشية مرة ومرات أخرى كثيرة..

أما سقوطها، فنعرفه فى كتب التاريخ فقط!

(9) تعقيب

«د. عبد الوهّاب المسيرى» أستاذ كبير، وله رأى فى قضية كاليمين العنصرى، فكتب يقول:

«يبدو أن الخطاب التحليلى فى العالم قد تم تَسْيِيسه تمامًا، بمعنى أنه لا يتم التعامل مع الظواهر الإنسانية المُركّبَة إلا من منظور سياسى (أو اقتصادى) وحَسْب. والمنظور السياسى ليس محايدًا أو موضوعيًّا، وإنما ينطوى على تحيّزات أصحابه؛ فحينما يقول قائل إن سبب ظهور الأصوليات المختلفة (وكل حركات الاحتجاج فى العالم) هو "الأزمة الاقتصادية"، فإنه قد انطلق من رؤية متكاملة للواقع تنحاز للتفسيرات الاقتصادية المادية. فالإنسان - حسب هذه الرؤية - إنْ هو إلا كائن اقتصادى، تحركه الدوافع والعناصر الاقتصادية (مُرَاكَمَة الثروة - قُوَى الإنتاج)، ولذا فمَن يَوَدُّ أن يحل أزمة الإنسان، عليه أن يتوجه إلى الأزمة الاقتصادية من بطالة وتضخم إلخ. والسياسى فى داخل هذا الإطار مرتبط تمامًا بالاقتصادى.. قد يتحرر منه بضع لحظات، ولكن كل الأمور فى نهاية الأمر - وفى التحليل الأخير، كما يعرف أى طفل درس السياسة والاقتصاد - اقتصادياته.. أى مادته.

ولكن هذه رؤية اختزالية مُبْتَسَرَة للإنسان، فهو قد يكون فى بعض جوانبه إنسانًا

اقتصاديًا ("آدم سميث" و"ماركس")، أو جسمانيًا جنسيًا ("فرويد")، أو حيوانًا صراعيًا ("داروِن" و"نيتشة")، ولكنه يظل أكثر تركيبًا من كل هذه النماذج التفسيرية التى تحاول أن تفسره فى كُلِّيَّته فى إطار عنصر مادى واحد.. فالإنسان لا يَقْنَعْ بالبرنامج المادى المقرر له من خلال بيئته المادية عن طريق جهازه العصبى (على طريقة النحل والنمل واليرقات)، بل إنه يبحث دائمًا عن المعنى؛ فهو لا يكتفى بالحركة الآلية البَرَّانيَّة المنتجة.

هذا هو البُعد الإنسانى الذى تُسقطه النظريات المادية الصراعية. ولذا فحينما ندرس الظواهر المحيطة بنا، سواء فى الشرق أو الغرب، فإننا نشمِّر عن سواعدنا لنعرف معدلات الإنتاج والاستهلاك وعدد الأسلحة، ونؤسس نبوءاتنا داخل هذا الإطار، ونهمل الإنسان الذى ينتج ويستهلك ويحارب. ولذا "فوجئنا" بسقوط الاتحاد السوفييتى (رغم إنتاجيته العالية) تمامًا كما فوجئنا بانفجار "أوكلاهوما" رغم بحبوحة العيش التى يعيش فيها أبناء "العم سام".

إن التفسيرات الاقتصادية المادية مريحة للغاية، ولكنها قاصرة، بل وتافهة. ولنحاول أن نبتعد عن الاختزال، ولْنَرَ الإنسان فى العصر الحديث باعتباره منتجًا ومستهلكًا، يضاجع النساء ولكنه يبحث عن المعنى والفهم. إنْ فَعَلْنا ذلك لفهمنا ظاهرة الأصوليات باعتبارها تعبيرًا عميقًا عن أزمة المجتمع الحديث (التى نقرأ عنها فى الأدب الحداثى ولا نربط بينها وبين واقعنا المعاش).

إن المجتمع الحديث أعطى الإنسان الغربى ثلاجة، وحريته السياسية والجنسية، وسيارة.. وسلَبَه الأسرة والطمأنينة والمعنى. يجلس المواطن الأمريكى داخل بيته المكيف بالهواء أمام التلفزيون، فيرى سيلاً من الإعلانات الجنسية الفاضحة والأفلام الإباحية، والبرامج التلفزيونية التى ليس لها أى علاقة بمنظومته القِيَمِيَّة أو بأشواقه وأحلامه كإنسان. ويرى أسرته - التى تتمتع بمستوى معيشى لم يعرف البشر مثله من قبلُ ولا من بعدُ - وهى تتفكك بسرعة.. ويرى المخدرات وهى تتزايد، والبحث عن اللذة يزداد حدة، وكذا الحَمْل السِّفَاح بين المراهقات.. والسوق الحرة وهى تتسع وتبتلع ثقافته الشرسة رفْقَ الحياة العامة والخاصة، فيشعر أنه فقد السيطرة.. وتشتعل الحرائق!

أما نحن فقد سلَبَنا هذا المجتمع الحديث كل شىء تقريبًا، ولم يُعْطِ إلا لأعضاء النخبة بعض الأشياء. وفى الصعيد الجُوّانى، يجلسون الآن أمام التلفزيون ينظرون بوجوههم السمراء وعيونهم المصرية السوداء ويرون بيضاوات صغيرات جميلات، عيونهن فى الغالب خضراء، يقفزن يمينًا ويسارًا يبشّرنَ الجميع بالفردوس الأرضى، ويتوجهن للإنسان الاقتصادى والجسمانى مباشرةً، بلا شفقة أو هوادة، فتزيد الحرارة الجنسية والاستهلاكية، ويتفتت المجتمع وتسقط القِيَم.. ومع هذا لا تصل البضائع - يا ولداه - فتشتعل الحرائق!

هذا هو إطار ظهور الأصوليات فى العالم، وفى حركات احتجاجية شَعْبَوِيَّة، لها أصول حقيقية فى الواقع، ولكنها - شأنها شأن كل الحركات الشعبوية (عبر التاريخ) - عادةً ما تأخذ أشكالاً مباشرة ساذجة، ومن هنا الفشل فى طرح برنامج سياسى حضارى شامل.. ومن هنا التفجيرات والاغتيالات (خاصةً وأن القنوات السياسية والإعلامية الشرعية فى العادة غير مفتوحة أو متاحة). ولكن الشكل المدمر يجب ألا يُنسينا شرعية الشكوى ومضمونها الإنسانى العميق.

ولا شك أن بعض الحكومات والمخابرات الأجنبية تحاول توظيف حركات الاحتجاج لخدمة أهدافها، بل وتُصَعِّد من تدميريتها. ولا شك أن المخابرات الأمريكية - والتى تبلغ ميزانيتها ما يزيد عن ميزانية كثير من دول العالم الثالث - تؤدى دورًا نَشِطًا ومخربًا. ولا شك أنها تَستخدم مثل هذه الجماعات فى زعزعة نظم الحكم المختلفة، سواء فى أوروبا أو فى العالم الثالث، ولكن علاقة "العناصر الخارجية" (حركات الاحتجاج الأصولية) لا تتجاوز عملية التوظيف الذى يتم أحيانًا دون إدراك من المحتجين أنفسهم بما يحدث. وللتعامل مع ظاهرة الاحتجاج الشعبوى العنيف هذه، لن يفيد كثيرًا إلا الاستناد إلى التحليلات الاقتصادية التى ستزيد النار اشتعالاً.

وليس حقيقيًّا أن اليمين الأمريكى يتمتع بمساحات شاسعة فى الإذاعة والتلفزيون؛ فالتى تسيطر على الإعلام الأمريكى هى العناصر الليبرالية التى تفرض فصل القيم الأخلاقية عن رقعة الحياة العامة، والتى تحاول أن تخصخص كل شىء: جسد الإنسان

وروحه. وقد بدأت تظهر فى الغرب حركات احتجاجية، بعضها يمينى، وبعضها يسارى، وبعضها إنسانى (هيومانى)، تحاول أن تطرح مشروعًا حضاريًّا شاملاً تؤدى القِيَم دورًا أساسيًّا فيه، ويحاول أن يجد حلاً لمشكلة المعنى.

ومع هذا تنبغى الإشارة إلى أن اليمين الغربى والحركات الأصولية الغربية لم تدرك بما فيه الكفاية بَعْدُ الأثرَ المدمرَ للسوق الحرة على القيم الأخلاقية، ولذا فهناك تناقض عميق بفكرهم من هذه الناحية؛ فهم ليبراليون من الناحية الاقتصادية، محافظون من الناحية القِيَمِيَّة.. فكأنهم يريدون حياة عامة لا معنى لها، خاضعة لآليات السوق.. وحياة خاصة يسيطر فيها الإنسان على عالمه، وتتحكم فيها الإنسانية!».

(10) نوبل والعنصرية

لا نستطيع أن نتحدث عن الإنصاف والحَيْدَة والموضوعية وما إلى ذلك حين نتحدث عن الجوائز.. ولا نستطيع أن نجزم أن أصحاب هذه الجائزة أو تلك يُختار الأفضل فى اختياراتهم!.. غير أن هذا يظل حُكْمًا مُطْلَقًا وخروجًا عن دائرة المُطْلَقَات.

وسوف نتوقف عند جائزة بعينها، ولجنة - أو هيئة عالمية - بعينها.

الجائزة هى جائزة نوبل..

والهيئة هى الأكاديمية السويدية.

والمعروف أن جائزة نوبل تُمنح فى أغلب ميادين الحياة، وتعلَن أسماء الفائزين بها على مدى تسعة أيام بين 8 و16 من أكتوبر من كل عام. وقد مُنحت جائزتُها فى الآداب هذا العام (1998) للروائى البرتغالى «جوزيه ساراماجو».

وهنا نعود إلى السؤال: هل تُمنح جائزة نوبل بنزاهة لا يمكن الطعن فيها؟

الإجابة نقولها مسبقًا: لا؛ فالعنصرية الغربية تؤثر فى كل شىء، بما فيها الجوائز!

وقبل أن يتحدث أحد عن هذه الأسماء التى حصلت على الجائزة من دول العالم الثالث - ومن بينهم «نجيب محفوظ» من مصر، أو «أكتافيو باز» من المكسيك - نعود لنؤكد أن هذه العنصرية الغربية تَسْرِى فى حياتنا إلى كل شىء، وتحاول أن تعبّر عن الوجه الحقيقى للغرب إزاءنا.. وهذه الاختيارات تؤكد القاعدة ولا تنفيها.

وسوف نعرض للأسماء التى حصلت على هذه الجائزة، وسنكون أكثر تحديدًا ونختار عَيِّنَة تتحدد فى السنوات العشر الأخيرة.

إن هذه السنوات تبدأ بعام 1990 لتصل إلى هذا العام 1998، ومُنحت فيها جوائز الآداب إلى كُتّاب من بلاد هى - بالترتيب أيضًا - المكسيك وجنوب إفريقيا وترينداد والولايات المتحدة الأمريكية واليابان وأيرلندا وبولندا وإيطاليا والبرتغال.

وهنا نسأل: أىُّ الدول تنتمى إلى الشمال بالمعنى الغربى؟

وأى الدول تنتمى إلى الجنوب - بالمعنى الشرقى - أو إلى العالم الثالث؟

النظرة السريعة إلى القائمة تشير إلى أن مَن حصلوا على الجائزة من الغرب هم بالترتيب: الولايات المتحدة الأمريكية واليابان وأيرلندا وبولندا وإيطاليا والبرتغال، فى حين حصلت عليها من الدول الأخرى التى تنتمى إلى العالم الثالث دول كالمكسيك التى تنتمى إلى أمريكا اللاتينية، وترينداد - سانت لويس - التى تقع غرب فنزويلا؛ أى فى نفس الدائرة السابقة.. وجنوب إفريقيا التى ما زالت - رغم هيمنة البيض عليها - تنتمى لهذا العالم الذى لا يُحسب على الغرب؛ ذلك لأن الأغلبية فى جنوب إفريقيا ما زالت للأفارقة وقبائلها، ولجنسها الزنجى من أهل البلاد الأصليين، ومن ثم فإننا لا نكاد نتحدث عن حكم البيض، الذى توارى الآن وراء «مانديلا»، حتى نرى جنوب إفريقيا - كرمز - تنتمى لهذا العالم النقيض!

ولا نحتاج إلى جهد كبير لندرك أن ست جوائز مقابل ثلاث، تعنى غَلَبَة العالم الغربى على عالم الجنوب.

إنها غلبة الشمال العنصرى على الجنوب المتخلف..

هكذا بوضوح شديد!

ومع أننا فى كل عام نَتَكَهَّن بأسماء تنتمى إلى العالم الثالث أو إلى الصين (التى لم تُمنح جائزة واحدة رغم جذورها الحضارية ونتاجها المتحضر)، فإننا ـ بمجرد الإعلان عن منح الجائزة كل عام ـ ندرك أن العنصرية هى التى ترشِّح، وهى التى تنتصر دائمًا. ومن الغريب أنه فى حديث أخير أُجرى مع «ستورى ألين» ـ السكرتير الدائم للأكاديمية السويدية ـ قال بوضوح: «إننا نحاول أن نكون عالميين»، هذا على حين رد على محدثه ذات مرة متسائلاً: «ماذا تقصد بالعالم الثالث؟».

هل تعلمون ـ أيها السادة ـ مَن فاز بالجائزة هذا العام، وكل عام؟

الإجابة هى: العنصرية!

بَيْدَ أن العنصرية هنا تحتاج إلى صور أخرى.. صور تشكّل قناعًا آخر جديدًا!

(هـ)

من أقنعة العنصرية:
"الهاكَرْز"

أوروبا والرسوم.. الوجه الآخر

ما زال الغرب - الأوروبى خاصةً - يحمل هذا الوجه البشع الذى يطل به علينا فى الأزمات التى تعانى منها أوطاننا العربية، وخاصةً عالمنا الإسلامى. وآخر هذه الأزمات هى أزمة الرسوم..

إنه القناع الذى يرتديه ذلك "الهاكرز" الغربى المرعب فى عالمنا المعاصر.. الرسوم الدنماركية التى يشتعل أوارها الآن..

والواقع أن الموقف الأوروبى مما نعانيه فى المؤتمرات المشتركة أو المواقف خارج هذه المؤتمرات، يؤكد لنا أن الوجه الآخر (الاستعمارى) القديم لم يتغير ولم يتطور فى إطار المناخ الجديد، وإنما هى الدوافع المُعادية التى تحرك أى تجمع يتحدث باسم الغرب.. فمبادئ الديمقراطية أو حقوق الإنسان تظل جزءًا لا يتجزأ من مؤتمر الدول الثمانى (بالاتفاق مع الولايات المتحدة).. ومراجعة المؤتمرات والقمم العربية/ الأوروبية التى عُقدت فى الفترة الأخيرة ترينا بشاعة هذا الوجه، خاصةً حين يتعلق الأمر بأهم قضية تشغل الرأى العام منذ عاصفة مانهاتن، حيث تحولت قضية المقاومة - على سبيل المثال - إلى إرهاب، وحيث تحولت قضية حقوق الإنسان إلى حقوق الغرب، وحيث راح الغرب يتحدث عن نزع أسلحة الدمار الشامل وإعادة النظر وتقويم حصاد الشراكة المتوسطية وما إلى ذلك، وهو ما نجده فى العديد من المواقف أو المؤتمرات التى تعقد هنا وهناك.

وسوف نكتفى هنا بموقفين..

وإذا أردنا مثالاً واحدًا، تَذَكَّرْنَا المؤتمر الأخير الذى عُقد فى نهاية عام 2005 فيما يُعرف بمؤتمر "برشلونة"؛ فهذا المؤتمر الذى عُقد بين العرب والغرب فى

برشلونة بعد عشر سنوات من المؤتمر الذى عُقد باسمه عام 1995، لم ينجح فى إصدار بيان مشترك ـ كما هو الحال فى أى مؤتمر مشترك ـ لموقف الغرب القبيح منا.. وغاية ما حدث: إعلان بيان رئاسى ليس "جَمْعِيًّا" بعد أن فشل كل الحاضرين فى دفع الغرب الأوروبى إلى أن يتبنى بيانًا يؤكد المطالب العربية!.. ومن ثم يبقى علينا أن نرى كيف تَعامَل الغرب فى هذا المؤتمر مع قضية حيوية مثل التعامل مع المجتمع المدنى، ولا سيما قضية الديمقراطية.

إن مؤتمر برشلونة 2005 كان أكثر المؤتمرات التى راحت تبدى امتهانًا شديدًا للوعى العربى. وكان من السهل على أى مراقب أن يلاحظ إبان عَقْد هذا المؤتمر الأخير، وكما تَرَدَّدَ وقتها، كيف أن إنجلترا خدعت العرب؛ فقد رددت المصادر حينَ ذاكَ أن «البريطانيين خطفوا مدونة سلوك مكافحة الإرهاب، ورفضوا بشكل قاطع تثبيت حق المقاومة فى الوثيقة النهائية..» إلى غير ذلك بالنص.

ولا نريد أن نتوقف كثيرًا أمام هذا المؤتمر الذى لم يستطع القادة الأوروبيون فرض إرادتهم فيه على العرب المشاركين، كما لم يشهد المؤتمر حضور أغلب القادة العرب؛ لليقين مسبقًا بما يمكن أن يسفر عنه!

هذا هو الموقف الأول: مؤتمر برشلونة 2005.

أما الموقف الآخر فيتأكد إثر هذه المحاولة للنَّيْل من النبى «محمد» ﷺ، حيث اجتمع البرلمان الأوروبى قبل أيام ليصدر قرارًا يدافع فيه عن الذين راحوا يسيئون إلى الرسول ﷺ، مرددًا قضية وهمية هى قضية "حرية التعبير"، حيث جاء فى البيان الأخير ـ وبالحرف الواحد ـ أن حرية التعبير "يجب أن تمارَس دائمًا ضمن الحدود التى يفرضها القانون، كما يجب أن تتماشى مع المسئولية واحترام حقوق الإنسان، إضافةً إلى المشاعر والقَناعات الدينية"!.. ثم أعلن بدم بارد بعدها عن تضامنه مع الصحفيين فى عدد كبير من الأقطار العربية والغربية الذين أعادوا نشر الرسوم الكاريكاتورية وعلّقوا عليها بشجاعة، وأدان بشدة توقيفهم، وطلب من حكوماتهم الإفراج عنهم (هكذا)!

الأكثر من هذا أن البرلمان الأوروبى راح يعلن بوضوح شديد تضامنه مع الدنمارك وغيرها من الدول التى "طالتها تلك الردود"، وشَدَّدَ مكررًا أكثر من مرة على أن الدول التى شهدت أعمال عنف وتظاهرات ضد نشر الرسوم "هى أمكنة تشهد فى شكل منتظم انتهاكًا لحرية التعبير وحق التجمع"!

والغريب أن بيان البرلمان يردد من آن لآخر ضرورة العَوْد للمناخ المثالى المخادع، وهو المناخ الذى يدعو - كما يؤكد - على الحوار البَنَّاء والسلمى بين الثقافات.. ففى حين لاحظنا أن صحيفة "جولاند بوستن" الدنماركية راحت تعلن اعتذارها على الصحف الإلكترونية وخارجها، لم يَخْلُ هذا الاعتذار فى الوقت نفسه من التأكيد على أن اقتناعها بنشر الرسوم لم يتغير!

لم يَغِبْ هذا الموقف للعديد من الدول الأوروبية - منفردةً أو بشكل جماعى - كما رأينا فى البيان الذى صدر أخيرًا عن "البرلمان" الأوروبى، وهو ما يدفعنا إلى تذكّر العديد من هذه المواقف المُعادية لنا من قِبَل أوروبا، وهى مواقف تستمر قبل عصر "الإمبريالية" وبعده..

إن أوروبا لم تغير قناعاتها، وإنما ازدادت شراسةً فى التعبير عنها بشكل يؤكد موقفها المُعادى لنا.

إن رئيس تحرير صحيفة "كارستن جيست" الدنماركية، نجده فى العديد من رؤساء التحرير الأوروبيين بالشكل الذى نجده فى رجال البرلمان الأوروبى.. بالشكل الذى نجده حتى فى المؤتمرات المشتركة بين العرب والغرب؛ فالغرب غرب ولن يتغير أبدًا.. والوجه البشع الذى ترك وراءه آثارًا لكل ما نعانيه الآن، ما زال بيننا فى البرلمان الأوروبى أو على شبكة الويب.

إن "الهاكرز" الغربى القبيح لا يزال قائمًا بيننا!

الولايات والإمارات.. الوجه الآخر

وكما رأينا فى المرة الماضية الوجه الآخر القبيح فى علاقتنا بالغرب الأوروبى،

خاصةً حين تتعرض هذه العلاقة لأزمة مثل أزمة الرسوم الدنماركية.. كذلك تمر أمامنا الآن ملامح هذا الوجه الآخر فى علاقتنا بالغرب الأمريكى..

وبرغم أن لدينا أمثلة لا تنتهى تبرهن على قتامة هذا الوجه (وهل نحتاج لبرهان؟)، فإن الأزمة التى نشهدها الآن تتمثل فيما تسميه الصحف الغربية بـ "فضيحة الموانئ".. وهى تتحدد فى فكرة إدارة موانئ دبى العالمية للشركة البريطانية التى تدير ست مَوَانٍ أمريكية رئيسية، وهو ما يمثل خطرًا عربيًّا عند المعارضين للصفقة، وهم فى الغالب من اليمين الليكودى الذى ينتشر فى وسائل الإعلام وتقارير وزارة الأمن القومى ووزارة المالية وغيرها.

إن ردود الأفعال ضد دولة الإمارات تدهشنا حين تستعيد هذه المراكز المعادية تُهَمًا سابقة، ولا سيما فيما يتعلق بادعاءات يهودية كانت قد أُطلقت سلفاً ضد مركز «زايد» ـ على سبيل المثال ـ لا نريد تفنيدها لبداهة الموقف العدائى للعرب فيها، خاصةً الأصابع اليمينية واليهودية هناك.. وهو ما يمكن رصده خلال الفترة الماضية عبر عدد كبير من ردود الأفعال..

فمجلة مثل "Frontpage Magazine" ـ على سبييل المثال ـ تُعَدِّد الكثير من الاتهامات الظالمة على "مركز الشيخ زايد"، بل وعدد من مواقف «الشيخ زايد» نفسه، وهى اتهامات الهدف منها ـ كما نعرف ـ النَّيْل من دولة الإمارات ومواقفها العربية بأثر رجعى، على اعتبار أن هذه الشركة "عربية"!

إن الإعلام اليمينى فى عدد المجلة الصادر فى 23 من فبراير عام 2006، لا يتوقف عن معارضة صفقة الإمارات بأسباب كثيرة للنَّيْل من دولة عربية ـ لمجرد أنها عربية ـ متذرعًا بحجج واهية تهدف إلى تعطيل هذه الصفقة، وهو ما يَبرز معه الوجه العنصرى ضدنا!..

إننا أمام الوجه الإيجابى والنقيض الذى يقدِّم معًا بهدف تعطيل الصفقة!..

ـ إننا نقرأ فى تصريحات مسئول بالإدارة الأمريكية ما يؤكد أن المعلومات الاستخباراتية المالية التى قدمتها دبى كانت لها فائدة خاصة فى متابعة أموال

الهيئات الخيرية السعودية التى كانت على صلة بالقاعدة.. وهنا نسأل: أليس هذا باعثا إيجابيًّا؟

ـ وقد كانت الإمارات حليفًا قويًّا للولايات المتحدة فى مكافحة الإرهاب قبل هجمات 11 سبتمبر بمدة طويلة.. أليس هذا باعثا إيجابيًّا آخر؟

ـ ويؤكد البعض أنهم ـ عرب الإمارات ـ تعاونوا إلى أقصى حد فيما يتصل بمَن وجدوا فى بلادهم.. وماذا يحدث هناك؟.. تعالوا نقرأ: "أبلغونا أن أحد الخاطفين كان قادمًا إلى البلاد، وقدموا وثائق سفر، وراقبوا إيرانيين، وبذلوا قصارى جهدهم فى السعودية. لقد أدوا دورًا محوريًّا فى مساعدتنا على تتبّع الأموال القادمة من السعودية والمرتبطة بهجمات 11 سبتمبر".. وهو ما نَعْجَب معه أيضًا ويجعلنا نسأل من جديد: ألا يضيف هذا لديهم رصيدًا إيجابيًّا لدولة الإمارات العربية؟

ـ وعندما نطلب إجابة محددة عن تمويل السعوديين أو الإيرانيين للإرهاب، فإن الإجابة تكون: "لا.. إنهم يجعلوننا نفحص الأشخاص الذين يعتبرونهم خطرًا عليهم"!.. وتزداد علامات الدهشة لدينا..

ويظهر الوجه العنصرى الآخر مع تتبّع ردود الأفعال.. ففى عدد المجلة التالى ـ الصادر فى 2 من مارس ـ نقرأ أن دولة الإمارات ما زالت تدعم المفجِّرين الانتحاريين الفلسطينيين، ولا سيما "حماس" التى توصف هنا بأنها "إرهابية"!.. وترصد المجلة عددًا آخر من المواقف المعادية للغرب حيال الإمارات، ومن ثم ـ وهنا يبرر المصدر الغربى استعداءه ثانيةً على دولة الإمارات ـ فإن دعم الإمارات لحماس يتماشى وجدول الأعمال الذى كان يروّج له الشيخ «زايد» رحمه الله.. ومن ثم ـ ولا نزال ننقل عن عدد من الباحثين المعادين بمراكز أبحاث غربية ـ فإن موقف الإمارات تَسَبَّبَ فى إغلاق مركز «زايد» الدولى للتنسيق والمتابعة ـ الذى أُسس سنة 1999 كمركز دراسات تابع رسميًّا لجامعة الدول العربية ـ تحت ضغط دولى سنة 2003.. وهو ما يذكّرنا بهذا الجُرح الدامى لمركز أبحاث عربى عانى الكثير من هذه العنصرية البشعة ضدنا..

لقد كان هذا المركز ـ ونحن ننقل بالحرف زيف اليمين الليكودى ـ يناصر منكرى المحرقة من أمثال «تيرى ميسان» و«روجيه جارودى»، وقدم منبرًا للمتطرفين المعادين للغرب والمعادين للمسيحية والمعادين لليهود من قَبيل الاقتصادى «عبد الله الزامل» الذى يُحَمِّل مسئولية الحرب فى العراق للنفوذ "الصهيونى الراديكالى والمسيحى اليمينى".

والغريب فى هذا كله، أن نفس العدد يختم اتهاماته بأنه على الرغم من أن وزير خارجية الإمارات العربية ـ الشيخ «عبد الله بن زايد آل نهيان» ـ أعلن أن الإمارات كانت وستبقى "حليفًا للولايات المتحدة فى محاربة الإرهاب"، فإن دعمها المتواصل لـ "حماس" وغيرها من المنظمات الإسلامية يناقض هذا الإعلان.. وهذا يثير المخاوف على نحوٍ مشروع بشأن استثمار إدارة إماراتية لمَوَانٍ أمريكية! (وعلامة التعجب من عندنا)..

وهو ما لا يزال يثير الغضب من اتهامات لمشروع تديره شركة عربية وليست أجنبية (يابانية أو صينية)..

اتهامات لأن الشركة عربية وحسب! (وعلامة التعجب من عندنا كذلك).

ورغم أن بعض الصحف ـ وإن كانت قليلة ـ ترى فيما يحدث ضد دولة الإمارات نوعًا من "الهَوَس الجماعى" ـ وهو تعبير أطلقته بالفعل صحيفة The NewYork Times وهى تُعَدِّد مواقف الإمارات الإيجابية ضد التطرف، وأنْ "ليس هناك دليل على أن هذه الصفقة ستسبب أذى".. إلى غير ذلك ـ فإن كثيرًا من خصوم العرب فى الإعلام الأمريكى ـ بل وفى الكونجرس نفسه ـ ظلوا يرددون صلة دبى بالإرهاب، وهو ما يشير إلى أن الوجود اليمينى المتشدد، العنصرى، لا يزال قائمًا، وما زال يؤدى دوره ضد "سيطرة" العرب على أمن الميناء رغم بداهة أن مسئولية الأمن هنا تقع على عاتق خفر السواحل وسلطات الجمارك الأمريكية وليس الشركة العربية.

إن المواقف المعادية للإمارات ما زالت تتردد لتشير إلى أن زمن العولمة الإمبريالى ما زال يتهادى بيننا، وأن زمن اليمين المتشدد لا يزال يعادى أى حركة نهوض اقتصادية عربية.

* وهذا واقع عنصرى لابد أن نتتبه إليه دائمًا، سواء أكدته أوروبا فى أزمة الرسوم - كما رأينا - أو أكدته الولايات المتحدة فى "فضيحة الموانئ" الآن. وهو ما يجب أن نتتبه له ونشير إليه هنا تباعًا.

العنصرية.. قبل أن ننسى

ما زال هذا الوجه الآخر العنصرى قائمًا..

ما زال رغم مرور فترة على أزمة الموانئ..

والغريب أن هذا الوجه الذى نطالعه فى قضية مثل هذه القضية، نتعامل معه بغرابة وكأننا نتعرف عليه لأول مرة .. فالعنصرية - أو الهوس بالعنصرية - والتطرف فى التعبير، تظل أهم سمات الموقف الإمبريالى من القضايا العربية فى العصر الحديث، إنْ لم يكن منذ حقبة بعيدة.

لم ننتبه إليه بالقدر الكافى، فى حين أن استرجاعه يؤكد لنا أننا لم نقرأ التاريخ (على الأقل بأثر رجعى)، وأننا ما زلنا عند هذه المواقف التى نرددها عن أفكار مثالية عن الدور الأمريكى فى تاريخنا، على حين أن مراجعة ملامح هذا الوجه ترينا أنه كان على طول الخط عنصريًّا.. وهو ما نحرص على العَوْد إليه دائمًا، فهو يتكرر بأشكال شتى ودلالات واحدة قبل أن ننسى.

وحتى لا نغيب فى صفحات الماضى، فسوف نعاود الرجوع إلى ملامح هذا الوجه/ القضية فى أزمة الموانئ التى لا يزال الحديث عنها - أو بشكل أدق: ضدها - يثار فى المراكز المعادية لنا..

ومراجعة رفض أن تتولى شركة عربية إدارة العمليات فى عدد من الموانئ الأمريكية، نرى معه أن أسلوب التعامل مع القضايا العربية كلها يحمل هذا الوجه..

وهو ما يعود بنا إلى هذه المراكز والمواقع المعادية من جديد.. وهى مواقع لمن يتعرف على هوية مواقع الشبكة، وتنتمى طبيعتها - حسب الترتيب هنا - إلى اليمين المسيحى المتطرف أو المتشدد، المعروف عنه تناول القضايا العربية.. أو العنصرى،

خاصة فى تعرّضه للقضايا العربية التى تظهر أحيانًا فى شاشة النظام القضائى فى الولايات المتحدة..

نستطيع أن نقول مثل هذا عند العديد من المواقع والصحف والمراكز العلمية أو الصحف المحافظة إلى حد بعيد..

وكى لا يكون كلامنا عامًّا، فإننا نستطيع أن نتمهل عند الموقع الأول Frogsdong لنجده يؤكد فى وضوح شديد عداءه لكل ما هو عربى، ويخرج من التعميم إلى التخصيص حين نقرأ بالحرف الواحد رفض الإدارة العربية: فإن "دولة الإمارات تستضيف مركز «زايد» الدولى للتنسيق والمتابعة، وقد قام المركز برعاية محاضرات وإصدارات تدّعى أن الصهاينة مسئولون عن الهولوكست".. ولا يتردد موقع مثل Volokh عن أن يدلل على ما يذهب إليه بالعَوْد - بوضوح - إلى تقارير كتبها مركز بحوث الشرق الأوسط عام 2003، وهو مركز "ميمرى" الصهيونى المعروف.

وتلمس التحليلات أن هذا المركز كان له دور كبير وواضح فى النَّيْل من مركز «زايد» لا يحتاج إلى تحليل أو تأكيد.

وعلى هذا النحو نتمهل عند دوافع العنصرية واليمين المتشدد الذى ينتمى للدور الذى قام به معهد "ميمرى" - لمن يذكر - حين قام هذا المعهد بدور رئيس فى النيْل من المعهد التابع للجامعة العربية، والذى كان يقوم - على عكس ما يقال - بدور عربى يتسم بالتصدى لحملات الافتراء ضدنا، وهو مركز «زايد»..

ونستطيع أن نتابع عشرات المراكز الإمبريالية هنا لنلاحظ أن أغلب ما تورده يتعدد فى تهويمات عدائية، ويتحدد غالبًا - نهايةَ الأمر - فى اتهام هذا المركز - مركز «زايد» - الذى كان يقوم بدور إيجابى، لولا أن المراكز الصهيونية تحالفت - كما حدث هنا بالضبط - مع العناصر اليمينية المتشددة فى النيْل منه، فانتهى الأمر بإغلاق المركز ونحن شهود..

ولا نريد أن ندافع عن مركز «زايد» هنا، لولا أن قضية المراكز البحثية العربية تعود لتفرض نفسها، وتعاود فرض نفسها الآن بشكل محزن ونحن شهود أيضًا، فحين نجد مركزًا عربيًا واعيًا لجوهر الصراع التاريخى مع العرب والصهاينة يتعرض للتحالف المعادى ضدنا، لا نفعل أكثر من الصمت أو الكلام العابر.. وهو ما يثير لدينا قضية المراكز البحثية العربية، وقضية الباحثين العرب فيها!..

إن المراكز البحثية العربية الآن لا تقوم - فى أغلبها اليوم - بالدور المنشود منها، فى وقت نلحظ فيه أن المراكز الغربية - وهو ما أشرنا إليه مرارا - تقوم بأدوارها العدائية ضدنا، سواء بالانحياز بوضوح شديد إلى الفكر الصهيونى أو العنصرى.. وفى كل الأوقات فهى تقوم بالتأثير على صاحب القرار فى البيت الأبيض..

** هل قرأ أحدٌ منا خبر الاعتداء من الخلف بعنف وضراوة على طالبة مسلمة محجبة فى جامعة "بايلور" الأمريكية؟.. لقد قام الرجل الأبيض بشد حجابها بعنف وطرَحها أرضًا وصفَعها وضرَبها بقدميه على ضلوعها، ثم فر!

ويستطيع أى كاتب الآن عمل مقارنة بسيطة بين إغلاق المركز العربى - مركز «زايد» - من قبل، والقضاء على صفقة الموانئ العربية الآن، والمعاملة العنصرية الفجة لطالبة مسلمة، أو لأم عراقية ذهبت إلى واشنطن لترى ابنها.. إلخ إلخ، ليجد تشابها ليس بسيطًا؛ فما زال اليمين المتشدد يعادينا، وما زالت المراكز البحثية الغربية التى يعمل فيها الكثير من المستشرقين الجدد تعمل ضدنا، وما زالت الصهيونية العالمية وممثلوها فى أغلب المواقع والمراكز العلمية تقوم بنفس الفعل.. وما زالت العنصرية الإمبريالية تمارس نفس الدور ونفس المقدمات ونفس النتائج.

ما رأيكم دام فضلكم؟!

الآخر.. الوجه الآخر

سبق أن سألنا، وحاولنا أن نجيب عن السؤال: ما هو الآخر؟ وكانت الإجابة - فى معرض تحاشى الفتنة بين عنصرى الأمة - هى أن الآخر ليس هنا فى الداخل، وإنما هو فى الخارج.. فى الشمال.. حيث الغرب الاستعمارى، أو الإمبريالى..

أو فى الشرق.. حيث الاستعمار الاستيطانى أو الصهيونى. وكان أقصى ما نريد التأكيد عليه هنا، أن الآخر بيننا يجب أن يتحول إلى فلسفة "جوانية" تَحُول دون صعود الخطر الخارجى أو النيْل منا.

معنى هذا أن البحث عن الآخر كان يحمل فى الوقت نفسه بحثًا عن الخطر الداخلى ومحاولة تجاوزه.. ففى حين يدفعنا الواقع إلى أن نفكر فى الخطر الداخلى (نحن) ضد الخطر الخارجى (الآخر)، فإن هذا لا ينفى - وربما يؤكد - أن ثمة وجهًا آخر للآخر/ للقضية، يَمْثل حين يتماهى الخطر الداخلى بالخطر الخارجى فيصير خطرًا مؤكدًا على الأمة.

إن ثمة وجهًا آخر لا يمكن تجاهله هنا إذًا، وهو أن الخطر الذى يأتى من الخارج يمكن أن يأتى من الداخل - رغم كل ما قلناه - فيصبح الخطر الداخلى خطرًا مروعًا، فى وقت لا نقلل فيه من .. الخطر الخارجى!.. وفى هذه الحالة يصبح الخطر الداخلى أخطر بكثير من الخطر الخارجى.. ولدينا أمثلة كثيرة لهذا الخطر الداخلى:

فحين يبدأ التصفيق فى حفل عام حين يأتى ذكر الخطر الخارجى (الأمريكى)، وحين يتصل هذا التصفيق لفترة طويلة لا تضاهيها أية فترة أخرى حين يأتى ذكر قادتنا.. هنا نستشعر *الخطر الداخلى!*

وحين تعلو صيحات الغضب داخل بعض المساجد ضد الآخر (النصارى)، وتعلو الميكروفونات كل أسبوع بمغالاة ودون مبرر لما نعانيه الآن (معًا).. هنا نستشعر الخطر الداخلى!

وحين نسمع عن إسلام النفط، ومريديه من المهاجرين العائدين من آن لآخر إلى الوطن، نستشعر الخطر الخارجى!.. وحين (يَسْتَقْوِى) بعض أبناء أمتنا فى الخارج بالإدارة الأمريكية، هنا نستشعر الخطر الأكبر!..

إننا نستطيع أن نتعامل مع الخطر الخارجى بأسلوب المقارعة أو التحدى حين يكون العدو "مجسَّدًا" مؤكَّدًا فى تصاميم ومواقف وشخوص وقضايا، لكن حين

يصبح الخطر الداخلى جزءًا من كيان الداخل، فإننا نتذكر هنا صياح «المتنبى» وهو يحذّر «سيف الدولة الحمدانى» حين واجه الخطر الخارجى (الروم) ولم يتنبه للخطر الداخلى وسط الميدان أو خلف الظهر، يقول «المتنبى»:

وسِوَى الرُّومِ خلفَ ظهرِكَ رُومٌ، فعلى أيِّ جانبيْكَ تَميلُ؟

ويتساوى هنا أن يكون الخطر من القادة، أو من الأقران.. من الكهنة، أو من الإخوان!

الخطر يظل واحدًا - لا فارق - ما دام يسعى إلى استعباد الذات (الداخل) أو الآخر (الداخل) أيضًا..

وتضيق العبارة أكثر حين يتسع المعنى.. حين نتذكر قول «مكرم عبيد» فى خطاب تقديم ميزانيته لوزارة 1943 التى جاءت بعد 4 فبراير، حين صاح:

«لقد حررنا المصرى من الاستعمار الأجنبى.. وآن أن نحرر المصرى من الاستعمار المصرى»!

والاستعمار المصرى هنا يتخذ أشكالاً شتى: العقيدة، الاستقواء بالخارج، الاستقواء بالداخل، الاستقواء بقيم لا تنبع من واقعنا أو تاريخنا المصرى القريب قبل السبعينيات وبعدها.. قيم المهجر، وقيم النفط.. إلخ..

لم تعد القضية محاولة الإجابة عن السؤال عن "الآخر/ الغرب"، وإنما أصبح أكثر خطورة هذا السؤال عن "الآخر/ الداخل".. لقد تجاوز الأمر الخلاف بين الأشقاء، وأصبح أقرب إلى جحيم «سارتر» فى كتاباته التى لم نتعرف عليها بالقدْر الكافى!

(و)

أقنعة المستقبل

(1)

العبور إلى القرن الحادي والعشرين

في نهاية القرن الماضي، لم يكن مهمًا الاحتفاء بمرور عام ومجيء آخر، وإنما التَّحَسُّب (من الحساب) إلى ما تَبَقَّى من هذا القرن.. إلى ما سوف يأتي به القرن القادم. إنه العبور المجازي من العام إلى الخاص، من الإنجازات العلمية الهائلة - خاصة في مجال المستقبليات - إلى التراكم المعرفي الذي يُصَدَّر إلينا على شكل "صناديق" مغلقة مفاتيحها ما زالت بعيدة عنا.

ولعل ذلك يذكّرنا بالطُّرْفَة التي نرددها فيما يشبه الملهاة، فالصندوق الذي كان قد سُرق ويخاطب صاحبَهُ «محمدًا» أن مفتاحه "معاه"، لم يعد هذا المفتاح الآن مع صاحبه أو مع «محمد» أو مع أي عربي آخر..

وهو ما يحتاج إلى توضيح أكثر.

فما هو مؤكد في هذا السبيل، أنه تجيئنا من آن لآخر بعض الآلات أو الصناديق الإلكترونية على سبيل الكسب المادي أو الاستراتيجي، دون أن يجيئنا معها ما يكفي للدخول إلى القرن القادم، سواء في الكم أو الكيف.

فإذا تجاوزنا هذا، لراعتنا الصورة التي سنكون عليها في الأيام المقبلة، فما زال الصندوق بدون مفتاح، وما زالت عائلة الإلكترونيات التي تجيئنا تأتمر بأوامر سوانا، فلا بد أن نعترف هنا أننا مهما امتلكنا من وسائل تكنولوجية وإلكترونية متقدمة، لم نَعُدْ نمتلك منها شيئًا، ولم يعد الصندوق هو صندوق «محمد» أو «محدثه»، وإنما أصبح صندوق "العم سام" أو "جدون بول"، ويكفي أن نتذكر أنه في بدايات عام 1994م، وتحديدًا في أول فبراير، صدر قرار من البيت الأبيض

يبيح تصدير بعض صناديق التكنولوجيا، لكن - كما جاء بالنص من البيت الأبيض - مع حفظ نُسَخ من مفاتيحها تحت تصرف وكالة الأمن القومى.. الأمريكى بالطبع.

وكأن القرار يصدر لأول مرة، فى حين أنه كان أمرًا قائمًا واقعًا من سنوات بعيدة، وإنْ كشفت عنه حرب اللئام - حرب الخليج الثانية 1991 - بشكل أكثر وضوحًا وجلاءً.

ما نريد أن نقوله وقد تجاوزنا القرن العشرين، أننا ما زلنا "مَحَلَّكَ سِرْ"، وأن ما نشهده من آلات نكبس أزرارها أو نغير أحجامهما ليست أكثر من صناديق لا تحمل مفاتيحها، ولا تغرنك معاهد العلم أو فتح المدارس أو التشدق بـ "التحديث" أو "التعصير" وما إلى ذلك من المصطلحات، فما زالت التكنولوجيا تُمنح لنا على هوى "العم سام" أو "ابن العم داوود" أو ما شئت من عباد الله الذين يعيشون فى القرن القادم.

ويظل السؤال قائمًا ونحن لا نزال فى العقد الأول من القرن الحادى والعشرين: كيف نعبر إلى المستقبل؟

(2)

قبل فترة كنا قد طرحنا السؤال: كيف يمكن العبور إلى المستقبل؟ وكانت الإجابة ضمنية، تؤكد - فى جزء كبير منها - افتقادنا إلى التراكم المعرفى فى عصر المعلومات، وما صحبه من احتكار الغرب لهذه المعرفة.. وها نحن الآن نعيد طرح السؤال لنتعرف على جانب آخر من الصورة.. جانب القصور الذاتى فى التعرف على العالم الذى نحيا فيه.

والواقع أن هذا الجهل ظل خَصْلَة لاصقة بنا طيلة هذه الفترة الطويلة منذ عام 1947، أى منذ بدأت فترة الحرب الباردة، واستمر حتى بعد انتهائها عام 1990 بتفكك الاتحاد السوفييتى وسقوط سور برلين، ولا يزال ممتدًا حتى اليوم، فهذه هى الفترة التى شهدت الصراع العربى الإسرائيلى.

وكى لا يكون كلامنا عامًّا، فسوف نشير إلى مَثَلَيْن اثنيْن:

أحدهما: قضية التطبيع الثقافى، هذه القضية التى تُطرح اليوم بين المثقفين،

ونتبين فيها مشاجرات عنيفة تصل إلى درجة تبادل الاتهامات، فهذا مؤيِّد للتطبيع، وذاك معارض، وهذا "براجماتي" يعرف التطورات الجديدة فى العالم، وذاك "شوفينى" لا يعرف ما يحدث فى هذه الفترة. وفى تقديرى أن سوء الفهم لا يعود إلى جهلنا - كمثقفين - بالاستراتيجية الإسرائيلية. وبعيدًا عن الموقف السياسى الذى اتُّخذ لضرورات أخرى، فمن المفترض أن يكون المثقف أكثر وعيًا بالموقف الإسرائيلى.

والسؤال الذى يجب طرحه هنا هو: هل يوجد الآن تطابق كامل فى المصالح بين إسرائيل والعرب؟ وبعبارة أخرى: هل طرأ تغير جوهرى فى طبيعة المصالح الإسرائيلية لمصلحة العرب الذين يهرولون إلى عقد اتفاق مع إسرائيل (على حد قول «إدوارد سعيد»)؟

الإجابة: لم يحدث ذلك، فلماذا نعتقد إذًا أنه حدث التغير؟ ولماذا نتصرف كما يراد لنا؟ إن الذين يؤيدون التطبيع استسلموا ببساطة إلى الرأى الذى يرى أن إسرائيل تخلت عن استراتيجيتها، وهذا خطأ فى فهم الواقع يصل إلى الجهل بما يحدث أو التقاعس عن فهمه.

هذا هو المثال الأول: الجهل بما تريد إسرائيل. أما المثال الآخر فهو الجهل بما يجرى حولنا. وربما كان آخر مثال لذلك: الاتفاقية العامة للتعريفات الجمركية والتجارة (الجات) كما يطلق عليها.. فرغم أن التوقيع النهائى على الاتفاقية تم بمراكش فى بداية عام 1995، فإن جولاتها السابقة امتدت عقب الحرب الثانية، وتبلورت كل هذه السنوات كما تريد الدول الكبرى، فى حين أن دور الدول النامية فى هذه الجولات كان هامشيًّا. ورغم خطورة هذه الاتفاقية علينا - ولا سيما فى مصر - فإننا نزعم أن المثقفين لم يعرفوا الكثير عنها، خاصة أنها تمس جانبًا حساسًا من فكرهم يتمثل فى "مجال تحرير تجارة الخدمات وحماية حقوق الملكية الفكرية"، بما يعنى أنه ستتأثر بالاتفاقية كل وسائل الثقافة المعاصرة من أغانٍ وموسيقى وبرامج كمبيوتر وأجهزة فيديو وكتب، سواء ما كان منها فكريًّا كالترجمة، أو ماديًّا كالورق والأحبار.. إلخ. ومتابعة الندوات أو المؤتمرات التى عُقِدت عندنا، ترينا أنه لم تُعقد ندوة أو مؤتمر أو حتى سمنار من أجل مناقشة

العلاقة بين الجات والملكية الفكرية.. والندوة الوحيدة التى عُقدت بالمجلس الأعلى للثقافة جاءت تحت عنوان (الجات والكتاب)، وقد غفل أصحابها أن التأثير يمتد إلى كل ظواهر الثقافة، بل إن المشاركين فى هذه الندوة - عدا «د. حسام عيسى» - افتقدوا إلى قراءة أو تعرُّف أمين لنصوص الاتفاقية!.. لم يقرأها أحد بصراحة شديدة، وضاعت الندوة فى الكلام المعاد، ونسى المحاضرون أن الاتفاقية تحصر - ضمن ما تحصر - احتكار الغرب للتكنولوجيا، بل وتفرض - لأول مرة - إجراءات انتقامية لمن يفكر فى الإفادة من مظاهر الحضارة الغربية، فى حين أن الحضارة إنسانية!.. كما أغفل الجميع ضعف التعاون العربى فى عصر التكتلات، بما يشير إلى أن الصراع التقليدى فى عصر الحرب الباردة استُبدل الآن بالصراع بين الشمال الحضارى والجنوب المتخلف.

فى هذا المناخ الذى يحيطه الجهل بما يحدث حولنا، يظل السؤال قائمًا: كيف نعبر إلى المستقبل؟

(3)

بَدَهِيَّة تُفرض علينا فى مثل هذا الوقت من كل عام.. ففى كل عام، ينتهى عام ويبدأ عام آخر.. ونعتقد أننا ننتقل - بالفعل - من عام إلى عام آخر.

فلا يجب أن نقول إننا ننتقل إلى القرن 21، وإنما نحن فى القرن 21.

والواقع أننا فى انشغالنا بمثل هذا الأمر، نكون قد خرجنا من قرن إلى قرن آخر.

فالمعروف الآن أن القرن العشرين انتهى بانتهاء الحرب الباردة منذ عام 1990، وما عشناه من تفكك الاتحاد السوفييتى وسقوط سور برلين والثورة المعرفية الخطيرة.. إلخ يجعلنا فى القرن الحادى والعشرين.

ومن المؤكد أن عالمنا فى القرن الجديد خرج من رحم النموذج التنموى الذى عرفه العالم بعد الثورة الصناعية إلى مجتمع جديد.. مجتمع ما بعد الصناعة، وهو مجتمع مبنىّ ليس على المواد الخام ورأس المال وحسب، وإنما على نوع من الإنتاج المعرفى الذى أصبح يعتمد - فى المقام الأول - على عناصر جديدة لم تكن معروفة من قبل، كالمعرفة والإعلام والقوَى عابرة القارات.. إلخ.

حقيقةً إن الموارد البشرية أصبحت هى الأساس، وإن المال له دور مهم، غير أن المجتمع المعرفى - كما يقول «الهادى المنجرة» فى أحد كتبه - أصبح هو الأساس.. فإذا توفرت المعلومات والمعرفة، فإن القيمة المضافة للمال سوف تصبح أكبر.

وسوف نضرب مَثلَيْن اثنيْن لنرى إلى أى حد اختلف هذا القرن الذى نحن فيه (القرن 21) عن القرن الذى انتهى منذ سنوات.

إن حرب الخليج الأخيرة - وهذا هو المثال الأول - أدى فيها الإعلام الجديد دورًا هائلاً، فمن المعروف أن «صدام حسين» كان يشاهد محطة "سى. إن. إن" طيلة الفترة السابقة على الحرب وأثناءها، وكانت تعرف دوائر المخابرات الغربية وسياسيوها ذلك، ومن ثم اهتم الرئيس «بوش» أن يبعث برسائله عبر هذه المحطة.. الرسائل التى أراد تمريرها للرئيس العراقى. ومذكرات «جيمس بيكر» التى نُشرت أخيرًا تؤكد كيف أن الرئيس «بوش» كان يتعمد إلقاء خطبه أمام جنوده لتحذير «صدام حسين»، ثم - وبوضوح أكثر - لتحديد ساعة الحرب بدون خداع أو مواربة، ثم - بوضوح أكثر وأكثر - لفهم ما يدور هناك خلال هذه الأجهزة، حتى إن البنتاجون أرسل إلى هذه المحطة ليتعرف - قبل أن يتعرف بالوسائل الخاصة بساعات - على المدى الذى أصابت به القاذفات الأمريكية أهدافها.

وغير بعيد عنا الخبر الذى طيرَتْه وكالات الأنباء - وهذا مثال آخر - من أن مقدّم برنامج صغير بكندا، استطاع الاتصال بملكة بريطانيا على أنه رئيس وزراء كندا، وطال الحوار بينهما نصف ساعة، فتورطت ملكة بريطانيا فى الكشف عن قضايا "الكومنولث" البريطانى التى ثرثرت بها الملكة دون أن تدرك لحظةً أنها وقعت فريسة لحيلة إعلامية!

وبعيدًا عن الوجه الأخلاقى لهذا الموقف، فإنه يحمل فى طياته دلالة أعمق، وهى أنه فى وسع هذه الطاقة الإعلامية المتطورة، والتى تتطور كل لحظة بشكل مذهل، أن تسيطر على كثير من القرارات المؤثرة فى حياتنا نحن العرب، سواء فى التوقف عند درجة "تجمُّد" تتنافى تمامًا مع "السخونة" المتقدمة التى يتم بها التطور، أو فى الدفع بنا أكثر إلى هامش هذا العالم، لنصبح - فى المستقبل - نُقَطًا باهتة على خارطة العالم، وبشكل أدق: على خارطة القرن الحادى والعشرين، وبهذا نكون

حريصين - أكثر من غيرنا.. وبإرادتنا - على الدخول فى الكهف وملاقاة أشباحه، والاستغراق فى السبات فيه بغير أمل فى العودة أبدًا.

وفى هذه الحالة، سوف يكون على العالم فى القرون القادمة أن يقرأ ويعرف أن ممالك وقبائل وطوائف و"ملوك طوائف" وجماعات من البدو الرُّحَّل كانت تعيش فى الجنوب، ولكنها اختفت لأسباب خاصة بها.

وهذه أيضًا بدهية!

(4)

ليس انتهاء عام 1993 وابتداء عام 1994م - على سبيل المثال فحسب - غير رمز لمعنى أكبر، هو أننا فى نهاية الألفية الثانية نوشك على الدخول فى الألفية الثالثة.

وبين العامين أو القرنين يُطرح علينا السؤال:

أين سنكون فى الحقبة القادمة؟

وبعيدًا عن الكلام المعاد، فما زلنا - بصراحة موجعة - "مَحَلَّكَ سِرْ" فى كثير من نواحى حياتنا الداخلية والخارجية، خاصةً حين نضع أنفسنا فى مجال المقارنة مع الغرب الذى يقطع أشواطًا بعيدة فى "التقدم" المتسارع بشكل مدهش.

ولنستعدْ ما تمليه علينا فكرة التقدم فى الغرب..

(لنتذكر فقط أننا فى بدايات القرن الماضى، كنا أمام اختراع الطائرة 1903، والهاتف ذى القرص 1905، والمصباح الكهربائى 1906، والسيارة 1908، والتركيب الذرى النووى 1910، والهاتف اللاسلكى 1914.. وإذا نحن فى نهايات نفس القرن أمام ابتكار الكومبيوتر الشخصى 1975، والطائرة النفاثة فوق السمعية 1976، والطائرة الخفية 1980، وزرع الجينات 1980، والكومبيوتر المرتبط بتليفون وفيديو 1990، والذكاء الاصطناعى 1990، واكتشاف السوبر كومبيوتر 1991، ومكتبة الوسائط المتعددة 1992، والتطور الهائل فى صناعة أشباه المُوَصِّلات بما يطور الشريحة الإلكترونية 1993. وبين بداية القرن ونهايته، نكون أمام صور هائلة للتطور، من اكتشاف البث الإذاعى، إلى التلفزيون، إلى شطر الذَّرَّة، إلى التفجير النووى، إلى المفاعل النووى، إلى زرع القلب، إلى وصول الإنسان للقمر.. إلخ)..

وكل هذا يعكس لنا أسلوب "الهيمنة" من الغرب، بتقدمه الهائل وأحلامه التى عاد

ليستعيدها بأساليب جديدة.. وبينما شُغِلْنا فى النصف الأول من هذا القرن بنَيْل الاستقلال، شُغلنا فى آخره بقضايا وهمية وخلافية، وبُلِينا بنكبات وزلازل وهزائم ذاتية أوصلتنا إلى النظام العالمى الجديد.

كان كل شىء يوحى - وما زال - أن الغرب يتقدم ويستعيد مستعمراته القديمة بأساليب جديدة، فى حين أننا لم ننتبه لفكرة التقدم - كما ينبغى - أو شُغلنا بغيرها كثيرًا، ولم نَعِ أن القرن القادم لن يكون فيه غير عالم واحد - هو المسيطر على ما عداه من هذه الهوامش البعيدة التى لم تستفد من شىء ولم تتعلم من شىء.

كان العالم الغربى يُشْغَل بفكرة "التقدم" ويعمل لها، فى حين أننا شُغلنا بفكرة "التراث" وقبعنا فيها.. اهتممنا كثيرًا بفكرة "التفكير"، فتحولت الفريضة التى كانت إسلامية إلى فكرة "التكفير" لأنفسنا وسوانا.

وقد انعكس ذلك كله على الواقع؛ ففى حين كان الغرب يتهيأ للدخول إلى القرن الحادى والعشرين بالطمس التربوى، كنا نتراجع إلى القرون الهجرية الأولى دون أن نخطو إلى القرون القادمة!.. وبينما كَسَبَ حربًا أولى بالعنف ودعوى الديمقراطية، وحربًا ثانية بالاقتصاد المنظم ودعوى الليبرالية، كنا مشغولين بتحرير أنفسنا من غيرنا دون أن نحرر أنفسنا من أنفسنا.

والآن، تَنَبَّهَ الغرب جيدًا إلى أن الدخول إلى القرن القادم لا يكون إلا بالعلم والتكنولوجيا، فراح يحدّث منظومة الشبكات المعلوماتية القائمة عنده، إذ أدرك أنها السبيل الوحيد للتطور، بل إن اليابانيين أنفسهم - كما لاحظ «توفلر» فى كتابه (تحول السلطة) - تنبهوا إلى ذلك، فخَلَصُوا إلى أن المعرفة هى مفتاح النمو الاقتصادى فى القرن القادم، ولحقت بهم شعوب أخرى غير النمور السبعة أو الثمانية، كالصين وهاييتى فى الفترة الأخيرة.

لا نزعم أننا لا نحاول اللحاق بالغرب، لكننا لا نحاول ذلك بجدية، انطلاقًا من أن العلم - لا القضايا الوهمية والخلافية - هو السبيل الوحيد للتطور فى عالم لا يعترف إلا بالقوة.. وفى عالم بدأت تتغير فيه المسميات الجغرافية القديمة إلى "نافتا" و"سياتل" و"الجات".. إلخ.

يقول «إدوارد سعيد» فى أحد تحليلاته التى يؤكد فيها أننا لا نتثبت من

الحقائق الواقعية، ولا نعى الدرجة التى تفصلنا عن الغرب، يقول هذه العبارة: «يُخَيَّل إلىَّ أننا سنلحق بركْب الشعوب الأصلية فى أقاليم جغرافية عدة من التى انقرضت على يد عدو لا يرحم، أو ذابت بعدما أُقحمت فى خطط وضعها الآخرون».

السياسة والثقافة

حين يُكتب تاريخ هذه المنطقة فى المستقبل، فسوف تظل أسماء أفراد قلائل من أهم المصادر الحية لهذه الحقبة التى نعيش فيها، خاصةً منذ النصف الأول من التسعينات..

فالمعروف أن أقسام التاريخ فى الجامعات والمعاهد المتخصصة لا تبدى اهتمامًا بالكتابات المعاصرة فى تدوين التاريخ والاهتمام به، وتضع فترة زمنية تطول إلى حدٍّ ما لتكون ضمانًا للمصداقية فى كتابة الوقائع وتوفر الوثيقة المعاصرة للحدث، وخاصةً أن "حجاب المعاصرة" قد يَحُول بين الكاتب المعاصر والرؤية المحايدة.

نقول هذا بشكل عام عن العديد من الدراسات الهامة التى تصدر فى هذه الأيام، وأصحابها ممن يهتمون بالجوانب السياسية والثقافية والاجتماعية، وهم قريبون من "الميديا" المعاصرة التى تصنع الأخبار، لكنها تنقل لنا بأمانة "المادة" الخام التى نستطيع فيما بعد ـ مع الوثائق ـ أن نعيد على ضوئها كتابة الأحداث بوعى تاريخى موضوعى غير مثقل بالمعاصرة أو تعدُّد المصادر وتغيُّرها..

وهو ما ندلل عليه بمثال محدد..

وهذا المثال يمكن أن يتحدد الآن فى صدور كتاب جديد فى خريف 1997 صدر عن مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام بعنوان (تسوية الصراع العربى الإسرائيلى)، ويركز فى عنوانه الآخر على "دور مصر الإقليمى"، ويشارك فيه عدد كبير من الباحثين، وعلى رأسهم محررٌ واعٍ هو المحرر «د. عبد العليم محمد» الذى يستمد وعيه من الواقع السياسى والاجتماعى حوله فى إطار التغييرات العالمية الأخيرة، وتنم كتاباته السابقة عن مثل هذا الوعى.

ويظل هذا الكتاب الذى بين أيدينا الآن معبّرًا عن تسوية الصراع العربى/

الإسرائيلى، ومؤكدًا وعى المنظومة التى يقف فى مقدمتها باحث واع مدقق، مع وعى جمعى تسهم فيه أسماء مجموعة من ألمع كُتاب المركز.

ورغم أن هذه الأسماء تصنع - مع غيرها - داخل مركز الدراسات وخارجه هذا الوعى، فإن فصول هذا الكتاب تحديدًا تعبّر - بصدق - عن حياتنا المعاصرة فى إطارها الذى تصنعه المحاور الهامة فيه بعد المقدمة:

- دور الدبلوماسية المصرية.
- عملية التسوية.
- الدور الاقتصادى والتفاعلات الداخلية.
- ثم دور مصر الثقافى والإعلامى..
- ورصد مستقبل الدور الإقليمى لمصر الذى انتهى إليه المحرر.

ورغم تعدد هذه المحاور واستحالة تلخيصها، فسوف نكتفى هنا بعدة ملاحظات تشير إلى أهمية التحليل الكمى والكيفى.. مما يعكس أهم الملامح العامة لدور مصر وهمومها.

فما هى أهم ملامح عصر الصراع العربى الإسرائيلى..

عصر الحملة الصليبية الجديدة؟

(1)

رغم الدور الثقافى والإعلامى الذى لا يفوتنا تأثيره، والذى يخصَّص له فى نهاية الكتاب فصل كامل، فإن التحليل الدقيق طيلة الكتاب يصل بنا إلى خلاصة مؤداها تأكيد المُسَلَّمَة المنهجية التى انطلقت منها الدراسة.

وتتحدد المسلمة فى أولوية السياسة على المجالات الأخرى، بما فيها الثقافة والإعلام، حيث ظهر أن تلك العوامل التى أثرت بوضوح فى تغيير المؤثرات التى طُرحت للبحث (السياحة، البرامج الإذاعية والتلفزيونية، المدرّسون المصريون، الطلاب العرب) كانت فى معظم الأحيان عوامل سياسية بالدرجة الأولى..

وهو ما يظهر أكثر تأثيرًا لا فى الثقافة والإعلام وحسب، وإنما فى الدور السياسى المصرى فى ظل حالة "التسوية" التى تُعَدّ للمنطقة أو تُعَدّ المنطقة لها،

وبما يشير إلى أن هناك ارتباطًا وثيقًا بين التغييرات فى الدور المصرى وعملية التسوية، وهو ما يؤكد - كما يلاحظ كلٌّ من «ضياء رشوان» و«أحمد ناجى قمحة» - وجود اختلاف نوعى فى طبيعة كلٍّ من الدور الثقافى والإعلامى وعملية التسوية، وفى مضمون كلٍّ منهما ومداه الزمنى. ومع تراوح الدور المصرى بين التراجع أو التقدم عبر المؤثرات الثقافية، فإنه يتأكد عامل السياسة فى التأثير فى مثل هذه العوامل، أو فى تأكيد هذا العامل السياسى على ما عداه، وهو ما يقترب بنا أكثر من تأثير الثقافة فى الدور، سواء الدور العربى أو الدور العبرى. هذه هى أهمية العامل السياسى.

(2)

إن عديدًا من المؤشرات تشير إلى صعود أو هبوط الدور الإقليمى لمصر فى العالم العربى فى ظل التسوية المفروضة علينا من الداخل أو الخارج.

ومع أن هذه المؤثرات تشير إلى انطباعات سائدة عن الدور المصرى بالسلب أو الإيجاب، فإن تأثير الدور المصرى - المرتبط باللغة والثقافة تحديدًا - لا يمكن إنكاره فى السياق الأخير.

وكى يكون هذا واضحًا أكثر، لا بد من التمهل عند هذه المقارنة التى تقدَّم لنا عن دور مصر الثقافى، وهى مقارنة تظهر على المستوى العبرى، ثم على المستوى العربى فى سياق المقارنة فى درجة التأثير على عملية التسوية، مع وضع تأثير هذا العامل أو ذاك على المحيط العربى فى الاعتبار.

فأى الجانبيْن له التأثير الكبير فى عملية التطبيع: العبرى أم العربى؟

وتزداد حساسية الموضوع وأهمية هذه الأسئلة فى ضوء أن عملية التسوية بالشروط التى تتم بها تتضمن قدْرًا غير مسبوق من التطبيع بين تلك الدولة والدول والمجتمعات العربية، خاصةً تلك التى وُقِّعَتْ معها اتفاقيات تسوية.. وتتضاعف الحساسية والأهمية بالنظر إلى الموقع المركزى الذى تحتله عملية التطبيع عند صانع القرار الإسرائيلى - أيًّا كان اتجاهه السياسى - وحرصه الدؤوب على المضىّ فيها، وبصفة خاصة ذلك الجانب المتعلق بالتطبيع الثقافى والإعلامى. إلا أن أهمية

التساؤل المطروح وحساسية موضوع التطبيع للدولة العبرية وإصرارها عليه، وتورط العديد من الأطراف العربية الرسمية وغير الرسمية فيه، لا يكفى لوضع الدور الإسرائيلى الثقافى والإعلامى فى العالم العربى فى موضع المقارنة مع الدور المصرى فى عملية التسوية.

إنها قضية التطبيع الثقافى فى مواجهة التأثير السياسى وسيادته!

وبعيدًا عن الاستطراد الذى نجده فى صفحات الكتاب، فإن أهمية اللغة العربية، والإطار الثقافى العروبى، هو ما يحدد تأثير التطبيع، وهو ما يصل بنا إلى حقيقة هامة تصل بنا إلى الصفحات الأخيرة، ومؤداها أنه إذا كانت الدولة العبرية تملك عمليات الإنتاج الثقافى والإعلامى، إلا أن افتقارها إلى التجانس مع الثقافة العربية - بل وعداءها لها - يحرمها من أقوى عناصر التأثير والدور الثقافى والإعلامى فى المجتمعات العربية.

ورغم سعْى الدولة العبرية إلى المشاركة ومحاولة التأثير، فإن ذلك كله ظل محدودًا للغاية، ولا يسمح - بأى حال - بالحديث عن دور ثقافى أو إعلامى لها فى العالم العربى يمكن أن يكون منافسًا للدور المصرى فى هذا الاتجاه.

إن الدولة العبرية لا تملك من الزاد الثقافى والتقاليد العربية ما تستطيع به أن تفرض إرادتها الثقافية، وهو ما يعنى فشل الإرادة الصهيونية رغم التأثير السياسى الظاهر لها.

ونصل إلى اتجاه آخر.

(3)

ثم نصل إلى الاتجاه العربى من التطبيع.

إن تسرُّب بعض المثقفين والكُتاب والفنانين فى هذا الاتجاه (التطبيع) لم يكن معبّرًا فى ظل التسوية إلا عن حالات فردية لكلٍّ منها مُلابساتها الخاصة.

ويؤكد بحث دور مصر الإقليمى الثقافى الإعلامى على حقيقة هامة، هى أن ذلك التطبيع الثقافى والإعلامى مع الدولة العبرية قد أخذ اتجاهًا شبه أحادى، حيث سار من الدول العربية إلى إسرائيل وليس العكس؛ فقد انحصرت مظاهر ذلك

النوع من التطبيع الثقافى والإعلامى فى توجيه مَن قاموا به من المثقفين والكُتاب والفنانين العرب إلى إسرائيل فى زيارات خاصة ورسمية واحتفالية للقاء نُظَرَائهم هناك وبعض المسئولين بها، والمشاركة فى ندوات واحتفالات أقيمت هناك لهم.. أما الاتجاه العكسى على الصعيد الثقافى والإعلامى، أىْ زيارات مشابهة لكُتاب ومثقفين وفنانين إسرائيليين للدول العربية، فلم يشهد إلا حالات نادرة تَركّزَ أغلبُها فى مجال اللقاءات الصحفية والتلفزيونية العربية مع بعض المسئولين الإسرائيليين.

وكما ظهر ذلك لدى بعض هؤلاء المثقفين أو الكُتاب فى رحلتهم إلى إسرائيل فى غبار التطبيع، كذلك يظهر لدى هؤلاء فى رحلتهم إلى مدريد أو أوسلو سواء بسواء، بما يؤكد فشل التطبيع الثقافى فى جميع الحالات.

وتبقى ملاحظة أخيرة..

وهامة..

(4)

فالاستنتاجات الأخيرة تشير إلى مسألة تبدو إشكالية إلى حد بعيد.

إن التسوية السياسية تضيف إلى طبيعة هذا الصراع - بعد الإعلام والثقافة - خاصية أخرى ترتبط بهما بشكل غير مباشر، فقد لاحظ «د. عبد العليم» هنا - ضمن سياق التسوية - أن الصراع العربى الإسرائيلى ينفرد بخاصية "تدخّل العامل الدينى الميثولوجى، حيث تقف التوراة كأداة أيديولوجية وتَعْبَوِيَّة فى كافة حلقات الصراع منذ بدايته حتى الآن، إذ يمثل سَنَدُ المِلْكِيَّة الروحية مبرّرَ التوسع الاستيطانى المستمر، وهو الأمر الذى يضاعف من تعقيدات هذا الصراع، كما يضاعف أكثر من تعقّد تسويته وأبعادها".

والواقع أن استخدام التوراة أو القُوَى الروحية المستمَدة - عَمْدًا - من العهد القديم، لا يمثل تَدَيُّنًا أو - حتى - تعصبًا بقدْر ما يمثل "وسيلة" لتحقيق الهدف الأول، وهو تأكيد الوجود الاستعمارى، والاستمرار فى تنمية المستوطنات كالفطر، والإمعان فى رفض تحديد حدود لدولة إسرائيل، والتحدث عن الأمن الإسرائيلى قبل الأرض والسلام.. إلى غير ذلك (فى هذا السياق، يمكن تأمل تصريحات

حاخامات اليهود الصهاينة الآن وسعْيهم إلى لقاءات مع شيخ الجامع الأزهر ومسئول حماس.. إلخ).

فمن الأقوال الشائعة، أن مَن يوجدون الآن فى فلسطين هم اليهود.

ونَفزع أكثر حين نسمع كثيرًا - من الصهاينة المستعمِرين هنا، أو حتى من العرب الموجودين - أن اليهود (يقصدون مَن تَسَمَّوْا باليهود) القادمين من الغرب على أثر صعود حركة القوميات، وتشجيع العديد من الشخصيات والمؤسسات الغربية للهجرة.. أن هؤلاء هم يهود الكتاب المقدس!

ويزيد تعميق هذا - عَمْدًا - مع الاستمرار فى بناء المستعمرات بحثا عن الهيكل (وقد زُرِع له رمز فى باحة المسجد الأقصى أخيرًا!) أو زعْم أن الهيكل يوجد هنا أو هناك فى الأراضى الإسلامية، وترديد ألفاظ عبرية كثيرة، سواء عن المدن أو الأسماء أو العادات اليومية، وتعميم تعليم العبرية.. إلخ.

إن العامل الدينى الذى يَتَخَلَّق هنا وهناك، والرموز الميثولوجية التى لا يكف الصهاينة عن ترديدها وإطلاق أسمائها على البشر أو المؤسسات.. إلخ، ليس ذلك غير تعمية عن الحقيقة: أن اليهود - وهذه هى الحقيقة الوحيدة التى يجب التنبه إليها - أن هؤلاء ليسوا هم اليهود التاريخيين، وأن هذه الدولة التى تقام هناك (بالإرهاب) ليست بالقطع هى الدولة اليهودية التى يتحدثون عنها تاريخيًّا داخل التوراة أو خارجها ممثلةً فى ممالك «سليمان» أو «داوود»، أو الوجود الإسرائيلى هنا أو هناك.. إلخ.

والذى يفزعنى أكثر - على المستوى الشخصى - أننا نردد فى صحفنا الكثير من سذاجة هذا التفكير، والكثير مما يردَّد فى الطرف الآخر - كأنه من المسلَّمات - من أننا أمام يهود التاريخ أو الجغرافيا!.. وافتح دورية إسلامية، أو حتى غير إسلامية هنا أو هناك، لتقرأ خلاف النبى ﷺ مع يهود خيبر، أو تقرأ هذه المقالات الضافية عن يهود اليمن فى التاريخ، أو هؤلاء الذين تسموا بخيبر أو قينقاع، أو هؤلاء الذين أدوا دورًا إيجابيًّا فى الحضارة، ثم يُرْبَط بينهم وبين الصهاينة (المستعمرين الغربيين، والممثلين للحملة الصليبية الثامنة) أيًّا كانت تسمياتهم، وأيًّا كانت ادّعاءاتهم بالحقوق التاريخية أو الدينية.

إنها السياسة وليس الدين بأية حال، حتى لو لاحظنا الإيغال فى التطرف وإقحام الرموز اليهودية القديمة فى حياة المعاصرين الآتين من جنوب أوكرانيا أو أوروبا الشرقية أو فلاشا إفريقيا.. إلخ.

وقد أدرك «طه حسين» ذلك، فقال بوضوح إنه لا علاقة قَطّ بين المستعمرين لأرض فلسطين الآن وبين يهود التوراة، وقد كتب يقول من مقالة له فى ديسمبر عام 1967 بجريدة "الجمهورية":

«هل صحيح أن اليهود الذين يعيشون الآن هم بنو إسرائيل؟ الذى أستطيع أن أؤكده هو أن اليهود يتحدثون عن التوراة، ولا أعرف كتابًا ذكر اليهود بالشر مثلما ذكرتهم التوراة!»..

وهذا ما يجب التنبه إليه فى علاقاتنا بهذه الدولة الاستعمارية..

إنها ليست دولة اليهود، وإنما هى دولة خارج التاريخ والجغرافيا!

إنها الحملة الصليبية الجديدة ترتدى أزياء كثيرة..

أقنعة جديدة!

كولاج

(و"الكولاج" - كما هو معروف - هو تجميع عدة أشكال أو رُؤًى لِيُكَوِّن منها، بعد قَصِّها وتَجاوُرِها، شكل عام أو صورة محددة).

وسوف نستخدم هذا الأسلوب هنا لنلقى بالضوء على قضية معاصرة، من خلال تجميع عدة أخبار كانت تُنشر فى الصحف، أو مُتَجَزِّءَات من وثائق، أو تقارير من وكالات الأنباء، وسيتم ذلك بشكل عشوائى..

كما ستتحدد هذه الصورة حول قضية (حقوق الإنسان).

- الإعلان الأول لحقوق الإنسان صدر فى 26 من أغسطس عام 1789م إبان الثورة الفرنسية، وجاء فيه اعتراف مؤكد بالمساواة بين جميع المواطنين وحريات الإنسان الأساسية، وبالشعب مصدرًا لجميع السلطات، وبالقانون مظهرًا لإرادة الأمة.

- صدر تشريع "بوجوتا" فى 2 من مايو عام 1948م، المعروف "بالتشريع الأمريكى لحقوق الإنسان وواجباته"، العائد لمنظمة الدول الأمريكية.

- تشير تقارير حقوق الإنسان أن أمريكا من أكثر الدول التى تمارس عدم المساواة بين الأمريكيين أنفسهم، وتسىء معاملة المسجونين وتنفيذ عقوبة الإعدام، ولا تحترم حرية الأديان وحرية التعبير.

ويبدو هذا أكثر وضوحًا فى سياستها الخارجية من هاييتى إلى الصومال إلى البوسنة، إلى استخدام المؤتمرات العالمية بشكل براجماتى خالص.

- بالنسبة لسجناء الرأى فى الولايات المتحدة - وعلى رأسهم السجناء السياسيون - فهم نزلاء دائمون فى السجون الأمريكية، فضلاً عن تعريضهم المستمر للضرب والتعذيب على أيدى الحراس، كما تنال الملونين فى أمريكا أبشعُ معاملة.

وربما كان أقرب مثال، ما تَعَرَّضَ له المواطن الزنجى «رودنى كينج» من رجال الشرطة.

- تؤكد وثيقة مؤتمر السكان - الذى عُقد فى نهايات القرن السالف بالقاهرة - ضمان حقوق الإنسان كحق عالمى غير قابل للتصرف أو الاجتزاء.

- تتعرى الطفلة المصرية «نجلاء» فى محطة "سى. إن. إن" (الأمريكية) لثلاث دقائق أمام عيون العالم كله أثناء عملية ختان أثناء مؤتمر السكان بالقاهرة.

- أكدت الإحصاءات التى تُنشر من آن لآخر:

أن الحرب فى البوسنة والهرسك هدمت 1200 مسجد، وقتلت 132 إمام مسجد، كما تم اغتصاب 120 ألف امرأة بوسنية تحت سمع وبصر الغرب الأوروبى وحلف الأطلسى والولايات المتحدة الأمريكية.

- يذكر رئيس جمعية الرفق بالحيوان الإسرائيلية عبارة تقول:

«أطلعنى أحد الجنود الإسرائيليين بأنه شاهد عددًا من حالات تعذيب الحيوانات فى فرقته بغزة، لا سيما القِطَطَة».

وقال إنه عثر على قط جريح، فعالجه.. وعندما عثر عليه الجنود الآخرون، قاموا بقص شواربه، ثم تقاذفوه كالكرة. (لا تعليق!).

– تأسست "المنظمة العربية لحقوق الإنسان" منذ أكثر من عشر سنوات من خارج الأرض العربية، وكان لـ «منصور الكيخيا» - وزير خارجية ليبيا السابق، ثم أمين عام التحالف الوطنى الليبى المعارِض - جهدًا كبيرًا فى ذلك.

وأثناء خروج «منصور الكيخيا» من المؤتمر العاشر لحقوق الإنسان، اختُطف واختفى.. حتى كتابة هذه السطور!

(.. كان قد اختفى كلٌّ من الإمام «موسى الصدر» رئيس المجلس الإسلامى الشيعى الأعلى، وقبلها المعارِض المغربى «المهدى بن بركة»)، وقبلها.. إلخ..

وغيرهم دون أن تنجح جهود الحكومات أو منظمات حقوق الإنسان فى أن تتعرف على أماكن وجودهم أو مصائرهم.

وما زلنا نقرأ فى تقارير حقوق الإنسان تَواصُل صور السجن والاختفاء والاغتصاب وإهدار كرامة الإنسان والتعذيب والاعتقال العشوائى والدوس على حقوق النساء والأطفال والسكان الأصليين.. إلخ إلخ.

فلاش باك

الـ "فلاش باك" - كما هو معروف - هو استحضار أحداث الماضى، ويُستخدم هذا غالبًا فى القصة أو المسرحية، عبر مواقف ذات دلالة.

وسوف نستخدم هذا الأسلوب هنا لنستعيد من التاريخ بعض الأحداث.

وسوف يكون مصدرنا فى هذا نشرة غير دورية صدرت أخيرًا بعنوان (أيام مصرية)، نقرأ فيها:

كانت أطول وزارة مصرية (من 1895 - 1908م) هى وزارة «مصطفى فهمى باشا» التى استمرت لثلاثة عشر عامًا.

ولم يتوقف «مصطفى فهمى» عن الاستمرار على رأس الوزارة إلا بعد أن اعتلّت صحته.

(وإطالة عمر الوزارات تكررت كثيرًا فى التاريخ المصرى أكثر من غيره).

وتحت عنوان (الأقباط يرفضون رئاسة الوزارة)، تُنشر فى 14 من نوفمبر عام 1919م استقالة الوزارة القائمة احتجاجًا على مهمة لجنة «ملنر» فى مصر ضد التيار الشعبى فى ثورة 1919.

وحين أسند الملك «فؤاد» تشكيل الوزارة الجديدة إلى «يوسف وهبة باشا»، اجتمع حوالى 2000 ألفيْن من كبار الأقباط فى مصر بالكنيسة المرقسية وأعلنوا احتجاجهم على قبول «يوسف وهبة» تشكيل الوزارة، وطالبوه بالامتثال للروح الوطنية وما اتفق عليه المسلمون والأقباط، وهو رفْض التعاون مع لجنة «ملنر» وعدم الخروج على إرادة الشعب.

ويلفت النظر فى آخر أمر ملَكى (لسنة 1952م) عبارة تقول: «نحن ملك مصر والسودان»، وهى عبارة تذكّرنا بفتوحات مصر فى القرن الماضى حين كان الحاكم هو حاكم مصر والسودان.. إلخ، وهو ما لم يستمر بعد عام 1954م.

وتحت عنوان:

(تمثال الحرية كان لمصر لا لأمريكا)، نقرأ أن تمثال الحرية كان يُعَدّ - فى الأصل - لمصر لا لأمريكا..

وكانت فكرة المَثّال الفرنسى «فردريك أوجست بارتولدى» أن يكون لفلاحة مصرية تحمل مصباحًا بيدها وهى تبسطها نحو آسيا.

ورأى المَثّال أن يكتب على قاعدة التمثال: «مصر تبعث النور إلى آسيا»، لولا أن أدت الظروف دورًا مغايرًا لما كان.

وحدث ذلك حين تَحَوَّل نموذج التمثال المصرى إلى تمثال يهدَى إلى أمريكا، أو يرمز إلى «الحرية الأمريكية التى تبسط نورها على كل قادم إلى تلك البلاد» (!).

وعلامة التعجب من عندنا بالطبع.

ورغم ما فى الخبر من عدم دقة وإبهام كبير، فإن المؤكد فى الأمر أن تمثال الفلاحة المصرية أصبح أمريكيًّا..

وهو ما يحمل دلالات المأساة التى تحتاج إلى تأمل كبير.

فى صفحة تحمل إعلانًا نُشر بمجلة "الصحراء" عام 1954م وصورة لـ «طلعت

باشا حرب» فى أمامية بنك، نقرأ: «بنك مصر وشركاته من 42 عامًا.. شركات بنك مصر.. الطلائع الأولى فى حرب الاستقلال الاقتصادى»، وتزخر الصفحة بعشرات المشروعات المصرية الخالصة.

فى خبر نُشر بمجلة "المصور" عام 1953م، نقرأ كلامًا ما زلنا نقرؤه اليوم من مثل:

«صح النوم يا اتحاد الكرة.. ماذا جرى لك؟.. ألستَ تعيش بيننا؟..

أيها الاتحاد: مرة عاشرة "صح النوم".. فإن على صحوتك هذه المرة تتوقف سمعة مصر الدولية فى ميدان الرياضة!».

والمقال زاخر بدرجات الإهمال فى ميدان الرياضة الدولية (هل توقفت هذه المظاهر حتى نهاية القرن العشرين؟!.. مجرد سؤال قديم!).

وتشير المجلة فى عددها الثالث إلى أمر قديم جديد عن القناة:

«طبقًا لتحكيم «نابليون الثالث» إمبراطور فرنسا بين مصر وشركة قناة السويس، دفعت مصر مقابل الأراضى التى تنازلت عنها الشركة للحكومة المصرية، وقدرت قيمة الفدان بحوالى 10 جنيهات تقريبا..»

وبعد تقدير المبلغ الذى صُرف على حفل القناة (1.400.000 جنيه)، فإن تكاليف الحفل وصلت اليوم إلى رقم آخر هو 700 مليون جنيه!

(ولا تعليق على أموال مصر وعناقيدها التى تَنَبَّهَ إليها «المتنبى» حين ربطها بالثعالب!)..

والثعالب كثيرة من الداخل والخارج!

نقرأ صفحات أيام أخرى من التاريخ، فنَفزع لهذا العنوان:

«قصة الغزو الأمريكى لليبيا. أمريكا وليبيا وجهًا لوجه.. ومع اختلاف الظروف والدوافع، قررت أمريكا مهاجمة إمارة طرابلس ليبيا وتأديب أهلها.

لقد وصل الأسطول الأمريكى إلى الساحل حيث أطلق مدافعه.. إلخ»..

وحين يحرّض الأمريكان أحد الليبيين ضد إخوانه، نقرأ بالنص:

«أول رسالة من أمير عربى للشعب الأمريكى»..

يقول الكاتب فى نهايتها ما يلى:

«أتوقع المساعدة من الحكومة الأمريكية، و..

وأن الشعب الأمريكي سيعطف على شخص اختاره الدهر لمصائبه».

ولا تعليق!

فلاش فوروارد

هذا المصطلح "Flashforward" يعنى التلميح بأحداث آتية قبل موعد مجيئها.

وسوف نستخدم عِوَضًا عنه - كما تذكر بعض المعاجم الحديثة - عنوان "الإنذار المبكر" تعبيرًا عن أحداث سوف تجىء فى مرحلة تالية، فنستعيد بذلك الأحداث الآتية فى القرن القادم.

ونستفيد فى هذا بملحق "الأهرام" الذى صدر أخيرًا بالاشتراك مع شبكة "وورلد ميديا" الدولية، فضلاً عن عدد من المقالات التى تُنشر فى الصحف العالمية من شتى أنحاء الكرة الأرضية الآن.

ونكتفى هنا ببعض الإشارات:

*** «فى أوروبا.. صراع أفكار أم حرب أعراق؟».**

وتحت هذا العنوان نقرأ لرئيس جمهورية التشيك بالنص:

«عندما استخدم المجتمع الدولى لفظ "المجموعات المتناحرة"، فى إشارة إلى الشعوب المختلفة فى البوسنة، فإنه أعطى تفسيرًا "عِرْقِيًا" بحتًا للصراع.

لم يكن فشل جهود المفاوضين يرجع إلى قصورهم عن رسم خرائط جغرافية أو تصوّر حلول وسط، ولكن قبولهم تفسيرًا "عرقيًا" واقتراحهم تسوية "عرقية" له تتلخص فى تقسيم الأرض».

*** «النازية.. هل تجد موطئ قدم فى روسيا؟».**

هذا عنوان آخر، نقرأ تحته بالنص لباحثيْن روسييْن أن:

«السؤال كان يبدو قبل انهيار الإمبراطورية الروسية ضربًا من العبث، نظرًا للكراهية الشديدة المتأصلة فى نفوس الشعب الروسى للرموز والمبادئ النازية منذ زمن بعيد. لكن اليوم تغيرت الأمور، وأصبحت شرائط الموسيقى النازية معروضة

فى المحال الخاصة بمثل هذه المواد فى وضح النهار، وكذلك الكتب التى يطالعك غلافها بصور لـ "هتلر" أو الصليب المعقوف، وغيرها من علامات النازية».

*** «أجراس الكنيسة المحافظة تُقرَع بموجة جديدة من التطرف»**

وتحت هذا العنوان أيضًا، يشير كاتب إسبانى إلى حركة محافظة جديدة، هدفها الرئيسى هو بالحرف الواحد:

«إعادة التنصير، والعودة إلى الأرثوذكسية الكاثوليكية البحتة. وبدلاً من إتاحة الفرصة للمسيحية للتأقلم مع المجتمع الحديث، أراد مناضلو الحركة تنصير العالم.. وبين شهود هذا امرأة كانت تضع باقات الزهور فى مكان المذبحة التى قام بها النازيون ضد المدنيين».

*** «التطرف الصهيونى خطر على إسرائيل أيضًا..»**

وتحت هذا العنوان كذلك، نقرأ اعترافًا لمحلل صهيونى تعليقًا على مذبحة الحرم الإبراهيمى، يقول:

«كان "جولدشتاين" الذى نفّذ المذبحة، والذى كان يقطن مخيمًا بالقرب من مستوطنة "كريات أربع"، على اتصال لسنوات عديدة بالحاخام "كاهانا" وحركته، وكان يمثل حركة "كاخ" فى بلدية "كريات أربع"، وكان يدافع عن أهداف الحركة. وقد احتفل مناضلو "كاخ" بالمذبحة التى نفذها "جولدشتاين" على اعتبار أنها الرد المناسب على موجة الإرهاب العربى. وقد وصفوا تلك المذبحة بأنها عمل مقدس وتضحية»!..

*** «العالمية ثقافة من لا ثقافة له»**

وهنا يتحدث باحث "وورد ميديا" عن هذه العالمية التى تحاول أن تحلق فوق العالم لتبسط عليه سيطرتها، بعد أن جردته من جوهره مستعينةً برموز تافهة لثقافة قومية تتمثل فى الوجبات السريعة وشراب معين وطراز مختار من الموسيقا وعروض ترفيهية حقيرة كديزنى لاند.. إلى غير ذلك.

وبعبارة أخرى، يؤكد الكاتب أن "العالمية" التى نتحدث عنها الآن، هى بوضوح، وبالحرف الواحد:

«تحليق فوق عالم تسعى إلى السيطرة عليه بعد أن كانت قد فرغته من جوهره».

ولا تنتهى هذه العناوين أو التعليقات السريعة تحتها، لكنها تنذر بما سوف يأتى به القرن 21، وهو القرن الذى سوف يشهد تزايد خطر العنصرية، سواء العرقية، أو الصهيونية البغيضة التى نعانى منها فى الوقت الراهن، والتى سيتزايد خطرها حتى يهيمن على شعوب وقوميات كثيرة فى العالم..

فتفيد البعض..

وتبيد البعض..

وتتحول إلى راية تحملها كثير من الأيدى المرشحة الآن لنصرة هذا الكيان الصهيونى فى الشمال الغربى.

كما سيشهد عنصرية أبشع تتمثل فى الدعوة إلى "الأرثوذكسية الكاثوليكية" التى تسعى إلى القضاء على الآخَر..

والآخَر - الآن - بعد سقوط الاتحاد السوفييتى.. هو العرب.

والأخطر من هذا كله، أنه سيتم تأكيد دور الإنجازات التكنولوجية والاقتصادية الجشعة، والثقافات التى يراد لها أن تكون عالمية فى غيبة أية ثقافة وطنية أخرى.

هذا هو الإنذار المبكر..

أم تراه أصبح الآن إنذارًا متأخرًا؟

تطورات القرن الحالى ستجيب عن هذا السؤال!

كوميديا

لا أعرف إنْ كان هذا جدًّا أمْ هَزْلاً؟..

فقد طيرَتْ وكالات الأنباء خبرًا يقول: إنه تم افتتاح "مهرجان الفكاهيين" فى الدار البيضاء!

حسبتُ أن الأمر لا يعدو أن يكون إعلانًا عن مهرجان جديد مثل هذه المهرجانات الكثيرة التى تُعقد من آن لآخر تحت مسميات متباينة، وتُحشد لها جمهرة ضخمة ممن يحملون ألقاب "الأساتذة" أو "الجهابذة" - فضلاً عن سادتنا "الدكاترة" - الذين زادوا فى عالمنا العربى هذه السنوات الأخيرة

قلت فى نفسى: لعلها دعابة سمجة من جملة الدعابات السمجة التى نقرؤها من ن لآخر فى باب "حظك اليوم"..

أو هى سماجة من النوع الثقيل الذى نعرفه فى منطق السيد «نتنياهو» الذى ينقلب - لفرط فجاجته - إلى فكاهة تُدمع العينين قبل أن تُبكيهما..

لكنى عدت لأتوقف أمام هذا الخبر الذى سرعان ما تناثر فى العديد من الصحف ببنط عريض: "**الفكاهة فى خدمة الوحدة العربية**"..

وحُشد له كثير من الفكاهيين الذين استجابوا للدعوة.

الأمر جد إذًا!

....

مر وقت طويل وأنا أحاول تفسير الأمر.

أى فكاهة هذه ونحن نعيش فكاهات كثيرة هذه الأيام؟!

أهى فكاهة الصهاينة الذين يصيحون قائلين كلما رأوا «نتنياهو»: "يحيا مَلك إسرائيل"، كلما تَحَدَّثَ عن سياسة الردع ضد العرب، وضرب عرض الحائط بنظرية "الأرض مقابل السلام" إلى نظرية "الأمن مقابل الأمن"؟!

وانفرط عقد التساؤل أكثر..

أهى فكاهة قرار جامعة الدول العربية بضرورة تجميد التطبيع مع إسرائيل، فى حين أننا لا نجد مَن يدعو إلى تطبيع بين دولة عربية ودولة عربية أخرى؟!..

(ثم.. كم دولة عربية تلتزم الآن بذلك؟)

أمْ هى فكاهة مواصلة احتجاج مثقفينا الذين جاءوا من كوبنهاجن ليذهبوا إلى القدس كى يعلنوا أنهم يقومون بمظاهرة ضد إسرائيل، على حين انطبع ختم إسرائيل فى جوازات سفرهم وعلى أجسادهم؟!..

أم هى فكاهة هذا الوضع الغريب الذى ازدادت فيه حرائق المثقفين؟..

وتحول الأمر من حوار، إلى سِجال، إلى اتهامات، إلى مهاترات.. وجَرّافات الصهاينة لا تتوقف!

أم هى فكاهة المطالبة فى مجلس الأمن والأمم المتحدة وكل الهيئات الدولية بوقف الاستيطان فى جبل "أبى غنيم" الذى أصبح الآن "هار - حوما"، على حين أن الفيتو فى إثر الفيتو يتوالى علينا.. وبيننا مَن لا يزال يتحدث عن ضرورة تحييد أمريكا، وانتظار الموقف العادل من "الراعى" الذى يهتم بدولة واحدة فى مقابل أكثر من عشرين دولة عربية، ولا يكلف نفسه - حتى - عناء تفسير مواقفه العدائية منها، بل نطالب - نحن العرب - من الولايات المتحدة القيام بدورها للحفاظ على مسيرة السلام والمصالح الأمريكية..

كأن مصالحها ستضار عندنا!

أم هى فكاهة "الكلامولوجيا" التى تتردد فى عالمنا العربى كلما سمعنا أن الجرّافات تعمل فوق جبل "أبى غنيم"، وكلما سمعنا أن الدبابات الإسرائيلية تحاصر الأرض المحتلة فى غزة والضفة.

(هل ثمة مَن ينكر أنها ما زالت محتلة؟!).

أم هى الفكاهة التى أرسلها «نتنياهو» إلى الإعلام قبل أن يأتى إلينا، ومؤداها أنه سوف يذهب إلى مصر ليعلّم المثقفين المصريين الثقافة.. ويُترك له الحبل على الغارب ليجلس مع بعض المثقفين، فيدور الحوار بين الذئب والحِمْلان.. ثم يبدى دهشته من الاعتراض العربى؛ فـ "أبو غنيم" هى أرض يهودية.. (هكذا)!

أم هى أن يأتى عيد الفصح - كما تتحدث الصحف الغربية والعربية - دون أن يأتى السوّاح، حيث بدت القدس خالية من السياح الأجانب مع حلول عيد القيامة؟!

أم هى فكاهة أن يقوم شاب فلسطينى بعملية انتحارية فى مقهى بتل أبيب دون أن نكلّف أنفسنا بالسؤال عن السبب الذى يدفع شابًّا عربيًّا له أربعة أطفال وزوجة عربية بتفجير نفسه!.. فى حين نردد مع الصهاينة والأمريكان أن ما حدث ليس دفاعًا عن النفس أو دفاعًا عن الكرامة، وإنما هى عملية "إرهابية"!

ومتى أصبح الدفاع عن النفس هو الإرهاب؟!

أم الحزن على إرغام «بطرس غالى» على ترك منصبه كأمين عام للأمم المتحدة، ناسين أنه كان أول من دعا إلى التطبيع مع إسرائيل، وأول مَن تجاهَل مجازر

البوسنة؟!.. كما أنه لم يعلن تقرير "قانا" رغم ما أشيع عن ذلك، وبارك كثيرًا من عمليات القتل والإحلال فى دول إفريقيا..

ثم دَعَوْنا له فيما بعد مع الداعين بأن يترأس المنظمة الفرنكفونية فى الغرب؟

أية فكاهة تلك؟!..

بل أية فكاهة نجعلها فى "خدمة الوحدة العربية"؟!..

بل أية وحدة عربية نتحدث عنها فى موضع الهزل؟!..

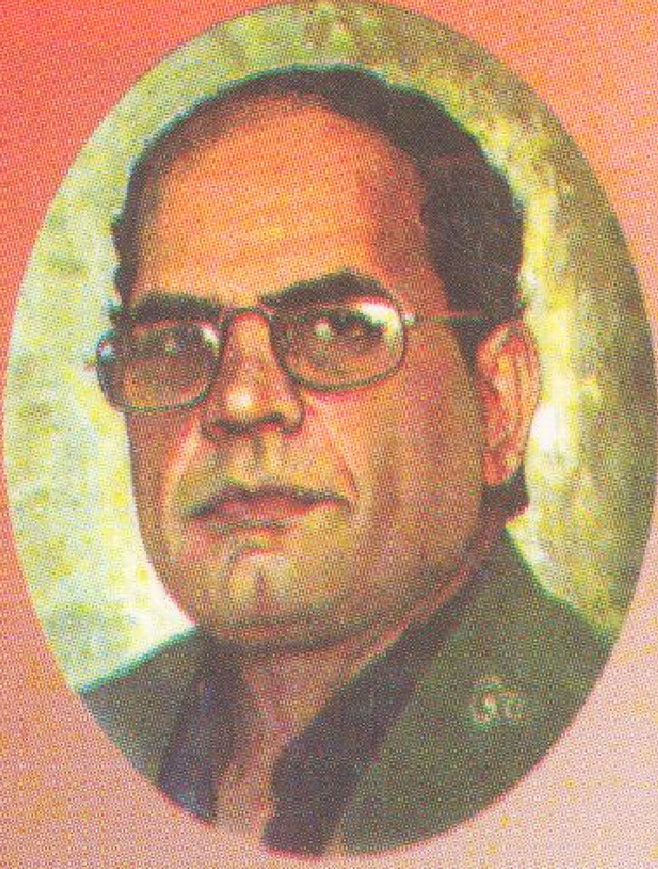
ربما كانت أقرب إلى "الكوميديا السوداء" كما يعرفها الواقع العربى المعاصر!

هذا الكتاب

منذ نهايات القرن الميلادي الثامن عشر، والغرب الأوروبي يتطلع إلى الشرق العربي بنهم زائد طامعًا في نهب ثرواته وخيراته، وراغبًا كذلك في تحجيم قدراته وكبت انطلاقه، فكان من نتيجة هذا الطمع أن اتجهت الحملة الفرنسية إلى مصر عام 1798 لتمثل بدايةً لحركة استعمارية غربية سوف تنتشر وتمتد فيما بعد من قِبَل كلٍّ من فرنسا وبريطانيا للسيطرة على إمكانات العرب.. وكان أنْ درَس الغربُ كلَّ شيء عنا، ووضع خططًا طويلة المدى ليتعامل معنا من خلالها بشكل يحقق له الاستفادة القُصْوَى من مَقْدِرَاتِنا.. وكانت أسهل طريقة لهذا التعامل هي طريقة "الأقنعة"؛ فالغرب - سواءً كان أوروبيًّا أو أمريكيًّا - يتقنع بأقنعة مُضَلِّلَة عديدة، ظاهرها فيه الرحمة، وباطنها من قِبَلِها العذاب.. ولهذا فقد وجدنا أنفسنا - نحن العرب - أمام أقنعة كثيرة، خُدعنا بها واغْتَرَرْنَا، ثم تشتتنا وافترقنا، حتى آل أمرُنا إلى تلك الحالة المحزنة - والمخزية - التي نحياها الآن!

وهذا الكتاب يكشف "القناع" عن تلك "الأقنعة" ليحذّر منها وينبه لخطرها، فيرْصدها قناعًا قناعًا، مبينًا تاريخها، وشارحًا مثالبها وآثارها السلبية.. ويمتاز بأنه لا ينحو مَنْحَى الدراسات الأكاديمية المعقدة في كشفه زيفَ الأقنعة الغربية، وإنما هو يعرض لها بأسلوب سلس بسيط يخلو من التقعّر الأكاديمي المعهود في مثل هذه النوعية من الدراسات المتخصصة.. ومن ثَم فهو يتناسب تمامًا مع كافة القراء على اختلاف ثقافاتهم ومشاربهم.

المؤلف



د. مصطفى عبد الغني.

- كاتب صحفي، وناقد أدبي، ومؤرخ، ومؤلف مسرحي، ومترجم.
- من مواليد القاهرة
- يعمل حاليًّا رئيسًا للقسم الأدبي بصحيفة "الأهرام".
- صاحب مشروع فكري عريض ومتميز، يدور حول ثلاثة مَحاور، أولها: رصد تأثير الأحداث السياسية الحديثة على الإبداع العربي. وثانيها: دراسة سِيَر ومواقف الكُتّاب أصحاب الأدوار الرئيسة الفاصلة في تاريخ الفكر العربي المعاصر. وثالثها: دراسة العلاقة الجدلية، التاريخية والسياسية، بين الغرب والعالم العربي من كافة وجوهها.
- من أبرز مؤلفاته: (الاتجاه القومي في الرواية)، و(قضايا الرواية العربية في نهاية القرن العشرين)، و(المثقفون وعبد الناصر)، و(المفكر والأمير: العلاقة بين طه حسين والسلطة)، و(أحمد بهاء الدين: سيرة قومية)، و(اعترافات عبد الرحمن الشرقاوي)، و(الـ... والتبعية الثقافيـة)، و(مثقفون وجواسيس...)، و(الفريسة والصياد: الدور الأمريكي في اغ... حسن البنا)، و(الجبرتي والغرب: دراسة حضارية مقارنة)، و(معجم مصطلحات التـ... العربي الحديث والمعاصر).. وغير ذلك الكثير.

